القانون

41

تجنَّب الحلول
محل رجل عظيم

الحكم

إن ما يحدث أولاً يبدو دائماً أفضل وأكثر أصالة مما يأتي بعد ذلك. فإذا خَلَفْتَ رجلاً عظيماً أو كان ذلك والد مشهور، فإنه يتعيَّن عليك أن تنجز ضعف ما أنجزاه لكي تتفوَّق عليهما في الإشراق. فلا تَضِعْ في ظلِّهما، أو تلتصق بماضٍ ليس من صنعك. فرسِّخ اسمك وهويتك بتغيير المسار. فاذبح شخصية والدك الطاغية بالانتقاص من تراثه، واحصل على السلطة بالإشراق بطريقتك الخاصة بك.

انتهاك القانون

عندما مات لويس الرابع عشر، سنة 1715، بعد عهد مجيد استمرَّ خمسة وخمسين عاماً، تركزت كل العيون على ابن حفيده، وخلفه المختار، الذي صار فيما بعد لويس الخامس عشر. فهل يتكشَّف الصبيّ، الذي كان في الخامسة من عمره آنذاك، عن قائد عظيم مثل الملك الشمس؟ لقد حوَّل لويس الرابع عشر، بلداً كان على حافة حرب أهلية إلى القوة البارزة في أوروبا. كانت السنوات الأخيرة من عهده صعبة ـ كان عجوزاً ومُتْعَباً. ولكن كان من المأمول أن يتطوَّر الطفل إلى حاكم قوي يعيد بثّ القوة في الأرض ويضيف إلى الأساس المتين الذي أرساه لويس الرابع عشر.

ولهذه الغاية، أُعْطِي الطفلُ أفضلَ الأدمغة في فرنسا كمعلِّمين له، كي يعلِّموه فنون سياسة الدولة، بالطرق التي أتقنها الملك الشمس. فلم يُهْمَلْ شيء في تثقيفه. ولكن عندما اعتلى لويس الخامس عشر العرش في سنة 1726، طرأ عليه تغيّر مفاجيء. إذ لم يعد مضطراً إلى الدراسة كي يسرّ الآخرين، ويثبت نفسه. بل وقف وحده على قمّة بلد عظيم، وتحت إمرته الثروة والسلطة، فهو قادر على أن يفعل ما يشاء.

وفي السنوات الأولى من حكمه، أغرق لويس نفسه في الملذات، تاركاً الحكومة في يدي وزير موثوق به هو آندريه ـ هرقل دي فلوري. فلم يسبب هذا قلقاً يذكر. فقد كان شاباً بحاجة إلى الانغماس في

امتياز المقام الأول

كان من الممكن أن يشع كثيرون في مناصبهم كالعنقاء نفسها لو لم يسبقهم آخرون [تقول أساطير عربية قديمة إن العنقاء لا تموت، بل تحترق عندما تشيخ، ومن رمادها يخرج فرخ صغير كأنه يجدِّد شبابها وهو يشع مفعماً بالحياة: المترجم]. إن احتلال المقام الأول ميزة. ومع المكانة الرفيعة فإنه ميزة مضاعفة. وَزِّع الأوراق للمرة الأولى، وستفوز بالمنزلة العليا... فالسابقون الأولون يكسبون الشهرة بحق الولادة، أما الذين يتبعونهم فهم مثل الأبناء التالين، الذين يرضون بحصص هزيلة... فقد اختار سليمانُ بحكمته النهدةَ السلميةَ، وسلّم الأشياءَ شبه الحرية لأبيه. وبتغيير مساره وجد أن من الأسهل عليه أن يصبح بطلاً...

أما فيليب الثاني، فقد حكم العالمَ كلَّه من على عرش حكمته فأذهل العصور. فقد كان فيليب أنموذجاً للحصافة والتبصُّر... وقد ساعد هذا

شهوات الشباب. وكان دي فلوري وزيراً جيداً. ولكن راح يتضح ببطء أن تلك لم تكن مرحلة عابرة. فلم يكن لدى لويس أي اهتمام بالحكم. ولم يكن همه الرئيسي أحوال فرنسا المالية، أو حرب محتملة مع إسبانيا، بل السأم والملل. فلم يكن يستطيع أن يتحمل الشعور بالسأم، وعندما لم يكن يصطاد الغزلان، كان يطارد الفتيات، ويقتل وقته على موائد القمار، فيخسر مبالغ طائلة في ليلة واحدة.

وكان البلاط ـ كالعادة ـ يعكس ذوق الحاكم. فصار القمار والحفلات المسرفة هما الهاجس المستحوذ على الناس. فلم يهتم رجال الحاشية بمستقبل فرنسا، بل صبّوا طاقاتهم في عملية أسر الملك بالسحر والفتنة، وراحوا يتصيدون ألقاباً تأتيهم بمعاش مدى الحياة، ومناصب وزارية لا تقتضي عملاً يذكر، ولكنها تدرّ رواتب هائلة. وتقاطر الطفيليون إلى البلاط، فتضخمت ديون الدولة.

وفي سنة 1745، وقع لويس في غرام مدام دي بومبادور، وهي امرأة متحدرة في أصلها من الطبقة الوسطى، واستطاعت أن تصعد عن طريق مفاتنها، وذكائها، وزواج مناسب. فصارت هي العشيقة الملكية الرسمية؛ وصارت هي الحَكَم فيما يتعلق بالأذواق والأزياء في فرنسا. ولكن هذه السيدة كانت لها طموحات سياسية كذلك، وهكذا برزت في آخر الأمر كرئيسة غير رسمية للوزراء في البلد. فكانت هي، لا لويس، التي تملك في يدها سلطة التعيين والإقالة لأهم وزراء في فرنسا.

ومع تقدم لويس في السن، لم يكن يحتاج إلاّ إلى المزيد من الإلهاء. فأقام على أرض قصر ڤرساي ماخوراً، هو بارك أو سيرف، يؤوي بعض أجمل فتيات فرنسا. وكانت فيه ممرات تحت الأرض وأدراج مستورة تسهل وصول لويس إليه في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار. وبعد أن ماتت مدام دي بومبادور في سنة 1764، خلفتها المدام دو باري كعيشقة ملكية، وسرعان ما راحت تسيطر على البلاط، ومثل دي بومبادور من قبلها، شرعت تتدخل في شؤون الدولة. فإذا لم

النوعُ من الجِدّةِ المحنّكين في كسب مكان في صفوف العظماء. فالمباقرة، بدون أن يهجروا فنّهم نفسَه، يتركون المسار المألوف، ويخطون خطوات نحو الرفعة، حتى عندما يكون شعرهم قد ابيضّ. فقد سلّم هوراسُ الشعرَ الملحمي لفرجيل وكان [ماركوس فاليريوس] مارشال قد سلّم الشعرَ الغنائيّ لهوراس. واختار تيرينس الملهاة، وبيرسيوس الشعرَ الساخر، وكلٌّ كان يأمل أن يحتلّ المرتبة الأولى في جنس شعره. فالخيال الجريء لا يخضع للتقليد السهل.

مرآة جيب للأبطال
بلثازار غراسيان، ترجمة: كريستوفر موزاز، 1996

يسرها وزيرٌ مّا، فإنه كان يجد نفسه مطروداً. وقد فزعت أوروبا كلها عندما تمكنت دوباري، ابنة الخبّاز، من تدبير أمر طرد إتْيِينْ دي شوازيل، وزير الخارجية، وأقدر دبلوماسي في فرنسا، إذْ أنه أظهر لها احتراماً أقل من اللازم بكثير. ومع مرور الزمن، راح النصابون والدجالون يبنون أعشاشهم في ڤرساي، وأغرو لويسَ بالاهتمام بالتنجيم والسحر والعرافة، والصفقات التجارية الاحتيالية، وهكذا فإن الشاب المراهق والمدلل الذي تولى عرش فرنسا قبل سنين لم يزده التقدم في السن إلاَّ سوءاً.

وكان الشعار الذي التصق بعهد لويس الخامس عشر هو: «فليأت بعدي الطوفان»، أي: فلتتعفّن فرنسا بعد ذهابي. وبالفعل، فعندما ذهب لويس، مهترئاً من فسوقه الخليع كان بلده، وكذلك شؤونه المالية في حالة مريعة من الفوضى. وورث عنه حفيده لويس السادس عشر بلداً في حاجة ماسة إلى الإصلاح وإلى قائد قويّ. ولكن لويسَ السادس عشر كان أضعف حتى من جده. ولم يكن بوسعه سوى أن يتفرج بينما كان البلد ينحدر إلى الثورة. وفي سنة 1792، أعلنت الجمهوريةُ التي جاءت بها الثورة إنهاءَ الملكية، وأعطت الملك اسماً جديداً هو «لويس الأخير». وبعد بضعة أشهر ركع على المقصلة، وقد عري رأسه الموشك على القطع من كل الإشعاع والسلطة اللذين كان الملك الشمس قد بثّهما في التاج.

التفسير

من بلد كان قد انحدر إلى الحرب الأهلية في أواخر أربعينات القرن السابع عشر، صاغ لويس الرابع عشر أقوى مملكة في أوروبا. فكان القادة العسكريون العظام يرتجفون في حضرته. وقد غلط طباخٌ ذات مرة في تهيئة أحد الأطباق فانتحر بدلاً من مواجهة غضب الملك. وكان للويس الرابع عشر عشيقات كثيرات. ولكن سلطتهن كانت تنتهي في المخدع. وقد ملأ بلاطه بألمع الأدمغة في عصره. وكانت ڤرساي

حياة بريكليس

كان بريكليس في شبابه ميّالاً إلى الإحجام عن مواجهة الناس. وكان أحد أسباب ذلك هو أن الناس كانوا يرون فيه شبهاً واضحاً متميزاً من الطاغية بيزيستراتوس، وعندما أبدى المتقدمون في السن ملاحظاتهم حول سحر صوت بريكليس وطلاوة كلامه وطلاقته كان الناس يذهلون من التشابه بين الاثنين. وقد كان خوفه من العزلة حقيقياً، نظراً لأنه كان غنياً، ومتحدِّراً من أسرة متميزة، وله أصدقاء أقوياء كثيرون. وفي بداية حياته العملية لم يشتغل بالسياسة، بل كرَّس نفسه للجندية، التي أظهر فيها جرأة ومغامرة عظيمتين.

غير أنه جاء وقت كان فيه آريستيدس قد مات، وثميستوكليس في المنفى، وسيمون كثير الغياب في حملات نائية. وأخيراً قرّر بريكليس أن يرتبط بحزب الشعب، ويلتزم بالدفاع عن قضية الفقراء والكثيرين، بدلاً من قضية الأغنياء والقليلين، رغم أن ذلك كان مناقضاً تماماً لمزاجه الخاص، الذي كان أرستقراطياً بشكل كامل. ويبدو أنه كان يخشى من أن يرتاب الناس في كونه يهدف إلى إقامة دكتاتورية؛ بحيث إنه عندما رأى أن ميول سيمون متعاطفة بقوة

رمز سلطته: فقد رفض القبول بقصر أجداده: اللوفر، فبنى قصره الخاص به في وسط ما كان اللامكان عندئذٍ، رامزاً بذلك إلى أن نظامه نظام جديد أَسَّسَهُ هو بدون سابقة. فجعل ڤرساي واسطة عقد عهده. ومكاناً يحسده كل ذوي السلطة الأقوياء في أوروبا ويزورونه بشعور بالهيبة والرهبة. ومن حيث الجوهر فإن لويس أخذ فراغاً كبيراً ـ هو الملكية الفرنسية الآخذة في التفسخ. وملأه برموزه الخاصة وسلطته المشعّة.

مع النبلاء، وأن سيمون كان معبود الحزب الأرستقراطي، فقد بدأ بريكليس يتقرّب من أبناء الشعب، للحفاظ على نفسه من جهة، وكطريقة لتأمين السلطة ضد منافسه. فبدأ يعيش حياته بطراز جديد. فلم يشاهد أحدٌ أبداً يسير في أي شارع سوى الذي يؤدّي إلى السوق وغرفة المجلس.

حياة بريكليس
بلوتارخ، حوالى 46 ـ 120 م

وكان لويس الخامس عشر، من جهة أخرى، يرمز إلى مصير كل الذين يرثون شيئاً كبيراً أو الذين يتبعون خُطَى رجل عظيم. وقد يبدو أن من السهل على ولدٍ أو خَلَفٍ أن يبنيا على الأساس الكبير المتروك لهما ولكن العكس هو الصحيح في مملكة السلطة. فالولد المدلل المستجاب الطلبات يبعثر ميراثه بصورة تكاد تكون دائمة، لأنه لا يبدأ بالحاجة إلى ملء الفراغ التي بدأ بها أبوه. وكما يذكر ماكيافيللي، فإن الضرورة هي ما يدفع الناس إلى العمل. وما أن تنتهي الضرورة، حتى يبقى التعفن والتفسخ فقط. ولما لم يكن لويس الخامس عشر بحاجة إلى زيادة مخزونه من السلطة، فقد خضع حتماً للكسل والجمود. وفي ظل حكمه أصبحت ڤرساي (التي كانت رمز سلطة الملك الشمس) إلى قصر ملذات لا يُضَاهَى في ابتذاله، إلى نوع من «لاس فيغاس» تابعة لملكية آل بوربون. وصارت تمثل كل ما كان فلاحو فرنسا المقهورون يكروهونه في ملكهم. وفي أثناء الثورة الفرنسية نهبوا ڤرساي وهم فرحون طَرِبُون.

ولم يكن أمام لويس الخامس عشر سوى مخرج واحد من المصيدة التي تنتظر ابنَ رجلٍ كالملكِ الشمسِ أو خَلَفِهِ، وهو: أن يبدأ نفسياً من الصفر، فيشوه سمعة الماضي وميراثه، وأن يتحرك في اتجاه جديد كلّيّاً فيخلق عالمه الخاصَّ به. ومع افتراض أن لديك الخيار، فإن من الأفضل أن تتجنب هذا الوضعَ كلَّه. وأن تضع نفسك حيث يوجد فراغ في السلطة، بحيث تكون أنت الذي يأتي بالنظام من الفوضى بدون الحاجة

إلى التنافس مع نجم آخر في السماء. فالسلطة تعتمد على ظهورك أكبر من الآخرين. وعندما تضيع في ظل الأب، الملك، السلف العظيم، فإنك لن تستطيع إبراز مثل هذا الحضور.

ولكن عندما شرعوا في جعل السيادة وراثية، تدهور الأطفال بسرعة عن مستويات آبائهم، فابتعدوا كثيراً عن محاولة مضاهاة فضائل آبائهم، فاعتبروا أن الأمير ليس لديه ما يفعله سوى أن يبزّ الجميع في الراحة والبطالة والانغماس في الشهوات وكل أنواع اللذات والمسرات الأخرى.

(نيقولو ماكيافيللي 1469 ـ 1527)

مراعاة القانون

عندما كان الإسكندر الأكبر شاباً، سيطرت عليه عاطفة حماسية ـ هي كراهية شديدة لوالده فيليب ملك مقدونيا. فقد كره أسلوبَ فيليب الماكر الحذر في الحكم، وخطبَهُ الطنانةَ، وسكرَهُ، وفجورَهُ، وحبَّهُ للمصارعة وغيرها من أساليب تضييع الوقت. وكان يعلم أنَّ عليه أنْ يجعل نفسه عكس والده المسيطر تماماً: فقرر أن يرغم نفسه على أن يكون جريئاً ومتهوراً، ويتحكم بلسانه ويكون رجلاً قليل الكلام، لا يضيع الوقت الثمين في ملاحقة مسرّات لا تجلب مجداً. كما سَخِطَ الإسكندرُ على غزو فيليب لمعظم بلاد اليونان، فشكا بقوله ذات مرة: «سوف يستمر أبي في الغزو حتى لا يترك لي شيئاً خارجاً عن المألوف أفعله». وبينما كان الأبناء الآخرون للأقوياء ذوي السلطة قانعين بأن يرثوا الثروة ويعيشوا حياة فراغ وتبطُّل لم يكن الإسكندر يريد سوى أن يبزّ والده، ويمحو اسم فيليب من التاريخ بالتفوق على منجزاته.

وكان الإسكندر يتحرق ليُظْهِرَ للآخرين كم هو متفوق على أبيه. وذات مرة جاء تاجر خيول من ثيسالي بحصان رائع يُسَمَّى بوسيفالوس كي يبيعه لفيليب. فلم يستطع أي واحد من ساسة خيول الملك أن يقترب من ذلك الحصان ـ فقد كان مفرط الوحشية ـ فوبّخ فيليبُ التاجرَ على

حياة الرسام
بييترو بيروجينو
حوالى 1450 ـ 1523
كم يكون الفقر مفيداً أحياناً لأصحاب الموهبة. وكم يعمل كحافزٍ قوي لجعلهم كاملين أو ممتازين في أية مهنة قد يختارونها. ويمكن رؤية ذلك بوضوح في أعمال بييترو بيروجينو. فقد رغب في استخدام قدرته للحصول على مكانة محترمة، بعد أن خلف مصائب كارثية وراءه في بيروجيا، وجاء إلى فلورنسا، حيث بقي أشهراً عديدة في فقر، وهو ينام في صندوق لأنه لم يكن لديه سرير آخر. فحوّل ليله إلى نهار، وعكف على دراسة

جلبه مثل هذا الحيوان الذي لا فائدة منه. وكان الإسكندر يتفرج على المسألة كلها، فعلق عابساً: «يا له من حصان يخسرونه لانعدام المهارة والروح لتدبيره!» وعندما كرر ذلك عدة مرات، عيل صبر فيليب، فتحدّاه أن يكسر شكيمة الحصان. واستدعى التاجر ثانيةً وهو يأمل في سرّه أن يتعرض ابنه لسقطةٍ مؤذيةٍ تعلّمه درساً مريراً: فلم يكتف الإسكندر بركوب بوسيفالوس، بل استطاع أن يقوده في شوط عدوٍ سريع. فَرَوَّضَ الحصانَ الذي حمله طيلة المسافة إلى الهند. وصفق رجال الحاشية بشكل جامح. ولكن فيليبَ راح يغلي من الداخل وهو لا يرى أمامه ولداً، بل منافساً له في سلطته.

وصار تحدي الإسكندر لأبيه أجرأ. وذات يوم اندلعت بين الرجلين مشادة حامية أمام البلاط كله. فشهر فيليب سيفه كأنه يريد أن يضرب ولده؛ غير أنه كان قد أفرط في الشراب، فتعثّر. فأشار إليه الإسكندر وقال ساخراً: «يا رجال مقدونيا، انظروا هناك إلى رجل يستعد للعبور من أوروبا إلى آسيا. إنه لا يستطيع العبور من طاولة إلى أخرى دون أن يسقط».

وعندما كان الإسكندر في الثامنة عشرة، قام رجل حاشية ساخط باغتيال فيليب. وعندما انتشر خبر مصرع الملك في اليونان، ثارت مدينة بعد أخرى متمردة على حكامها المقدونيين. ونصح مستشارو فيليب الإسكندرَ، الذي صار ملكاً، أن يتقدم بحذر وأن يتصرف كما تصرف فيليب، فيغزو بالخداع والدهاء. ولكن الإسكندر كان يريد أن يعمل الأشياء بطريقته الخاصة به: فزحف إلى أقاصي امتدادات المملكة، وقمع المدن المتمردة وأعاد توحيد الإمبراطورية بكفاءة وحشيّة.

ومع تقدّم المتمرد الشاب في السن، فإن صراعه ضد أبيه غالباً ما يأخذ في الانحسار، فيصير بالتدريج شبيهاً بالرجل الذي أراد أن يتحداه نفسه. ولكن نفور الاسكندر من أبيه لم ينتهِ بموت فيليب. وما أن عزّز اليونان حتى وضع نُصْبَ عينيه بلادَ فارس، الجائزة التي أفلتت من أبيه

حرفته مثابراً في حماس عظيم. وبعد أن أصبح الرسم طبيعة ثانية له، كان سروره الوحيد هو العمل في حرفته على الدوام، بحيث راح يرسم في دأب متواصل. ونظراً لأن الرعب من الفقر كان ماثلاً أمام عينيه دائماً، فقد عمل أشياء لكسب المال لعله ما كان لبهتم بالقيام بها على الإطلاق لو لم يكن مرغماً ليعيلَ نفسَه. وربما كان الغِنَى سيسدّ أمامه وأمام موهبته سبيلَ الإبداع والتميُّز، تماماً كما فتحه له الفقر. ولكن الحاجة ظلّت تحفزه على الاستمرار، لأنه كان يرغب في الارتفاع من حضيض مركزه البائس المتواضع، إن لم يكن نحو القمة وذروة التميز، فلا أقلّ من نقطة يستطيع عندها الاستمرار في العيش. ولهذا السبب فإنه لم يحبأ بالبرد، والجوع، والانزعاج، والمضايقات، والكدح، أو الخجل إن كان يستطيع العيش يوماً واحداً فقط في يسرٍ وراحة وَدَعَة، وكان يقول دائماً، فيما يكاد يشبه الأمثال، إنه بعد الطقس السيّء لا بدّ أن يأتي الطقس الطيّب، وإنه في الطقس الطيّب يجب بناء البيوت لتكون مَيْوَى في أوقات الحاجة.

حَيَوَاتُ الفنانين
جورجيو فاساري
1574 ـ 1511

الذي كان يحلم بغزو آسيا. فإذا دَحَرَ الإسكندر الفُرْسَ فسوف يتفوق على أبيه في نهاية الأمر في المجد والشهرة.

وعَبَرَ الإسكندر إلى آسيا بجيش من 35000 مقاتل ليواجه قوة فارسية يزيد تعدادها على مليون. وقبل الاشتباك مع الفرس في معركة، مَرَّ عَبْرَ مدينة غورديومْ. وهنا في معبد المدينة الرئيسي كانت تقف عربة قديمة مربوطة بحبال مصنوعة من لحاء شجرة القرانيا. وكانت هناك أسطورة تقول إن من يستطيع أن يفكّ تلك الحبال سيحكم العالم (كانت تلك هي العقدة الغورديّة، التي أحكم شدّها غورديوس ملك فرجينيا). وقد حاول كثيرون أن يحلّوا تلك العقدة الضخمة والمعقدة فلم ينجح أحد منهم. ورأى الإسكندر أنه لا يمكن أن يحلّ تلك العقدة بيديه المجردتين. فشهر سيفه، وبضربة واحدة قطعها إلى نصفين. فأظهرت تلك الإشارة الرمزية للعالم أنه لن يفعل ما فعله الآخرون، بل سيشق طريقه الخاص به.

وفي مواجهات أرجحياتٍ مذهلة ضد الإسكندر، تمكن من دحر الفُرْس. وقد توقع أغلب الناس أنه سيتوقف هناك. فقد كان نصره عظيماً، يكفي لتأمين شهرته إلى الأبد. ولكن علاقته بأفعاله كانت هي نفسها علاقته بوالده. وكان غزوه لفارس يمثل الماضي. ولم يرد أن يستريح على انتصارات الماضي، أو أن يسمح للماضي بأن يتفوق في الإشراق على الحاضر. فاستمر في حركته نحو الهند، ماداً إمبراطوريته فيما وراء الحدود المعروفة جميعاً. ولم يمنعه من الزحف إلى أبعد من ذلك سوى جنده الساخطين والمبعدين.

التفسير

يمثل الإسكندر نموذجاً غير مألوف للغاية في التاريخ، وهو نموذج ابن الرجل الشهير والناجح، الذي يستطيع أن يتفوق على أبيه. وهو نموذج غير مألوف لسبب بسيط: فالأب، في أغلب الأحيان، يجمع

ثروته، ومملكته، لأنه يبدأ بالشيء القليل أو بلا شيء. فهناك حافز باطني يدفعه دفعاً إلى النجاح ـ فليس لديه ما يخسره بالدهاء والتهور، وليس له أب مشهور وعليه أن ينافسه. فهذا النوع من الرجال لديه سبب للإيمان بنفسه. وللإيمان بأن طريقته في عمل الأشياء هي الأفضل، لأنها ـ بعد كل شيء ـ نجحت بالنسبة له.

وعندما يكون لرجل كهذا ولد، فإن الرجل يصبح مهيمناً وثقيل الوطأة، يفرض دروسه على ولده، الذي يبدأ انطلاقة حياته في ظروف مختلفة كلّيّاً عن تلك التي كان الأب نفسه قد بدأ بها. وبدلاً من السماح للابن بالذهاب في اتجاه جديد، سيحاول الأب أن يضع ابنه في مكانه. ولعله يرغب في سره أن يفشل الولد، كما أراد فيليب أن يرى الإسكندر مرميّاً من على ظهر الحصان بوسيفالوس. فالآباء يحسدون نشاط أبنائهم وقوتهم، بعد كل شيء. ورغبتهم هي السيطرة والهيمنة. وأبناء مثل هؤلاء الرجال يميلون إلى أن يصيروا مرتاعين وحذرين، ومذعورين من خسارة ما كسبه آباؤهم.

فالابن لن يخطو خارج ظل أبيه ما لم يتبع استراتيجية الإسكندر التي لا ترحم: استخفّ بالماضي، واخلق مملكتك الخاصة، وضع ابنك في الظلال بدلاً من السماح له بعمل الشيء نفسه لك. فإن لم تكن قادراً على أن تبدأ ماديّاً من طابق الصفر ـ إذ أن من الحمق التخلي عن إرث فإنك تستطيع أن تبدأ من طابق الصفر نفسيًّا على الأقل، فتلقي بعبء الماضي من على كاهلك، وتختطّ لنفسك اتجاهاً جديداً. فقد أدرك الإسكندر بغريزته أن امتيازات المولد عقبات في طريق اكتساب السلطة فكن إذن بلا رحمة مع الماضي ـ ليس فقط مع أبيك وأبيه، بل ومع إنجازاتك الأولى. فالضعفاء وحدهم، هم الذين ينامون على أكاليل غارهم، ويشغفون بانتصارات الماضي؛ وفي لعبة السلطة، لا وقت للراحة أبداً.

مشكلة بول مورفي

إن أبسط معرفة بالشطرنج تُظهِرُ أنها لعبة بديلة لفن الحرب. وبالفعل، فقد كانت وسيلة الترفيه المفضّلة لعدد من أعظم القادة العسكريين، من وليام الفاتح إلى نابليون. وفي الصراع بين الجيشين المتخاصمين في هذه اللعبة يجري إظهار مبادىء الاستراتيجية والتكتيك (أي الهدف الثابت والخطة المرحلية) التي تستخدم في الحرب الفعلية نفسها. كما أن هناك ضرورة لإظهار بُعد النظر والقدرات الحسابية نفسها، وكذلك القدرة على حَدْس خطط الخصم. كما أن الصرامة التي تتخذ بها القرارات وتتبعها عواقبها، فيها عدم الرحمة في الحرب نفسها. إن لم تكن أشدّ وأدمى. وأكثر من ذلك، فإن الحافز اللاشعوري الذي يحفز اللاعبين ليس قاصراً على حب المشاكسة والخصام الذي يميّز كل الألعاب

مفاتيح السلطة

في كثير من الممالك القديمة، كالبنغال وسومطره مثلاً، كان الملك بعد أن يحكم عدة أعوام يعدمه رعاياه. وكان سبب ذلك جزئياً أنهم يقومون به كأحد طقوس التجديد. وكذلك لمنعه من تضخم سلطته أكثر من اللازم ـ لأن الملك كان يحاول بصورة عامة أن يقيم نظاماً دائماً على حساب أسرٍ أخرى وعلى حساب أبنائه أنفسهم. وبدلاً من حماية القبيلة وقيادتها في أوقات الحرب، سيحاول السيطرة عليها. وهكذا كانوا يضربونه حتى الموت أو يعدمونه وفق طقوس معقدة ومنتظمة. وعندئذ، بعد أن يتم تغييبه لئلا يدير التكريم رأسه، يمكن عبادته كإله. وفي الوقت نفسه يتم إخلاء الميدان لنظام جديد وشاب كي يرسخ نفسه.

إن هذا الموقف المزدوج المعادي للملك، أو لشخصية الأب، يجد تعبيراً له أيضاً في أساطير الأبطال الذين لا يعرفون أباهم. فموسى، النموذج الأصلي لرجل السلطة، عثر عليه وسط نبات البَرْدِيّ ولم يعرف أبويه أبداً [حسب التوراة المليئة بالزيف والتحريف: المترجم]. وبدون أب يتنافس معه ويقيد حركته، استطاع أن يصل إلى ذروة السلطة. وهرقل لم يكن له أب أرضي ـ بل كان ابن «الإله» زيوس، معبود الإغريق الأقدمين حسب الأساطير. والإسكندر أشاع في أواخر أيام حياته أن «الإله» جوبيتر آمون هو الذي أنجبه، وليس فيليب المقدوني. فمثل هذه الأساطير والطقوس تحذف الأب الإنساني لأنه يرمز إلى قوة الماضي المدمرة.

فالماضي يمنع البطل الشاب من خلق عالمه الخاص به ـ إذ يتعين عليه أن يفعل كما فعل أبوه، حتى وإن كان أبوه قد مات ولم تعد له سلطة. فالبطل عليه أن ينحني ويظهر الاحترام لسلفه ويخضع للتقاليد والسوابق. وما حقق نجاحاً في الماضي يجب أن يمتد إلى الحاضر، حتى ولو تغيرت الظروف تغيراً كبيراً. كما أن الماضي يثقل كاهل البطل بإرث يرتعب من فقدانه، مما يجعله متخوفاً وحذراً.

التنافسية، ولكنه الحافز الكالح الرهيب لقتل الأب. صحيح أن الهدف الأصلي ـ أسْرَ الملك ـ قد تمّ التخلّي عنه، ولكن من حيث الدافع لم يحدث تغيير يذكر، إلاّ فيما يختص بالفجاجة، في الهدف الحالي، وهو تعقيمه بشلّ حركته... فعبارة «كش مات» تعني حرفياً شاهُكَ (ملكك) مات... إن معرفتنا بالحافز اللاشعوري في لعب الشطرنج تخبرنا أن ما يُعْرَضُ علينا فيها هو الرغبة في التغلب على الأب بطريقة مقبولة. ولا شك أن من المهم أن الكفاح الملحمي [لبطل الشطرنج في القرن التاسع عشر، بول] مورفي للصعود إلى ذرى ممالك الشطرنج، قد بدأ بعد عام واحد فقط من موت والده المفاجىء وغير المتوقع، والذي كان صدمة كبرى له. ولنا أن نتأمّل في أن جهده اللامع للتسامي فوق آلامه، كان ردّ فعل على هذا الحدث الحسّاس الأهمية، تماماً كما هي الحال عند هاملت بطل رواية شكسبير، وكتاب فرويد تفسير الأحلام... وينبغي أن يُقال شيءٌ الآن عن الاستقبال الذي لقيه نجاح مورفي، إذْ إن انتصاراته كانت من نوعٍ يثير التساؤل عما إذا كان انهياره اللاحق، فيما بعد، لم يتأثر من احتمال كونه من النمط الذي وصفه فرويد بعبارة: «الذين يحطّمهم النجاح»... فإذا صيغ السؤال بلغة مستقاة من اصطلاحات علم النفس فسيصبح: هل دُهِرَ مورفي من وقاحته نفسها عندما

إن السلطة تعتمد على القدرة على ملء الفراغ، واحتلال ميدان تم إخلاؤه من أعباء الماضي الميتة. ولن يتاح لك المجال لخلق وتأسيس نظام جديد إلاّ بعد التخلص من شخصية الأب على نحو مناسب. وهناك استراتيجيات عديدة تستطيع أن تتبناها لتحقيق ذلك ـ تنويعات على إعداد الملك تخفي عنف الحافز الدافع وتموهه بتوجيهه ليتقولب في أشكال مقبولة اجتماعياً.

ولعل أبسط طريقة للهرب من ظل الماضي هي التقليل من شأنه ـ ببساطة. واستغلال العداء الأبدي بين الأجيال، وإثارة الشباب على الشيوخ. ولهذا الغرض أنت بحاجة إلى شخصية مناسبة لعجوز كي تشهر به. فماوتسي تونغ، في مواجهة حضارة تقاوم التغيير بشراسة، استغل السخط المكبوت ضد الحضور الطاغي لكونفوشيوس المبجل في الثقافة الصينية. وكان جون فيتزجيرالد كيندي يعرف أخطار الضياع في الماضي: فميّز رئاسته بشكل جذري عن رئاسة سلفه، دوايت ديفيد آيزنهاور، وعن عقد الخمسينيات المنصرم في القرن العشرين، الذي طبعه آيزنهاور بطابعه الشخصي. وعلى سبيل المثال، فإن كيندي لم يلعب لعبة الغولف الأبوية الباهتة ـ التي كانت رمزاً للتقاعد وامتيازات النفوذ، والتي كان آيزنهاور يحبها بحماس. وبدلاً من ذلك مارس لعبة كرة القدم على ساحة البيت الأبيض. وفي كل جانب كانت إدارته تمثل النشاط والحيوية والشباب، وعلى عكس الاتجاه الرجعي المحافظ لآيزنهاور. كان كيندي قد اكتشف حقيقة قديمة، وهي: من السهل تسليط الشباب ضد الشيوخ، إذ أنهم يتشوقون لإثبات وجودهم ومكانهم في العالم، ويسخطون على ظل آبائهم.

وكثيراً ما تتطلب المسافة التي تقيمها بينك وبين سلفك نوعاً من الرمزية، وطريقةً للإعلان عن نفسك على الملأ. وعلى سبيل المثال فقد خلق لويس الرابع عشر مثل هذا الرمز عندما رفض القصر التقليدي

سُلّط ضوءُ الشهرة على [هذا النجاح العظيم؟]. ولقد أشار فرويد بأن الذين يتحطّمون تحت توتر النجاح الأعظم مما ينبغي، يعود سبب تحطمهم إلى كونهم يستطيعون تحمله في الخيال. . أما في الحقيقة فلا ذلك أن حصاد الأب في حلم ما يختلف جداً عن ارتكاب ذلك في الحقيقة. فالوصم الحقيقي يشير الإحساس بالذنب الكامن في أعماق اللاشعور بكل قوته. وقد تكون العقوبة انهياراً عقلياً.

مشكلة بول مورفي
إرنست جونز، 1951

للملوك الفرنسيين، وبنى قصره الخاص به في ڤرساي. وفعل ملك إسبانيا فيليب الثاني الشيءَ نفسَه عندما أوجد مركز سلطته، قصر الإسكوريال في وسط ما كان يبدو آنئذٍ كاللامكان. ولكن لويس سار في اللعبة إلى ما هو أبعد. فلم يرد أن يكون ملكاً مثل أبيه أو أسلافه الأوائل. فلم يلبس تاجاً، ولم يحمل صولجاناً، ولم يجلس على عرش، بل أراد أن يقيم نوعاً جديداً من السلطة المهيبة، برموزها وطقوسها الخاصة. فجعل لويس طقوسَ أسلافه، آثاراً مضحكة من بقايا الماضي. فاتبع مثاله: إياك أن تدع نفسك تشاهَدُ كمتبع لطريق سلفك. فإن فعلتَ فإنك لن تتفوق عليه قَطّ. فعليك أن تُظْهِرَ اختلافك عنه بتجسيد ماديّ، بإقامة أسلوب ورمز يفصلانك وحدك.

وكان الإمبراطور الروماني أُغسطس، الذي خَلَفَ يوليوس قيصر، يفهم ذلك فهماً كاملاً. فقد كان يوليوس قيصر قائداً عظيماً، وشخصيةً مسرحيةً كانت مشاهدها تبقي الرومان مستمتعين، كما كان مبعوثاً دولياً أغوته مفاتن كليوباترا. وكان شخصيةً أكبر من الحياة. وهكذا فإن أُغسطس، رغم ميوله المسرحية، تنافس مع قيصر، ليس بمحاولة التفوق عليه، بل بتمييز نفسه عنه. فأقام سلطته على العودة إلى البساطة الرومانية، والتقشف في الأسلوب والمادة معاً. وفي مقابل ذكرى الحضور الطاغي لقيصر، كان موقف أُغسطس يمثل الوقار الرجولي الهادىء الرصين.

والمشكلة مع السلف المستبد أنه يملأ الآفاق أمامك برموز الماضي. فلا يترك لك مجالاً لخلق اسمك الخاص. وللتعامل مع هذا الوضع، فإنك بحاجة إلى تصيّد الفراغات ـ وهي تلك المجالات الثقافية. الحضارية التي تُرِكَتْ شاغرةً والتي يمكنك أن تصبح أولَ شخصية رئيسية تشرق فيها.

فعندما كان بريكليس الأثيني على وشك الانطلاق في حياته العملية

كرجل دولة بحث عن الشيء الذي كان ناقصاً في السياسة الأثينيَّة. كـ معظم السياسيين الكبار في عصره قد تحالفوا مع الأرستقراطية، بل بـ بريكليس نفسه كانت لديه ميول أرستقراطية في الحقيقة. ومع ذلك فقد قرر أن يلقي بحظه مع العناصر الديمقراطية. ولم يكن لاختياره علاقة بمعتقداته الشخصية، ولكنّه أطلقه في حياة عملية لامعة. فقد صار بفعل الضرورة رجلَ الشعب. وبدلاً من التنافس في حلبة مليئة بالقادة العظماء في الماضي والحاضر، أراد أن يُبْرِزَ ٱسمَهُ حيث لا تستطيع الظلال أن تطمس حضوره.

وعندما بدأ الرسام دييغو دي فاليسكويز حياته العملية، كان يعرف أنه لا يستطيع أن يتنافس في الصفاء والأسلوب الفني مع رسّامي عصر النهضة العظام الذين جاؤوا من قَبْلِهِ. وبدلاً من ذلك اختار أن يعمل بأسلوب بَدَا خشناً وفظّاً وغير مصقول بمقاييس عصره، وبطريقة لم يشهدها الناس من قبل. فبرز في هذا الأسلوب وأبدع. وكان في البلاط الإسباني رجال يريدون أن يظهروا انفصالهم عن الماضي، وقد سحرتهم جِدَّةُ أسلوب فاليسكويز، ذلك أن معظم الناس كانوا يخشون الانفصال عن التقاليد بمثل تلك الجرأة، ولكنهم يُعْجَبُون سراً بالذين يستطيعون تحطيم الأشكال التقليدية وبث قوة تجديدية في الثقافة. ولهذا فإن هناك سلطة كبيرة يمكن كسبها من دخول الفراغات والأماكن الخاوية.

وهناك نوع من الغباء العنيد يتكرر عبر التاريخ كله، وهو عقبة كأداء في وجه اكتساب السلطة: إنه الاعتقاد الخرافي بأنه إذا نجح قبلك شخصٌ مّا في عمل كذا وكذا وكذا، فإنك تستطيع أن تعيد تجسيد نجاحه بإنجاز الشيء نفسه تماماً. ومثل هذا النهج الشبيه بقالب الحلوى يغري الشخص غير الخلاق لأنه سهل، ويعجب طبيعتهم المتخوفة والكسولة. ولكن الظروف لا تكرر نفسها بالضبط أبداً.

فعندما تولى الجنرال دوغلاس مكارثر قيادة القوات الأميركية في

الفلبين أثناء الحرب العالمية الثانية، أعطاه مساعدٌ له كتاباً يحتوي على السوابق المختلفة التي أسسها القادة من قبله، والطرق التي نجحوا فيها. فسأل مكاثرُ مُسَاعِدَهُ عن عدد النسخ الموجودة من ذلك الكتاب. فأجاب المساعد بأنها ستّ. فرد الجنرال: «حسناً.. اجمع تلك النسخ الست كلها وأحرقها ـ ولا تبقِ منها شيئاً. فإنني لن أتقيد بالسوابق. فكلما نشأت مشكلة، سأتخذ بشأنها قراراً في الحال. على الفور». اتبع هذه السياسة التي لا ترحم إزاء الماضي. أحرق كل الكتب. ودرِّب نفسك على أن يكون لك رد فعل على الظروف عند حدوثها.

وربما تعتقد أنك قد فصلتَ نفسك عن سلفك، أو عن شخصية أبيك. ولكن مع تقدمك في السن، يتعين عليك أن تظل يقظاً على الدوام، لئلا تتحول بدورك إلى الوالد الذي تمردتَ عليه. فعندما كان ماوتسي تونغ شاباً، كان يكره أباه، وفي الصراع ضده وجد هويته الخاصة، ومعها مجموعة جديدة من القيم. ولكن مع تقدمه في السن، زحفت إلى سلوكه أساليب أبيه مرةً أخرى. وكان أبوه يقدِّر العمل اليدوي أكثر من الفكر؛ وكان ماو يسخر من ذلك في شبابه. غير أنه مع تقدمه في السن، عاد بصورة لا شعورية إلى آراء والده، وراح يردد صدى أفكار فات أوانها بإرغام جيل كامل من المثقفين والمفكرين الصينيين على العمل اليدوي، فكانت تلك غلطة كابوسية كلفت نظامه غالياً.

تذكّر: إنك أنت والد نفسك. فلا تدع نفسك تمضي السنوات في خلق شخصيتك، ثم تتخلى عن حرصك وحيطتك لتتيح لأشباح الماضي ـ الأب، العادة، التاريخ ـ أن تزحف عائدة إليك.

وأخيراً، كما لوحظ في قصة لويس الخامس عشر، فإن الوفرة والازدهار يميلان إلى جعلنا كسالى وغير فاعلين: فعندما تكون سلطتنا آمنة مضمونة، لا نكون بحاجة إلى العمل والتصرف. وهذا خطر جِدِّيّ، وخاصة بالنسبة لمن يحققون النجاح ويكتسبون السلطة في عمر مبكر.

فالكاتب المسرحي الأميركي تنيسي وليامز، على سبيل المثال، وجد نفسه يرتفع كالصاروخ إلى سماء الشهرة من حضيض كونه مغموراً بسبب نجاحه في مسرحيته **الوحوش الزجاجية**. فكتب فيما بعد: «كان سوء الحياة التي أعيشها قبل هذا النجاح الشعبي، يتطلب جَلَداً وتحملاً. فكانت حياة من الكدح والخدش بالأظافر. ولكنها كانت حياة طيبة لأنها كانت نوعَ الحياة التي خُلِقَ من أجلها الكائن العضوي الإنساني. ولم أكن أدرك مدى الطاقة الحيوية التي انصبّت في هذا الكفاح إلى أن زال الكفاح، ووصلت في آخر الأمر إلى برّ الأمان. فجلست ونظرت فيما حولي وأُصِبْتُ فجأةً باكتئابٍ شديد». ولقد أصيب وليامز بانهيار عصبي لعله كان ضرورياً له. فعندما دُفِعَ إلى الحافة النفسية استطاع أن يعيد الكتابة مرة أخرى بحيويته القديمة. فأنتج مسرحية **عربة شارع اسمه الرغبة**. وبالمثل كان فيدور دستويفسكي كلما كتب قصة ناجحة يشعر بالأمن المالي الذي حصل عليه يجعل عملية الخلق غير ضرورية. فكان يأخذ مدخراته كلها إلى الكازينو فلا يغادره حتى يخسر آخر ملّيم له في القمار. وما أن ينحدر إلى حضيض الفقر حتى يتمكن من الكتابة ثانيةً.

وليس من الضروري أن يصل الإنسان إلى مثل هذه الحالات القصوى. ولكن عليك أن تكون مستعداً للعودة إلى المربّع الأول نفسياً بدلاً من أن تصبح بديناً مترهلاً وكسولاً مع الغِنَى. فقد كان بابلو بيكاسو قادراً على التعامل مع النجاح، ولكن فقط بتغيير أسلوب رسمه باستمرار، وكثيراً ما كان ينفصل تماماً عمّا كان قد جعله ناجحاً من قبل. وكثيراً ما تحولنا الانتصارات المبكرة إلى نسخ كاريكاتورية عن أنفسنا. والناس ذوو السلطة الأقوياء يدركون هذه المصايد؛ ومثل الإسكندر الأكبر، فإنهم يكافحون باستمرار كي يعيدوا خلق أنفسهم. فالأب يجب أن لا يُسْمَحَ له بالعودة؛ بل يجب ذبح ذكراه عند كل خطوة على الطريق.

صورة: الأب. إنه يلقي ظلاً عملاقاً على أطفاله، فيبقيهم في أسره بعد رحيله بزمن طويل عن طريق ربطهم بالماضي، فيخمد روحهم الشّابّة، ويرغمهم على أن يسلكوا الدرب المتعَبَ نفسَه الذي سار فيه هو. فأحابيله شتّى. فعند كل مفترق طرق يتعين عليك أن تذبح ذكرى الأب وتخطو خارجَ ظله.

الشاهد: احذر من الحلول محل رجل عظيم ـ لأنه يتعين عليك إذا فعلت أن تحقق ضعف منجزاته كي تتفوّق عليه. ذلك أن الآتين فيما بعد يُنْظَرُ إليهم على أنهم مقلِّدون. فمهما كدحوا وعَرِقُوا فإنهم لن يزيحوا عن كواهلهم ذلك العبء. وإنها لمهارة غير مألوفة ولا عاديّة أن يعثر المرء على طريق جديد للإبداع والتميز، وطريق حديث للشهرة، فهناك عدة طرق للتفرّد، وليست كلها مطروقة جيدة. والجديدة منها قد تكون شاقة، ولكنها كثيراً ما تكون طرقاً مختصرة إلى العَظَمة.

(بلتازار غراسيان، 1601 ـ 1658).

الانقلاب

يمكن استخدام ظل السلف العظيم لتحقيق مصلحة إذا اختير كخدعة، كتكتيكٍ يمكن إلقاؤه بعيداً بمجرد أن يأتيك بالسلطة. فنابليون الثالث استخدم الاسم والأسطورة اللامعين لعم جده، نابليون بونابرت، لمساعدته على أن يصبح رئيساً لفرنسا أول الأمر ثم إمبراطوراً. غير أنه عندما اعتلى العرش لم يبقَ مشدوداً إلى الماضي؛ وسرعان ما بيَّن للناس

كم سيكون عهده مختلفاً، وكان حريصاً على عدم جعل عامة الناس يتوقعون منه أن يصل إلى الأعالي التي وصل إليها بونابرت.

وكثيراً ما يكون في الماضي عناصر جديرة بأن يقترب منها المرء. وصفات من الحمق أن تتجاهلها بدافع الحاجة إلى تمييز نفسك. فحتى الإسكندر الأكبر اعترف بمهارة أبيه في تنظيم الجيش وتأثر به. لا تحويلك الأمر إلى استعراض توضح فيه كيف تعمل الأشياء بطريقة تختلف عن سلفك، قد يجعلك تبدو كالطفل، بل وخارجاً عن السيطرة في الواقع، إلاّ إذا كان لتصرفاتك منطقها الخاص بها.

فجوزيف الثاني، ابن الإمبراطورة النمسوية ماريا تيريزا، تعمّد عرض عمله المعاكس بالضبط لما كانت تعمله أمه ـ فكان يرتدي ملابسه كمواطن عادي، ويقيم في الخانات بدل القصور، ويظهر بمظهر «الإمبراطور الشعبي». ومن جهة أخرى، كانت ماريا تيريزا ملكية وأرستقراطية. والمشكلة أنها كانت محبوبة أيضاً، وإمبراطورة تحكم بتعقل وحكمة، بعد سنوات من التعلم بالطريقة الصعبة. فإذا كان لديك نوع الذكاء والغريزة اللذين يوجهانك الوجهة الصحيحة، فإن ممارسة دور المتمرد لن تكون خطرة. ولكن إذا كنت عادياً، كما كان جوزيف الثاني بالمقارنة مع أمه، فإن من الأفضل لك أن تتعلم من معرفة سلفك وخبرته، القائمتين على أساس شيء حقيقي.

وأخيراً، فكثيراً ما يكون من الحكمة أن تبقي عينيك على الشباب. منافسيك على السلطة في المستقبل. فمثلما تحاول أن تخلّص نفسك من ظل أبيك، فإنهم سوف يمارسون ضدك اللعبةَ نفسَها تماماً. فيشوهون سمعةَ كل شيء أنجزتَهُ. ومثلما تصعد أنت بالتمرد على الماضي، أبقِ عينك على أولئك الصاعدين من الأسفل، ولا تمنحهم فرصة كي يفعلو بك الشيءَ نفسَه.

وكان فنان الباروك والمهندس المعماري العظيم بيترو بيرنيني أستاذاً في التعرف على المنافسين المحتملين الشباب وإبقائهم في ظلّه.

وذات يوم عرض عليه بَنَّاءٌ حجريٌّ مخططاته المعمارية. وكان ذلك البنّاء يدعى فرانشيسكو بوروميني. فتعرّفَ بيرنيني على موهبته فوراً، فاستأجره كمساعد له في الحال، مما سرّ الرَّجلَ الشاب. ولكن ذلك لم يكن في الواقع سوى تكتيك لإبقائه قريباً في متناول يده كي يتمكن من ممارسة الألعاب النفسية عليه ويخلق فيه نوعاً من مركب النقص. وبالفعل، رغم ألمعية بوروميني، فإن لبيرنيني شهرةً أكبر. وقد جعل من استراتيجيته مع بوروميني ممارسةً مدى الحياة. وقد خشي ـ على سبيل المثال ـ أن تصاب سمعته بالكسوف على يد النحات العظيم آليساندرو آلغاردي، فتدبّر الأمر بحيث لا يستطيع آلبغاردي أن يعثر على عمل إلاّ كمساعد له. وكان أي مساعد يتمرد على بيرنيني ويحاول أن يجد طريقه بنفسه يجد أن حياته العملية قد دُمِّرتْ.

القانون

42

اضرب الراعي...
تتفرق الغنم

الحكم

كثيراً ما يمكن تتبع أصل المتاعب إلى فرد واحد قويّ، هو المحرّك، المرؤوس المتغطرس، أسير النيّة الحسنة. فإذا أتحت لمثل هؤلاء الناس مجالاً للعمل، فسوف يخضع لنفوذهم آخرون. فلا تنتظر حتى تتضاعف المتاعب التي يسببونها، ولا تحاول أن تتفاوض معهم - فهم عصيّون على الإصلاح. فحيّد نفوذهم بعزلهم أو نفيهم. وجه ضربتك إلى مصدر المتاعب، وستتفرق الغنم.

مراعاة القانون الأولى

حوالى نهاية القرن السادس قبل الميلاد، أسقطت مدينةُ ـ دولة أثينا سلسلةَ الطغاةِ الصغار الذين كانوا يسيطرون على سياستها طيلة عقود من الزمن، وأقامت بدلاً منهم ديمقراطية، قُيِّض لها أن تدوم أكثر من قرن، ديمقراطية صارت مصدرَ سلطتها، وإنجازاً هو أكبر مبعث لفخرها واعتزازها. ولكن مثلما تطورت الديمقراطية، تطورت معها مشكلة لم يسبق للأثينيين أن واجهوها قَطّ: وهي كيفية التعامل مع الذين لا يهتمون بتلاحم مدينة صغيرة محاطة بالأعداء، والذين لا يعملون لتعزيز مجدها، بل يفكرون فقط في أنفسهم، وطموحاتهم الخاصة، ومؤامراتهم الصغيرة؟ كان الأثينيون يفهمون أن هؤلاء الناس إذا تُرِكُوا وشأنَهم، فسوف يبذرون بذور الشقاق، ويقسمون المدينة إلى طوائف، ويثيرون القلق والمخاوف. وهذه كلها أشياء يمكن أن تؤدي إلى دمار ديمقراطيتهم.

ولم تعد العقوبات العنيفة مناسِبَةً للنظام الجديد المتحضّر الذي أوجدته أثينا. وبدلاً من ذلك وجد المواطنون طريقةً أخرى، أكثَرَ إرضاءً، وأقلَّ وحشيةً للتعامل مع المصابين بأنانية مزمنة: ففي كل سنة كان المواطنون يتجمعون في السوق، ويكتبون على قطعة فخار اسمَ شخصٍ يريدون أن يروه منفيّاً من المدينة لمدة عشرة أعوام. فإذا ظهر اسم معيّن ستة آلاف مرة، كان ذلك الشخص يُنْفَى على الفور. وإذا لم يتلقَّ أحد ستة آلاف صوت، فإن صاحب الاسم، الأكثر تسجيلاً على

غزو بيرو

واشتدَّ الصراع حول المحفّة الملكية [لآتاهوالبا، ملك الإنكا] فصار أشرس من ذي قبل. فراحت تترنّح أكثر فأكثر، وفي آخر الأمر، وبعد مصرع العديد من النبلاء الذين كانوا يسندون المحفة، انقلبت وكان الأمير الهندي [الأحمر] سيهوي إلى الأرض بعنف لو لم تُخفّف وطأةَ سقطته جهودُ بيزارو وبعض الفرسان الآخرين، الذين تلقوه في أذرعهم. وعلى الفور اختطفَ جنديٌّ شارة الإمبراطورية من على صدغيه، وتمَّ نقل العاهل النبيل. تحت حمايةٍ أمنيةٍ مشدَّدة. إلى بناية مجاورة حيث تمَّت حراسته بعناية وعندئذ توقّفت كل محاولة للمقاومة. وانتشر خبر مصير ملك الإنكا [آتاهوالبا] في المدن والقرى، في الريف والحَضَر. فقد انفكّت عقدة السحر الذي كان يمكن أن يجعل البيروفيين متماسكين. ولم يعد كل شخص يفكّر إلاّ في سلامته الخاصة وحتى جنود [الإنكا] المعسكرون في الحقول المجاورة أُصيبوا بالفزع، وعندما علموا بالخبر

قطع الفخار، كان هو الذي يتعرض لعشرة أعوام من «النفي» كمنبوذ. وصار هذا النفي الطقوسيّ، نوعاً من الاحتفال ـ فكم من الفرح ينجم عن القدرة على نفي الأشخاص المزعجين، الجالبين للقلق، الذين يريدون أن يصعدوا فوق الجماعة التي كان عليهم أن يخدموها.

وفي سنة 490 ق .م قام واحد من القادة العظام في تاريخ أثينا. وهو آريستيدس، بالمساعدة على دحر الفُرْس في معركة ماراثون. وفي تلك الأثناء، وبعيداً عن ميدان القتال، كانت نزاهته كقاضٍ قد أكسَبَتْهُ لقبَ «العادل». ولكن مع مرور السنين بدأ الأثينيّون يكرهونه. فقد كان يحوّل استقامته إلى استعراض. واعتقد الأثينيّون أن ذلك كان قناعاً تنكريّاً يخفي شعوره بالتفوق واحتقاره للناس العاديّين. وصار حضوره في كل مكان من السياسة الأثينية ذميماً؛ وسئم المواطنون من سماع مناداته بـ «العادل». وراحوا يخشون من كون هذا الرجل ـ المُصْدِرِ للأحكام، والمترفّع ـ هو بالضبط الطراز الذي سيثير بينهم انقاساماتٍ عنيفةً في آخر الأمر. وفي سنة 482 ق .م، ورغم خبرة آريستيدس التي لا تقدر بثمن في الحرب المتواصلة مع الفرس، فقد جمعوا أصواتاً على القطع الفخارية ونفوه.

وبعد نفي آريستيدس، برز الجنرال العظيم ثَمِيسْتوكْليس قائداً أولَ للمدينة. ولكن تكريمه المتكرر وانتصاراته أدارت رأسه، فأصبح هو الآخر متغطرساً ومستبداً، يذكِّر الأثينيين بلا انقطاع بانتصاراته في المعارك، وبالمعابد التي بناها، وبالأخطار التي درأها عنهم. وبدا كأنه يقول إن المدينة بدونه سيصير مصيرها إلى التّباب. وهكذا في سنة 472 ق .م، ملأ اسمه قِطَع الفخار؛ فتخلصت المدينة من حضوره السامّ.

وكان صاحب أعظم شخصية سياسية في أثينا القرن الخامس قبل الميلاد هو بريكليس بدون شك. فعلى الرغم من تعرضه للتهديد بالنفي عدة مرات، فقد تجنب ذلك المصير بالحفاظ على علاقات وثيقة مع الشعب. ولعله قد تعلَّم درساً وهو طفل من معلِّمه المفضل، دامون،

القاتل، شوهدوا يهربون في كل اتجاه أمام مطارديهم، الذين لم يُظهِروا ـ مع نشوة النصر ـ أي رحمة بفلول المنهزمين. وأخيراً ألقى الليل ـ الذي هو أرحم من الإنسان ـ سدولَه على الهاربين فكان صديقاً لهم، وعادت قوات بيزارو المبعثرة إلى التجمُّع من جديد على صوت النفير في ساحة كاجاماركا الدامية.

كان [آتاهوالبا] يلقى تبجيلاً باعتباره أكثر من إنسان. فلم يكن رأس الدولة فحسب، ولكنه النقطة العليا التي تجتمع عندها كل المؤسسات كأنها تصبّ في مركز واحد مشترك. وحجر الأساس في النسيج السياسي الذي يتساقط أشلاء تحت ثقله نفسه عندما تُسْحَب منه تلك الصلاحيات. وهذا ما كان عند [إعدام] آتاهوالبا. فموته لم يترك العرش شاغراً فحسب، وبدون أي خلف مؤكَّد، ولكن طريقة موته أعلنت للبيروفيّين أن يداً أقوى من الإنكا قد أمسكت عندئذٍ بالصولجان، وأن سلالة أبناء الشمس قد انطفأت إلى الأبد

غزو بيرو
وليام هكلنغ بريسكوت
(1847)

الذي لا يضاهيه أحد، والذي تفوق على الأثينيين الآخرين جميعاً بذكائه، ومهاراته الموسيقية، وقدراته الخطابية. فلقد كان دامون هو الذي درّب بريكليس على فنون الحكم. ولكن دامون أيضاً عانى من النفي، بسبب تبجحه بتفوقه، ولأن طريقته المهينة إزاء الناس العاديين أثارت سخطاً شديداً للغاية.

وحوالى نهاية ذلك القرن كان يعيش رجل يدعى هايبر بولص. يصفه معظم كتاب ذلك العصر بأنه كان أتفه مواطن في المدينة. فلم يكن يهتم بما يفكر به عنه أي شخص. وكان يشهّر بكل من يكرهه. فكان يسلي بعض الناس، ولكنه كان يضايق كثيرين آخرين. وفي سنة 417 ق .م، رأى هايبر بولص فرصة سانحة لإثارة الغضب ضد السياسيَّيْن البارِزَيْنِ في ذلك العصر، وهما أَلْسِيبِيَادِس ونِيشْيَاسْ. وراوده الأمل في أن يُنْفَى أَحَدُهُما، وأن يصعد هو (هايبر بولص) ليحلّ محلّه. وبَدَا أن حملته يحتمل أن تنجح: فقد كان الأثينيون يكرهون طراز حياة ألسيبيباديس المتوهجة المبتهجة الخالية من الهموم. وكانوا حذرين من ثروة نيشياس وانعزاله. وبَدَا من المؤكد أنهم سينفون واحداً منهما أو الآخر. ولكن آلسيبيادس ونيشياس، على الرغم من كونهما عدوّين، جمعا مواردهما معاً واستطاعا أن يحوّلا النفي إلى هايبر بولص بدلاً منهما. وجادلا في أن صفات هذا الرجل الذميمة لا يمكن وضع حدٍّ لها إلاَّ بالنفي.

وقد كان الذين عانوا من النفي قبل ذلك رجالاً رهيبين أقوياء ذوي سلطة. غير أن هايبر بولص كان مهرّجاً وضيعاً. وبنفيه شعر الأثينيون أن عقوبة النفي قد تدهورت. وهكذا أنهوا ممارسةً ظلت واحدة من مفاتيح الحفاظ على السلام داخل أثينا طيلة ما يقرب من مائة عام.

التفسير

كانت عند الأثينيين القدامى غرائز اجتماعية غير معروفة اليوم ـ فقد

ثَلَمَ حدتها مرور القرون. فقد كانوا مواطنين بالمعنى الحقيقي للكلمة فشعروا بالخطر الناجم عن السلوك غير المبالي بالمجتمع، ورأوا كيف يتنكّر هذا السلوك بأشكال أخرى: كالموقف الذي يزعم صاحبه أنه أتقى وأطهر من الآخرين ويسعى إلى فرض المعايير عليهم؛ والطموح المفرط للعجرفة على حساب الصالح العام؛ والازدهاء باستعراض التفوق؛ والتآمر الهادىء؛ والصفات البغيضة الذميمة المرحلية. وبعض هذه الأنماط من السلوك تجعل تلاحم المدينة يتآكل بخلق الطوائف وبذر بذور الشقاق. وهناك أنماط أخرى من شأنها تدمير الروح الديمقراطية للمدينة بجعل المواطن العادي يشعر بالنقص وبالحسد. ولم يحاول الأثينيون أن يعيدوا تثقيف الناس الذين يتصرفون بهذه الطرق، أو أن يستوعبوهم في الجماعة بطريقةٍ مّا، أو أن يفرضوا عقوبة عنيفة كان من شأنها أن لا تؤدي إلاّ إلى خلق مشاكل أخرى، فقد كان الحلّ سريعاً وفعالاً، وهو التخلص منهم.

وضمن أية جماعة، كثيراً ما يمكن تتبع المتاعب بعزوها إلى مصدر وحيد، وهو الشخص التعيس المزمن السخط الذي يثير الشقاق دائماً فيعدي الجماعة بقلقه واضطرابه. وقبل أن تعرف ما الذي أصابك يكون السخط قد انتشر. فَتَصَرَّفْ قبل أن يصبح من المستحيل الفصلُ بين نوع من التعاسة ونوع آخر، أو رؤية كيف بدأ الأمر كله. فأولاً: تعرف على مسببي المتاعب عن طريق حضورهم الطاغي، أو عن طريق طبيعتهم الشاكية المتذمرة. فإذا حددتهم فلا تحاول أن تصلحهم أو تهدّئهم ـ فذلك يجعل الأمور أسوأ. ولا تهاجم، سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة، لأن طبيعتهم سامة، وسوف يعملون سرّاً تحت الأرض لتدميرك. فافعل كما فعل الأثينيّون: أَبْعِدْهُمْ قبل أن يفوت الأوان. افصلهم عن الجماعة قبل أن يصبحوا هم عين الدوّامة. ولا تمنحهم وقتاً ليثيروا القلق ويبذروا بذور السخط؛ ولا تفسح لهم مجالاً للحركة. واترك شخصاً واحداً يعاني، كي يعيش الباقون في سلام.

الذئاب والخراف

يُحكى أن الذئاب في قديم الزمان أرسلت سفارة إلى الخراف، ترغب فيها إليها أن يحل السلام بين الطرفين في المستقبل. قالت الذئاب:

عندما تسقط الشجرة، تتبعثر القرود

(مثل صيني)

مراعاة القانون الثانية

في سنة 1296، اجتمع كرادلة الكنيسة الكاثوليكية في روما لانتخاب بابا جديد. فاختاروا الكردينال غيتاني، صاحب الحنكة الحصيفة التي لا تُضَاهَى؛ فمثل هذا الرجل سيجعل الفاتيكان قوة كبيرة. فاتخذ اسم بونيفاس الثامن، وسرعان ما أثبت أنه يستحق رأي الكرادلة العالي فيه: فكان يخطط لتحركاته سلفاً وبحرص كبير. ولم يدع شيئاً يقف في طريق حصوله على ما يريد. وما إن وصل بونيفاس إلى السلطة حتى سحق منافسيه بسرعة، ووحّد الولايات البابوية. وبدأت القوى الأوروبية تخشاه، وأرسلت وفوداً لتفاوضه. بل إن ملك ألمانيا آلبريخت النمسويّ سلّم بعض الأراضي لبونيفاس. فكان كل شيء يجري حسب خطة البابا.

غير أن قطعة من اللوحة لم تنزل في مكانها.. وهي توسكانيا، أغنى جزءٍ في إيطاليا. فإذا استطاع بونيفاس أن يستولي على فلورنسا، أقوى مدينة في توسكانيا، فستصبح المنطقة له. ولكن فلورنسا كانت جمهورية معتزة بنفسها، وسيكون من الصعب دحرها. فكان على البابا أن يلعب أوراقه بمهارة.

فكانت فلورنسا منقسمة إلى طائفتين متنافستين هما السود والبيض. فكان البيض هم أبناء الأسر التجاريّة التي صعدت حديثاً إلى السلطة والثروة بسرعة؛ أما السود فكانوا هم أصحاب الأموال الأقدم. وقد احتفظ البيض بالسيطرة على المدينة بسبب شعبيّتهم بين الناس، مما أثار سخطاً متزايداً لدى السود. وراحت مرارة النزاع بين الفريقين تتزايد باطراد.

وهنا رأى بونيفاس فرصته. فسوف يتآمر لمساعدة السود على الاستيلاء على المدينة، فتصبح فلورنسا في جيبه. وحالما راح يدرس

«لماذا نستمر في شن هذا الصراع المميت إلى الأبد؟ إن تلك الكلاب الشريرة هي السبب في هذا كله! فهي تتبعُنا بلا توقف، وتستفزنا. أبعدوها ولن تعود هناك أي عقبة أمام الصداقة والسلام الأبدي بيننا». واستمعت الخراف السخيفة إلى هذا الكلام المعسول، وطردت الكلاب. وعندما حُرِم القطيعُ بذلك من أفضل حمَاته، صار فريسة سهلة لعدوه الخائن الغدّار.

خرافات
آيسوب
القرن السادس قبل الميلاد

الموقف، شرع يركّز على رجل واحد، هو دانتي آليغيرتي، الكات
الشاعر الشهير، والمؤيد المتحمس للبيض. وكان دانتي مهتماً بالسيا
دائماً. وكان يؤمن بالجمهورية بعاطفة متقدة. وكثيراً ما كان يوبخ مواط
على نقص شجاعتهم وضعف إرادتهم. وتصادف أنه كان أيضاً أح
خطباء المدينة العامّين. وفي سنة 1300، وهو العام الذي بدأ فيه بونيفا
يتآمر للاستيلاء على توسكانيا، كان مواطنو دانتي قد صَوَّتوا له لأعلى
منصب منتخب فجعلوه واحداً من رؤساء المدينة الستة. وأثناء ولاي
الممتدة إلى ستة أشهر في هذا المنصب، وقف بصلابة ضد السيد
وضد كل محاولات البابا لزرع الشقاق والاضطراب.

غير أن بونيفاس كانت لديه خطة جديدة بحلول سنة 1301
فاستدعى شارلس دي فَالْوَا، الشقيق القوي لملك فلورنسا، كي يسا
على إحلال النظام في توسكانيا. وبينما راح شارلس يزحف عبر إيطا
الشمالية، وفلورنسا تجيش بالقلق والخوف، برز دانتي بسرعة باعتبا
الرجل القادر على تجميع الناس، فاحتج ضد التهدئة احتجاجاً عنيفاً
وراح يعمل في استماتة اليائس لتسليح المواطنين وتنظيم المقاومة ض
البابا وَدُمْيَتِهِ الأميرِ الفرنسي. وكان على بونيفاس أن يحيد دانتي بأي
وسيلة كانت ـ بالحسنى أو بالسوأى ـ وهكذا فحتى عندما كان يهدد
فلورنسا بشارلس دي فَالْوَا من جهة، ومن جهة أخرى لَوَّحَ بغصن
الزيتون، وإمكانية المفاوضات، آملاً أن يلتقط دانتي الطعم. وبالفعل قر
الفلورنسيون أن يرسلوا وفداً إلى روما ليحاولوا التفاوض لإحلال
السلام. ولرئاسة الوفد اختاروا دانتي كما كان متوقعاً.

وحذّر بعضُهم الشاعرَ من كون البابا المراوغ ينصب فخّاً لإغرائه
بالابتعاد. ولكن دانتي ذهب على أي حال، فوصل إلى روما بينما كا
الجيش الفرنسي واقفاً على أبواب فلورنسا. وشعر دانتي بالثقة بأن بلاغته
ومحاكمته العقلية قادرتان على كسب البابا وإنقاذ المدينة. ومع ذلك
فعندما التقى البابا بالشاعر وبالموفدين الفلورنسيين أرهبهم في الحال

حياة ليمبستوكليس

وصل الحال بمواطني [ليمبستوكليس] إلى نقطة جعلتهم عندما الغيرة يستمعون لأي تشهير به وهكذا اضطر إلى تذكير الجمعية بمنجزاته حتى لم يعودوا يطيقون ذلك. فقال ذات مرة لمن كانوا يتذمرون منه: «لماذا تسأمون من تلقي الفوائد بصورة متواترة من الرجال أنفسهم؟» وبالإضافة إلى ذلك فقد أهان الناس عندما أقام معبد آرتميس، لأنه لم يكتف بصنع تمثال للإلهة آرتميس آريستوبول ـ أي آرتميس صاحبة أحكم المشورات ـ مع التلميح بأنه هو الذي قدم أفضل مشورة

كما فعل بكثيرين من قبل. وعند اللقاء الأول صرخ بهم: «اركعوا على ركبكم أمامي! اخضعوا لي! أقول لكم بكل الحق إنني لا أملك في قلبي سوى تعزيز سلامكم». فخضع الفلورنسيون لحضوره القوي، وأنصتوا له وهو يَعِدُهُمْ برعاية مصالحهم. ثم نصحهم بالعودة إلى وطنهم، تاركين خلفهم أحد أعضاء وفدهم ليستمر في المحادثات. وأشار بونيفاس أن الرجل الذي سيبقى هو دانتي. وتحدث بمنتهى التهذيب، ولكن كلامه كان في جوهره أمراً.

وهكذا بقي دانتي في روما. وبينما كان يتابع حواره مع البابا تفتتت فلورنسا. فمع عدم وجود من يجمع البيض، ومع استخدام شارلس دي فالوا لأموال البابا للرشوة وزرع الشقاق، تفكك البيض، وراح بعضهم يحتج للمفاوضات، بينما نقل البعض الآخر تأييده من طرف إلى آخر. وهكذا فإن السود واجهوا عدواً منقسماً وغير واثق من نفسه، فدمروا البيض بسهولة في غضون أسابيع، ومارسوا عليهم انتقاماً عنيفاً. وما إن أمسك السود بالسلطة بثبات، حتى صرف البابا دانتي من روما في آخر الأمر.

وأمر السود دانتي بالعودة ليواجه الاتهامات ويمثل أمام المحكمة. وعندما رفض، حكموا عليه بالإحراق حتى الموت إذا وطئت قدمه أرض فلورنسا مرة أخرى. وهكذا بدأ دانتي حياة المنفى التعيسة، متجولاً في أرجاء إيطاليا، مطروداً يلاحقه العار في المدينة التي أحبها، فلم يعد إلى فلورنسا، حتى بعد موته.

التفسير

كان البابا يعلم أنه إذا وجد حجة يتذرع بها لإغواء دانتي بالابتعاد فإن فلورنسا ستنهار. فمارس أقدم خدعة في الكتاب ـ التهديد بيد وإمساك غصن الزيتون بالأخرى. فوقع دانتي ضحية هذه الخدعة. وما أن صار في روما حتى أبقاه البابا فيها طيلة المدة اللازمة لنجاح خدعته. لأن بونيفاس كان يفهم واحداً من المفاهيم الرئيسية في لعبة السلطة. وهي أن

للأثينيين والإغريق. ولكنه أضاف إلى ذلك أن اختار مكان المعبد بالقرب من منزله في ميليط. وهكذا نفاء الأثينيون في آخر الأمر. فقد استخدموا العزل للحطّ من سمعته العظيمة والنيل من سلطته، كما كانت عادتهم بالفعل إزاء أي شخص يشعرون بأن سلطته طاغية أو قاهرة، أو صَعِدَ إلى سموّ شاهق يعتبرونه لا يتمشّى مع المساواة الديمقراطية.

حياة ثيميستوكليس
بلوتارخ، حوالى
46 ـ 120 م

شخصاً مصمماً واحداً ذا روحٍ متمردة، يستطيع أن يحول قطيعاً من الخراف إلى عرين من الأسود. وهكذا قام بعزل مسبب المتاعب. وبدون عمود المدينة الفقري لإبقاء الخراف مجتمعة، فقد تبعثرت بسرعة.

تَعَلَّم الدرس: لا تضيع وقتك بالضرب في كل الاتجاهات ضد عدوٍّ يبدو متعددَ الرؤوس. بل اعثر على الرأس الواحد المهم والمؤثر الشخص الذي لديه قوة الإرادة، أو الذكاء اللماح، وأهم من ذلك كله السحر المجتذب للجماهير. فأغْرِهِ بالابتعاد مهما كلف ذلك من ثمن. لأن غيابه سيجعل قواه تفقد أثرها وفاعليتها. ويمكن أن يكون عزله جسداً (كالنفي أو الغياب من البلاط)، أو سياسياً (بتضييق قاعدة التأييد التي يستند إليها)، أو نفسياً (بخلق نفور بينه وبين الجماعة عن طريق فضيحة أو تشهير أو تعريض). فالسرطان يبدأ بخلية واحدة، فاستأصله قبل أن تستشري فتستعصي على العلاج.

مفاتيح السلطة

في الماضي، كانت أمة بكاملها تُحْكَمُ من قبل ملك وحفنة من وزرائه. وكانت النخبة فقط هي التي تملك سلطةً تلعب بها. وعبر القرون صارت السلطة منتشرة وديمقراطية أكثر فأكثر، بصورة تدريجية. غير أن ذلك قد أوجد انطباعاً عاماً خاطئاً بأن الجماعات لم يعد فيها مركز سلطة، وبأن السلطة قد انتشرت وتبعثرت بين أناس كثيرين. غير أن الحقيقة هي أن السلطة قد تغيرت في أعدادها ولكن ليس في جوهرها. فقد يكون هناك عدد أقل من الطغاة الذين يملكون سلطة الحياة والموت على ملايين البشر، ولكن يبقى ألوف من الطغاة الصغار الحاكمين لممالك أصغر، يفرضون إرادتهم من خلال ألعاب سلطة غير مباشرة، وسحرٍ يأسر الجماهير وما إلى ذلك. وفي كل مجموعة، تتركز السلطة في أيدي شخص أو اثنين، لأن هذا المجال هو الوحيد الذي لا تتغير فيه الطبيعة البشرية أبداً: فالناس يتجمهرون حول شخصية قوية وحيدة مثل الكواكب التي تدور في فلك شمس.

إن العمل تحت توهم أن هذا النوع من مراكز السلطة لم يعد قائماً، معناه ارتكاب سلسلة لا تنتهي من الأخطاء، وتبديد الطاقة والوقت، وعدم إصابة الهدف أبداً. فالناس الأقوياء ذوو السلطة لا يضيعون وقتاً قَطّ. فمن الناحية الخارجية، قد يمارسون اللعبة ـ متظاهرين بأن السلطة يتقاسمها كثيرون. ولكنهم من الناحية الداخلية، يبقون عيونهم على القلة الحتمية التي بيدها الأوراق من بين الجماعة. فهؤلاء هم الذين يركزون عليهم عملهم وجهدهم. وعندما تنشأ المتاعب، يبحثون عن السبب الكامن تحتها، عن الشخصية القوية الوحيدة التي بدأت بالإثارة، والتي سيؤدي عزلها، أو إبعادها، إلى إعادة استقرار المياه.

لقد اكتشف الدكتور ملتن هـ .إيريكسون، في عيادته للمعالجة العائلية، أنه إذا كانت آلية حركة الأسرة مضطربة ومعطلة عن العمل، فمن المحتوم وجود شخص هو المشاغب المثير لهذا الاضطراب. فكان في جلساته العلاجية يقوم بعزل رمزي للتفاحة المتعفنة بإجلاسه (أو إجلاسها) بعيداً عن الآخرين، ولو ببضعة أقدام فقط. وببطء يشرع أفراد الأسرة الآخرون يرون في الشخص المنفصل عنهم جسدياً مصدرَ الصعوبة التي يعانون منها. فعندما تتعرف على مثير المتاعب، فإن إشارتك لتعريف الآخرين به سوف تحقق الكثير. ذلك أن فهم المسيطر على آلية الحركة الحيوية للجماعة هو إدراكٌ حساس الأهمية. فتذكَّر: إن المثيرين للمتاعب ينتعشون بالاختفاء في وسط الجماعة، مموّهين أعمالهم بين ردود فعل الآخرين. فَأَبْرِزْ أعمالَهم للعيان، وعندئذ يفقدون قدرتهم على المشاغبة والتشويش.

إن من العناصر الأساسية في ألعاب الاستراتيجية عزل قوة العدو. ففي الشطرنج تحاول تطويق الملك. وفي لعبة «غو» [لعبة صينية ـ يابانية على لوحةٍ فيها 361 مربعاً يحاول فيها اللاعب أن يسيّج أكبر رقعة من اللوحة لعزل حجارة خصمه: المترجم] تحاول عزل قوات خصمك في

جيوب صغيرة بحيث تعجزها عن الحركة والتأثير. فكثيراً ما يكون عزل خصومك أفضل من تدميرهم . لأنك بذلك تبدو أقلّ وحشية. غير أن النتيجة تبقى هي هي. ذلك أن العزل في لعبة السلطة يعني الموت.

وأكثر أشكال العزل فاعلية هو أن تفصل ضحاياك عن قاعدة قوتهم بطريقة مّا. فعندما كان ماوتسي تونغ يريد أن يزيل عدواً له في النخبة الحاكمة، لم يكن يواجه ذلك الشخص مباشرة، بل يعمل خلسةً وبصمت على عزله، وتقسيم حلفائه وإبعادهم عنه، وتقليص التأييد الذي يتمتع به. وسرعان ما يختفي ذلك الرجل من تلقاء نفسه.

وللحضور والظهور أهمية عظمى في لعبة السلطة. فلكي تغوي، ولا سيما في المراحل الأولى، أنت بحاجة إلى الحضور المستمر، أو إلى خلق الشعور بتواجدك. إذْ أنك إذا كنتَ بعيداً عن الأنظار في الغالب، فإن أثر سحرك سوف يتلاشى. كان لروبرت سِيسِيلْ، رئيس وزراء الملكة آليزابيث الأولى، غريمان رئيسيان ينافسانه، هما إيرل إسيكس، المفضل لدى الملكة، والسير والتر رالي، صاحب الحظوة السابقة عندها. فاجتهد في السعي لإرسالهما معاً في مهمة ضد إسبانيا. وبإبعادهما عن البلاط، استطاع سيسيل أن يلفّ مجسّاته حول الملكة، ويضمن مركزه كأعلى مستشارٍ لها، ويضعف عاطفتها إزاء رالي والإيرل. فالدرس هنا مزدوج. أولاً: إن غيابك من البلاط خطر عليك، وعليك أن لا تغادر المشهد في زمن الاضطراب، لأن غيابك سيرمز إلى فقدانك للسلطة: أو يجتذب هذا الفقدان. وثانياً: إن إغواءك لأعدائك بالابتعاد عن البلاط في اللحظات الحرجة ـ من جهة أخرى ـ هو خدعة عظيمة.

وللعزل استخدامات استراتيجية أخرى. فعندما تحاول إغواء الناس، كثيراً ما يكون من الحكمة عزلهم عن سياق بيئتهم الاجتماعية المعتادة، فعند عزلهم يصبحون مكشوفين لك، ويتضخم حضورك عندهم. وبالمثل، فإن فناني التحايل كثيراً ما يبحثون عن طرق لعزل أهدافهم عن بيئاتهم الاجتماعية المعتادة، فيوجهونهم إلى بيئات جديدة لا

يعودون مرتاحين فيها. فهنا يشعرون بالضعف ويتعرضون للانخداع بسهولة أكبر. فالعزل إذن قد يثبت أنه طريقة قوية لإيقاع الناس تحت سحرك ولإغوائهم وسلبهم.

وكثيراً ما تجد أناساً أقوياء ذوي سلطة قد ابتعدوا بأنفسهم عن الجماعة. ولعل سلطتهم قد أدارت رؤوسهم، فراحوا يعتبرون أنفسهم متفوقين؛ وربما يكونون قد فقدوا موهبة التواصل مع الناس العاديين. فتذكَّر: إن ذلك يجعلهم مكشوفين. فعلى الرغم من قوة مثل هؤلاء الناس، فإن من الممكن استخدامهم واستغلالهم.

لقد حصل الراهب راسبوتين على سلطته على القيصر نيقولا والقيصرة ألكساندرا عن طريق عزلتهما الرهيبة عن الشعب. وكانت ألكساندرا على وجه الخصوص أجنبية، وغريبة عن الروس العاديين بشكل خاص؛ فاستخدم راسبوتين أصله الفلاحي ليدسّ نفسه في مقام الحظوة لديها، لأنها كانت بحاجة ماسة يائسة إلى التواصل مع رعاياها. وما إن وصل راسبوتين إلى الدائرة الداخلية للبلاط حتى جعل نفسه شخصاً لا يُسْتَغْنَى عنه، واكتسب سلطة عظيمة. فقد اتجه رأساً إلى المركز واستهدف الشخصية الوحيدة المتمتعة بالسلطة في روسيا (كانت القيصرة مهيمنة على زوجها) ووجد أنه ليس بحاجة إلى عزلها، إذْ أن العزل كان حاصلاً من قبل. فاستراتيجية راسبوتين يمكنها أن تأتيك بسلطة عظيمة: ابحث دائماً عن الأشخاص ذوي المناصب العليا، والذين يجدون أنفسهم رغم ذلك معزولين على اللوحة. فهم كحبات التفاح التي تسقط في حضنك، تُغْوَى بسهولة، ويمكنها أن تقذف بك إلى السلطة كالمنجنيق.

وأخيراً، فإن سبب توجيه ضربتك إلى الراعي هو أن ذلك سوف يثبط همة الخراف أكثر من أي إجراء آخر عقلانيّ. فعندما قام هرناندو كورتيز وفرانشيسكو بيزارو بقيادة قواتهما الضئيلة ضد إمراطوريتي الآزتيك والإنكا، لم يخطئا فيقاتلا على جبهات عديدة، ولم تُخْفِهما

الأعداد التي اصطفت ضدهما. بل لقد قبضا على المَلِكَيْنِ: موتيزوما وآتاهُوَالْبَا. فسقطت في أيديهما إمبراطوريات شاسعة. فمع ذهاب الرأس يذهب مركز الجاذبية، فليس هناك شيء يدار حوله، فيتساقط كل شيء بدداً. فاستهدِفْ القادة وأَسْقِطْهُمْ، واعثر على الفرص التي لا تنتهي في غمار الفوضى التي ستنجم عن ذلك.

صورة: قطيع من الخراف المسمّنة. لا تضيع وقتاً ثميناً في محاولة سرقة خروف أو اثنين. ولا تغامر بحياتك وموارد قواك بالهجوم على الكلاب التي تحرس القطيع. بل استهدف الراعي. اجتذبه بعيداً فتتبعه الكلاب. وعندئذ اضربه وأسقطه، فيتبعثر القطيع ـ وتستطيع أن تلتقط الخراف واحداً بعد آخر.

الشاهد. إذا وتّرت قوساً، فَوَتِّرْ أقواها. وإذا استعملت سهماً فاستعمل أطولها. ولكي تقتل خيّالاً، اقتل حصانه أولاً. وللإمساك بعصابة من قطاع الطرق، أمسك بزعيمها أولاً. وكما أن لبلدٍ مّا حدوده، فإن قتل الرجال له حدود. فإن كان من الممكن إيقاف هجوم العدوّ [بضربةٍ على الرأس] فلماذا التسبّب في عدد من الموتى والجرحى أكثر من اللازم؟.

(الشاعر الصيني تو فو، من سلالة تانغ، في القرن الثامن).

الانقلاب

كتب ماكيافيللي: «إذا آذيت رجلاً مّا فافعل ذلك بطريقة لا تحوجك إلى خشية انتقامه». فإذا اتخذت إجراء لعزل عدوك فتأكد من عدم امتلاكه الوسيلة لردّ الضربة إليك. وبعبارة أخرى: إذا طبقت هذا القانون، فطبقْه من موقع تفوق، بحيث لا تخشى من سخط خصمك

كان آندرو جونسون، الذي خلف أبراهام لينكولن في رئاسة الولايات المتحدة، يرى يوليسيس س. غرانت كعضو مشاغب مسبب المتاعب في حكومته. وهكذا قام بعزله تمهيداً لإرغامه على الخروج. غير أن ذلك لم ينجم عنه إلاّ إغضاب ذلك الجنرال العظيم، الذي ردّ على ذلك بتشكيل قاعدة تأييد له في الحزب الجمهوري، ومتابعة جهوده حتى صار الرئيس التالي. فقد كان من الأعقل بكثير إبقاء رجل مثل غرانت في الحظيرة، حيث كان أذاه أقلّ، بدلاً من جعله مصمماً على الانتقام. وهكذا فكثيراً ما قد تجد أن من الأفضل إبقاء الناس بجانبك، حيث تستطيع مراقبتهم، بدلاً من المخاطرة بخلق عدوٍّ غاضب. فبإبقائهم قريبين منك، تستطيع أن تقوم سرّاً بتبخير قاعدة تأييدهم وَبَرْيها بحيث عندما يحين وقت فصلهم يسقطون سريعاً وبقسوة دون أن يعرفوا ما الذي أصابهم.

القانون

43

حاول التأثير على قلوب الآخرين وعقولهم

الحكم

الإرغام يخلق ردة فعل تعمل ضدك في آخر الأمر. فعليك بـ تغوي الآخرين حتى يريدوا أن يتحركوا في اتجاهـ فالشخص الذي تغويه يصبح بيدقاً موالياً لك. وطريقة إغو ء الآخرين هي العمل على نفسيّاتهم ونقاط ضعفهم الفرـية فقم بتليين المقاومين بالعمل على التأثير في عواطفهـ مستغلاً ما يعتبرونه عزيزاً عليهم، وما يخشونه. ذلك أنت ـ تجاهلت قلوب الآخرين وعقولهم فسوف يكرهونك.

انتهاك القانون

عند اقتراب عهد لويس الخامس عشر من نهايته، كانت فرنسا كلها تبدو بحاجة ماسة إلى التغيير. وعندما قام حفيد الملك، وخَلَفُهُ المنتخب، الذي عرف فيما بعد باسم لويس السادس عشر، بالزواج من ابنة إمبراطورة النمسا ـ البالغة من العمر خمسة عشر عاماً. التقط الفرنسيّون لمحةً من المستقبل الذي بدا لهم مفعماً بالأمل. فالعروس الشابة، ماري آنطوانيت، كانت جميلةً ومليئة بالحيوية. فبدّلت مزاج البلاط على الفور، وكان يعجّ بِفَسَقَةِ لويس الخامس عشر الداعرين. بل إن الناس العاديين الذين لم يكونوا قد رأوا ماري آنطوانيت بعد، راحوا يتحدثون عنها بحماس. كان الفرنسيون مشمئزين من سلسلة العشيقات اللواتي سيطرن على لويس الخامس عشر. فتطلعوا بتفاؤل إلى خدمة ملكتهم الجديدة. وفي سنة 1773، عندما ركبت ماري آنطوانيت علانيةً لأول مرة في شوارع باريس، تجمع جمهور غفيرٌ من المصفقين حول عربتها. فكتبت إلى أمها: «أنا محظوظة لكوني في موقع أحظى فيه بعاطفة واسعة الانتشار دون أية كلفةٍ تذكر».

وفي سنة 1774، توفي لويس الخامس عشر، وصعد لويس السادس عشر إلى العرش. وحالما صارت ماري آنطوانيت ملكة، أسلمت نفسها للمسرات التي كانت تحبها أكثر من أي شيء آخر، وهي طلب وارتداء أغلى الثياب والمجوهرات في المملكة؛ وراحت تهتم بأعقد تركيبة شعر في التاريخ، فكانت تسريحاتها المنحوتة ترتفع فوق

خدعة كورش

وفكّر كورش بالوسيلة التي يستطيع فيها أن يقنع الفُرْسَ بالثورة بأكثر الطرق فاعلية، فهدته تأمُّلاته إلى اعتماد الخطة التالية التي رأى أنها أفضل ما يلائم غرضه: كتب على صفحة من البرجمنت أن استياجس قد عيّنه ليقود الجيش الفارسي، ثم دعا إلى تجمع للفُرْس، وفتح الصفحة بحضورهم، وقرأ عليهم ما كتبه فيها. ثم أضاف: «والآن، لديّ أمر لكم. على كل شخص أن يظهر في الاستعراض ومعه منجل تشذيب...».

فأُطيع الأمر. وتجمّع الرجال جميعاً ومعهم مناجلهم. فكان الأمر التالي لكورش هو أن عليهم قبل انقضاء سحابة النهار أن ينظفوا قطعة معيّنة من الأرض الوعرة والمليئة بشجيرات شائكة، مساحتها حوالى ثمانية عشر أو عشرين فرلنغاً (الفرلنغ 8/ 1 ميل) مربعاً. فتمّ له ذلك. وعندئذ أصدر كورش أمراً آخر بأن يتجمّعوا مرة أخرى في اليوم التالي بعد أن

رأسها بثلاثة أقدام. وشرعت تقيم سلسلة متصلة من الحفلات والمهرجانات. وكانت تدفع تكاليف هذه النزوات بالدَّيْن، فلم تهتم قط بمقدار تلك التكاليف ولا بمن يدفع الفواتير.

وكان أعظم مسرّات ماري آنطوانيت خلق وتصميم جنة عدن خاصة بها في قصر تريانون الصغير، وهو بيت ريفي ضخم في أراضي فرساي له غابته الخاصة به. وقد صممت الحدائق في تريانون الصغير، كي تكون «طبيعية» بالقدر المستطاع، بما في ذلك دَهْنُ الطحالب باليد على الأشجار والصخور. ولزيادة أثر اللمسة الرعويّة، استخدمت الملكة فلاحات لحلب أجمل الأبقار مظهراً في المملكة كلها، مع منظفين وصناع أجبان، يرتدون أزياء فلاحية ساعدت هي في تصميمها؛ وزعمت يهتمون بخراف تلتف على رقابها أشرطة من حرير. وأثناء تفتيشها الحظائر، كانت تتفرج على حلاّباتها وهن يعتصرن الحليب في أوانٍ خزفية مصنوعة في معامل الخزف الملكية. ولإزجاء الوقت كانت ماري آنطوانيت تجمع الزهور في الغابات المحيطة بتريانون الصغير، أو تتفرج على «فلاحيها الطيبين وهم يقومون «بعملهم» الزراعي اليومي». وأصبح القصر عَالَماً منفصلاً، ينحصر مجتمعُهُ في أحبّائها المفضلين المختارين

ومع كل نزوة جديدة تصاعدت تكاليف صيانة تريانون الصغير وفي تلك الأثناء كانت فرنسا نفسها آخذة في التدهور: فكانت هناك مجاعة وسخط واسع الانتشار. فحتى رجال الحاشية المنعزلون اجتماعياً، كان السخط يجيش في نفوسهم ـ فقد كانت الملكة تعاملهم كالأطفال. فلم يكن يهمها سوى ذوي الحظوة لديها. وهؤلاء كانو يتناقصون شيئاً فشيئاً. ولكن ماري آنطوانيت لم تكلف نفسها عناء الاهتمام بذلك. فلم يحدث مرةً واحدةً أن قرأت تقرير وزيرٍ طيلة عهدها كله. ولم يحدث مرة واحدة أن طافت بالأقاليم كي تجمع الناس إلى جانبها. ولم يحدث مرة أن اختلطت بالباريسيين أو استقبلت وفداً منهم. ولم تفعل أيّاً من هذه الأشياء لأنها كملكة كانت تشعر بأن الناس مدينون

يستحموا. وفي تلك الأثناء جمع كورش كل ما كان لأبيه من ماعز وخراف وثيران، وذبحها استعداداً لإكرام الجيش الفارسي كله في وليمة، مع أفضل المشروبات وأنواع الخبز التي استطاع الحصول عليها. وفي اليوم التالي تجمّع الضيوف، فطلب منهم الجلوس على العشب وإمتاع أنفسهم بما لذّ وطاب. وبعد الوجبة سألهم كورش إن كانوا يفضّلون عمل الأمس أم متعة اليوم. فأجابوا بأن هناك فرقاً هائلاً بين تعاسة اليوم السابق ومسرّاتهم الراهنة. وكان هذا هو الجواب الذي أراده كورش. فأمسك به، وانطلق منه ليكشف لهم عمّا يدور في ذهنه، فقال: «يا رجال فارس. أنصتوا لي: أطيعوا أوامري، وسوف تتمكنون من التمتع بألف مسرّة كهذه دون أن تتعبوا أيديكم في عمل حقير مهين؛ ولكن إذا عصيتم، فستكون مهمة الأمس هي النمط لسلسلة لا تنتهي من المهمات الأخرى التي سترغمون على أدائها. خذوا بنصيحتي وفوزوا بحريتكم. فأنا الرجل المقدَّر له الاضطلاع بتحريركم. وأعتقد أنكم قادرون على مواجهة الميديين في الحرب كما في أي شيء آخر. وما أقوله لكم هو الحق. فلا تتأخروا، وألقوا عنكم نير آستياجس على الفور». وكان الفرس غاضبين من طول خضوعهم للميديّين. وقد وجدوا قائداً في آخر الأمر، فرحّبوا بأفق حريتهم ترحيباً حماسياً... وهكذا استغلّوا الفرصة وثاروا بقيادة كورش

لها بعواطفهم، ولم يكن مطلوباً منها أن تحبّهم في المقابل.

وفي سنة 1784، تورطت الملكة في فضيحة. فكجزءٍ من خطة سلب واحتيال معقدة، اشتُرِيَتْ باسمها أغلى قلادة من الماس في أوروبا كلها. وأثناء محاكمة النصابين ظهرت على الملأ تفاصيل حياتها الباذخة: فسمع الناس بالأموال التي كانت تنفقها على المجوهرات والفساتين ورقصات الأقنعة التنكرية. فأعطوها لقب «السيدة عجز» [من العجز في الميزانية]، ومنذ ذلك الحين فصاعداً صارت محطَّ سخط الناس المركّز. وعندما كانت تظهر في مقصورتها في الأوبرا كان المشاهدون يحيّونها بالهسهسة الصافرة. بل إن البلاط انقلب عليها، لأنها في الوقت الذي كانت فيه تنفق مصروفاتها الهائلة، كان البلد يتجه إلى هاوية الخراب.

وبعد ذلك بخمسة أعوام، في سنة 1789، وقع حدث لم يسبق له مثيل: وهو بداية الثورة الفرنسية. فلم تقلق الملكة. وبدا كأنها تفكر: فلتكن للناس ثورتهم الصغيرة، فهي سرعان ما تهدأ. فتتمكن الملكة من استئناف حياة المسرات والبذخ التي تعيشها. وفي تلك السنة زحف الناس على ڤرساي، فأرغموا العائلة المالكة على ترك القصر وعلى العيش في باريس. فكان هذا انتصاراً للثوار، ولكنه قدم للملكة فرصة لشفاء الجروح التي فَتَحَتْها وإقامة تواصل مع الشعب. غير أن الملكة لم تكن قد تعلمت درسها. فلم يحدث مرة أن غادرت القصر أثناء إقامتها في باريس. فلم يكن يهمها أن يتعفن رعاياها في الجحيم.

وفي سنة 1792، نُقِلَ الزوجان الملكيان من القصر إلى السجن، بينما أعلنت الثورةُ رسمياً نهاية الملكية. وفي السنة التالية، حوكم لويس الساس عشر وأدين وأُعْدِمَ على المقصلة. وبينما كانت ـ ماري آنطوانيت تنتظر مصيراً مماثلاً، لم يأت شخص واحد للدفاع عنها، لا من أصدقائها السابقين في البلاد، ولا من عواهل أوروبا الآخرين (الذين كان لديهم ـ باعتبارهم أعضاءً للأسر المالكة في بلدانهم ـ كل الأسباب في الدنيا لإظهار كون الثورة لا تجدي)، ولم تدافع عنها حتى أسرتها في النمسا،

ضد الميديّين، ومنذ ذلك الحين صاروا سادة آسيا.

التواريخ
هيرودوتس، القرن الخامس قبل الميلاد

ومنها أخوها الذي كان يجلس آنئذٍ على العرش. فقد أصبحت منبوذة العالم. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة 1793، ركعت في آخر الأمر على المقصلة، غير نادمة ولا تائبة، وبكبرياء التحدي حتى النهاية المريرة.

التفسير

منذ وقت مبكر، اتخذت ماري ـ آنطوانيت واحداً من أخصر المواقف: كانت وهي أميرة شابة في النمسا موضعاً للملق والتزلف بلا نهاية. وباعتبارها الملكة المقبلة للبلاط الفرنسي كانت مركزاً لاهتمام الجميع. فلم تتعلم قطّ أن تسحر الناسَ الآخرين وتفتنهم وتسرهم. وتصبح متناغمة مع نفسياتهم الفردية. ولم تضطر إلى العمل لتحصل على ما تريد، ولا إلى إجراء الحسابات أو ممارسة المكر وغيره من فنون الإقناع. ومثل كل شخص مدلل تُلَبَّى طلباتُهُ في زمنٍ مبكر من العمر، تطورت إلى وحش من انعدام الإحساس.

لقد صارت ماري ـ آنطوانيت مركزاً لسخط بلد بكامله، لأن مما يثير الغيظ أن تلتقي بشخص لا يبذل جهداً لإغوائك ولا محاولة لإقناعك حتى ولو على سبيل الخداع. ولا تتصور أنها تمثل عهداً غابراً انقضى. ولا حتى أنها نوعية نادرة. فنموذجها اليوم مألوف شائع أكثر من أي وقت مضى. ومثل هذه العيّنات تعيش في داخل فقاعاتها الخاصة ـ وأصحابها على ما يبدو يشعرون أنهم ولدوا ملوكاً وملكات، وأن الانتباه شيء يدين الناس به لهم. فهم لا ينظرون في طبيعة أي شخص آخر، بل إنهم يدوسون الناس بغطرسة ماري ـ آنطوانيت التي كانت ترى نفسها على حق. وبما أن طلباتهم قد لُبِّيَتْ وتلقوا الدلال وهم أطفال، فهم عند البلوغ يستمرون في الاعتقاد بأن كل شيء ينبغي أن يأتي إليهم. وبما أنهم مقتنعون بسحرهم، فإنهم لا يبذلون أي جهد ليسحروا الآخرين، أو يغروهم، أو حتى يقنعوهم بلطف.

وفي مملكة السلطة فإن مثل هذه المواقف تسبب الكوارث. ففي

كل الأوقات يجب عليك أن تهتم بمن حولك، فتسبر غور نفسيتهم الخاصة، فتفصل كلماتك تفصيلاً على قياس ما تعرف أنه يغويهم ويغريهم. وهذا يتطلب طاقةً وفنّاً. وكلما علا منصبك، زادت حاجتك إلى البقاء منسجماً متناغماً مع قلوب الذين هم دونك منزلةً، ومع عقولهم، خالقاً بذلك قاعدة دعم لإبقائك متربعاً على القمة. فبدون تلك القاعدة سوف تهتز سلطتك، ولدى أقل تغيّر في الحظ، فإن أولئك الذين تحتك سوف يساعدون بسرور على سقوطك المخزي من مكانة الحظوة.

مراعاة القانون

في سنة 225 ق.م، كان تشوكو ليانغ، أستاذ الاستراتيجية والوزير الرئيسيّ لحاكم شو في الصين القديمة، يواجه وضعاً خطراً. فقد شنَّت مملكة وِيْ هجوماً شاملاً على شو من الشمال. وأخطر من ذلك أن وِيْ قد شكَّلت تحالفاً مع الممالك الهمجية إلى الجنوب من شو، بقيادة الملك مينغو. وكان على تشوكو ليانغ أن يتصدَّى لهذا الخطر الثاني من الجنوب، قبل أن يأمل في صدّ هجوم وِيْ في الشمال.

وبينما كان تشوكو ليانغ يستعد للزحف على الهمج في الجنوب، قدَّم له رجلٌ حكيمٌ في معسكره نصيحة، فقال له إنه سيكون من المستحيل تهدئة المنطقة بالقوة. ذلك أن ليانغ قد يهزم مينغو ولكن حالما يتجه إلى الشمال للتصدي لهجوم وِيْ، فإن مينغو سيعاود الكرَّة. وقال الرجل الحكيم: «إن كسب القلوب أفضل من كسب المدن. والاشتباك بالقلوب خير من الاشتباك بالأسلحة. وآمل أن تستطيع كسبَ قلوبِ هؤلاء الناس». فردَّ عليه ليانغ: «إنك تقرأ أفكاري».

وكما توقع ليانغ، شنَّ مينغو هجوماً قويّاً. ولكن ليانغ نصب له فخّاً واستطاع أن يأسر جزءاً كبيراً من جيش مِينْغُو، بمن فيهم الملك نفسه. غير أنه بدلاً من معاقبة أسراه أو إعدامهم، فصل الجنود عن ملكهم، وأزال عنهم الأغلال، وأكرمهم بالطعام والشراب. ثم خاطبهم

فن الإقناع اللطيف

تنازعت ريح الشمال والشمس في أيهما أقوى. ثم اتفقتا على أن المنتصر منهما هو الذي يستطيع أن يجرّد مسافراً من ثيابه. وحاولت الريح أولاً. ولكن هبَّاتها العنيفة لم تزد على أن جعلت الرجل يتمسَّك بثيابه ويشدها حوله بإحكام. وعندما هبَّت على نحو أشدّ، فإن البرد جعله يتضايق إلى درجة أنه لفَّ نفسه بلفاع إضافي آخر. وفي آخر الأمر تعبت الريح من ذلك وسلَّمت الرجل إلى الشمس. فأشرقت الشمس في بادىء الأمر بدفء معتدل جعل الرجل يخلع معطفه الفوقيّ، ثم شمَّت بشراسة إلى درجة جعلته عاجزاً عن تحمُّل الحرارة، فخلع ثيابه واتجه إلى نهر قريب ليستحمّ فيه.

الإقناع فعَّال أكثر من القوة.

خرافات إيسوب، القرن السادس قبل الميلاد

قائلاً: «إنكم جميعاً رجال شرفاء، وأعتقد أن لكم والدين وزوجات وأطفالاً ينتظرونكم في وطنكم. ولا شك أنهم يذرفون دموعاً مريرة على مصيركم. سأطلق سراحكم كي تتمكنوا من العودة إلى أحبائكم وإراحتهم». فشكر الرجالُ ليانغَ والدموع في عيونهم؛ ثم أرسل يستدعي مينغو وسأله: «إذا أطلقتُ سراحك، فما الذي ستفعله؟»، فأجاب الملك: «سوف أجمع جيشي ثانية وأقوده ضدك في معركة حاسمة ولكن إذا أسرتني مرة أخرى، فسوف أنحني لتفوقك». فلم يكتف ليانغ بالأمر بإطلاق سراح مينغو، بل أهدى له كذلك حصاناً وسرجاً. وعندما تساءل الملازِمون الغاضبون عن سبب عمله هذا أخبرهم ليانغ: «إنني أستطيع أسر هذا الرجل بالسهولة نفسها التي أستطيع بها أن أُخْرِجَ شيئاً من جيبي. إنني أحاول كسب قلبه. وعندما أتمكن من ذلك فسيأتي السلام من تلقاء نفسه هنا في الجنوب».

وكما قال مينغو، فقد هجم مرة أخرى. ولكن ضباطه، الذين كان ليانغ قد عاملهم تلك المعاملة الحسنة، تمرَّدوا ضده، وقبضوا عليه وسلَّموه إلى ليانغ، الذي طرح عليه السؤال السابق مرة أخرى. فأجاب مينغو بأنه لم يُهْزَمْ بطريقة منصفة، بل خانه ضباطه؛ ولسوف يقاتل مرة أخرى، فإذا أُسِرَ للمرة الثالثة فسينحني لتفوق ليانغ.

إن الرجال الذين غيَّروا وجه العالم لم يصلوا إلى ما هم فيه بالتأثير في القادة، بل بتحريك الجماهير. فالتأثير في القادة هو أسلوب التآمر، ولا يؤدّي إلاّ إلى نتائج ثانوية. أما التأثير في الجماهير فهو ضربة المِعْقَرية التي تغيّر وجه العالم.

نابليون بونابرت
1769 - 1821

وعلى مدى الأشهر التالية، تغلَّب ليانغ في الذكاء على مينغو مرة بعد مرة، وأَسَرَهُ مرة ثالثة، ورابعة، فخامسة. وفي كل مرة كان جنود مينغو يزدادون سخطاً. فقد عاملهم ليانغ باحترام. ففقدوا حماسهم للقتال. ولكن في كل مرة طلب فيها تشوكو ليانغ من مينغو أن يستسلم. كان الملك العظيم يَطْلَعُ عليه بذريعة جديدة: لقد خدعتني. ولقد خسرتُ بسبب سوء الحظ، وهكذا دواليك. فإذا أسرتني مرة أخرى، فأقسم أنني لن أخونك. ومع هذه الوعود، كان ليانغ يتركه يذهب في حال سبيله.

وعندما أسره للمرة السادسة، طرح عليه السؤال نفسه مرة أخرى.

فردَّ الملك مينغو: «إذا أسرتني مرة سابعة، فسوف أعطيك ولائي، ولن أتمرَّد مرة أخرى أبداً». فقال ليانغ: «حسناً، ولكن إذا أَسَرتُكَ مرَّة أخرى، فلن أطلق سراحك».

وعندئذٍ هرب مينغو وجنوده إلى طرفٍ قَصِيٍّ من مملكتهم في منطقة وُوجْ. وبعد هزيمته مرَّات كثيرة، لم يبق له سوى أمل واحد: سيطلب مساعدة ووُتُوغُو، ملك وُوجْ، الذي كان لديه جيش ضخم وشرس. وكان محاربو ووتوغو، يرتدون دروعاً من الكروم المجدولة بإحكام، والمغطَّسة بالزيت، والمجفَّفة حتى تكتسب صلابةً لا تُخْتَرَق. ومع وجود مينغو إلى جانبه، زحف ووتوغو بهذا الجيش الجبَّار ضد ليانغ. وفي هذه المرة بدا الاستراتيجي العظيم خائفاً يقود رجاله في تراجع سريع. ولكنه إنَّما كان يستدرج ووتوغو إلى فخّ: وهكذا حشر رجال الملك في وادٍ ضيِّق، ثم أشعل النيران في كل مكان من حولهم. وعندما وصلت النيران إلى الجنود، اشتعل جيش ووتوغو بكامله ـ ذلك أن الزيت الذي في دروعهم كان شديد الالتهاب طبعاً، فهلكوا جميعاً.

وكان تشوكو ليانغ قد تدبَّر أمر فصل مينغو وحاشيته عن المجزرة في الوادي، فوجد الملك نفسه أسيراً للمرة السابعة. وبعد هذه المذبحة، لم يعد ليانغ يطيق أن يواجه أسيره مرة أخرى. فأرسل رسولاً إلى الملك الأسير ليقول له: «لقد كلَّفني بإطلاق سراحك. فاحشد جيشاً آخر ضده، إن استطعتَ، وحاول أن تهزمه مرة أخرى». فانتحب الملك مينغو وسقط على الأرض، وزحف إلى ليانغ على يديه وركبتيه، وطرح نفسه على قدميه صارخاً: «أيها الملك العظيم، لك جلال السماء. ونحن ـ رجال الجنوب ـ لن نقاوم حكمك أبداً». فسأله ليانغ: «هل تستسلم الآن؟»، فقال: «أنا وأولادي وأحفادي قد أثرت فينا رحمة معاليكم التي لا حدود لها، والمانحة للحياة. فكيف نقدر أن لا نستسلم؟».

فأقام ليانغ وليمة عظمى على شرف مينغو، وأعاد تثبيته على عرشه، وأعاد أراضيه المحتلة إلى حكمه، ثم عاد شمالاً مع جيشه، دون

حياة الإسكندر الأكبر

أدَّت المطاردة الطويلة والمؤلمة لدارا على يد الإسكندر الأكبر ـ إذ إنه قطع 3300 فرلنغ [الفرلنغ 1/8 ميل] في أحد عشر يوماً ـ إلى تضاؤل جنوده، إلى درجة أن معظمهم كان على استعداد للتخلِّي عن تلك المطاردة لسبب رئيسي هو نقص الماء. وبينما كانوا في هذا الكرب، تصادف أن مرَّ في المكان الذي كان فيه الإسكندر بعض المقدونيين الذين جاؤوا بالماء في قِرَبٍ محمولة على بغالهم من نهر كانوا قد عثروا عليه. وعندما رأوا الإسكندر يكاد يختنق من العطش، ملأوا بالماء خوذةً وقدموها إليه... فأخذ الخوذة بيديه، ونظر فيما حوله، فرأى أن جميع الفريين منه قد تطاولت أعناقهم وهم ينظرون إلى الماء على نحو جذّي، فأعاده مع الشكر، دون أن يذوق قطرة منه، قائلاً: «إنني لو شربت وحدي، لانهارت معنويات الآخرين». ولم يكد الجنود

أن يترك قوة احتلال. ثم لم يعد إلى الجنوب بعد ذلك أبداً. إذْ لم يكن بحاجة إلى ذلك، لأن مينغو صار أخلص حلفائه الذين لا يتزعزع ولاؤهم له.

التفسير

كان أمام تشوكو ليانغ خياران: أن يحاول أن يهزم المتوحشين في الجنوب بضربة ساحقة واحدة، أو أن يكسبهم إلى جانبه بصبر وأناةٍ مع مرور الزمن. فمعظم الناس الأقوى من أعدائهم يتمسكون بالخيار الأول ولا ينتظرون الثاني أبداً. ولكن الأقوياء الحقيقيين يذهبون بتفكيرهم بعيداً فقد يكون الخيار الأول سهلاً وسريعاً، ولكنه بمرور الزمن يثير عواطف قبيحة في قلوب المغلوبين. فيتحول سخطهم إلى كراهية. ومثل هذه العداوة تبقيك قلقاً متوتراً ـ فتنفق طاقتك في محاولة حماية ما كسبت. وتصبح مصاباً بهوس الارتياب في الآخرين (بارانويا) وفي موقف الدفاع. أما الخيار الثاني، فبالرغم من كونه أصعب، فلا يقتصر على أن يجلب لك هدوء البال، بل إنه يقلب عدواً محتملاً إلى عمودٍ من الدعم.

في كل مواجهاتك، تراجع خطوة إلى الوراء ـ وخذ وقتاً لإجراء حساباتك وأوجد تناغماً مع التركيب العاطفي لأهدافك ونقاط ضعفهم النفسية. فالقوة لن تؤدي إلاّ إلى تعزيز مقاومتهم. فالقلب هو المفتاح بالنسبة لمعظم الناس: فهم كالأطفال، تحكمهم عواطفهم. ولتليينهم راوح لهم بين الخشونة والرحمة. واستغل مخاوفهم الأساسية، وكذلك عواطف حبهم. للحرية، لأُسَرِهِمْ... فعندما تكسر جموحهم، سيصبح لك في كل منهم صديق مدى الحياة وحليف شديد الولاء.

تنظر الحكومات للناس على شكل كتلة بالجملة فقط؛ ولكن
رجالنا لم يكونوا نظاميين، ولا تشكيلات، بل أفراداً...
فكانت مملكتنا كامنة في ذهن كل رجل.

(ت. ي. لورانس، 1888 ـ 1935): أعمدة الحكمة السبعة.

يلاحظون ضبطَهُ لنفسه وشهامتَهُ في هذه المناسبة حتى هتفوا له جميعاً بصوت واحد أن يقودهم إلى الأمام بجرأة، وبدأوا يجلدون خيولهم، قائلين إنه ما دام لديهم ملك كهذا فإنهم يتحدّون التعب والظمأ معاً، ويعتبرون أنفسهم أقلّ بقليل فقط من الخالدين.

حياة الإسكندر الأكبر
بلوتارخ، حوالي 46 ـ 120م

تذكّرنا هذه القصة بشهداء معركة اليرموك الأبطال الذين كانوا جرحى، آثر كل منهم أخاه بشربة الماء التي أديرت عليهم حتى فاضت أرواحهم واحداً بعد الآخر دون أن يشربوا(المترجم)

مفاتيح السلطة

في لعبة السلطة، أنت محاطٌ بأناس ليس لديهم أي سبب على الإطلاق لمساعدتك ما لم يكن في ذلك مصلحة لهم. فإذا لم يكن لديك ما تقدِّمه إلى مصلحتهم الذاتية، فإن من المحتمل أن تجعلهم معادين لك، إذ أنَّهم لن يروا فيك إلاَّ منافساً إضافياً آخر، ومضيعاً آخر لوقتهم. وأولئك الذين يتغلَّبون على هذا البرود السائد هم الذين يجدون المفتاح الذي يفتح مغاليق قلب الغريب وعقله، ويغويه إلى زاويتهم، وعند الضرورة يليّنه للضربة. ولكن معظم الناس لا يتعلَّمون هذا الجانب من اللعبة. وعندما يلتقون بشخص جديد، فبدلاً من التراجع خطوة إلى الوراء وسبر غوره لمعرفة ما الذي يجعل هذا الشخص فذاً، فإنهم يتحدثون عن أنفسهم، متشوِّقين إلى فرض قوة إرادتهم، وتحاملاتهم. فيجادلون، ويتبجَّحون، ويحوِّلون قوَّتهم وسلطتهم إلى استعراض. وقد لا يعرفون أنهم بذلك يخلقون لأنفسهم (بصورة سرِّيَّة) عدواً، ومقاوِماً، لأنه ليس هناك شعور يثير الغيظ أكثر من تجاهل فرديتك، وعدم الاعتراف بنفسيتك. إن ذلك يجعلك تشعر أنك بلا حياة، فيشعل سخطك.

تذكَّر: إن مفتاح الإقناع هو تليين مواقف الناس وترويضهم، بلطف. فَأَغْوِهِمْ بنهجٍ ذي شعبتين: اعمل على كسب عواطفهم واستغل نقاط ضعفهم الفكرية. فكن مستيقظاً لتحديد ما يفصلهم عن كل شخص آخر (نفسيتهم الفردية) وما يشتركون فيه مع كل شخص آخر (ردود فعلهم العاطفية الأساسية). واستهدف العواطف الأولية ـ الحب، والكراهية، والغيرة. فعندما تحرِّك عواطفهم تكون قد أَنْقَضْتَ سيطرتهم، وجعلتهم أكثر انكشافاً وعرضة للإقناع.

وعندما أراد تشوكو ليانغ أن يثني جنرالاً هاماً من مملكة منافسة عن الدخول في تحالف مع تسآو تسآو، عدوّ ليانغ المرهوب، لم يشرح

تفاصيل قسوة تسآو تسآو، ولم يهاجم على أسسٍ أخلاقية، وبدلاً من ذلك ألمح ليانغ أن تسآو تسآو كان في الحقيقة يسعى وراء الزوجة الجميلة لذلك الجنرال. فكان ذلك التلميح ضربةً للجنرال في معدته. وأدَّى إلى كسبه إلى صف ليانغ. وبالمثل كان ماوتسي تونغ يَتَوَجَّهُ دائماً إلى العواطف الشعبية، ويتحدَّث بأبسط المصطلحات. فقد كان مثقفاً وقارئاً جيِّداً بحد ذاته، ويستخدم في خطاباته مجازات لغوية عميقة المغزى تعطي صوتاً لأعمق ما في غرائز الناس من القلق، وتشجِّعهم على التعبير عن إحباطهم وخيبة آمالهم في اجتماعات عامة. وبدلاً من مناقشة الجوانب العملية لبرنامج معيَّن، كان يصف كيفية تأثيره فيهم على أخفض مستوى بدائي ملتصق بالأرض. ولا تعتقد أن هذا النهج ينجح فقط مع الأميين الذين لم يذهبوا إلى المدارس ـ بل إنه ينجح مع جميع الناس. فنحن جميعاً بشر مقدَّر عليهم الموت ونواجه المصيرَ الرهيبَ نفسه. وكلنا نشترك في الرغبة بالترابط والانتساب إلى جماعة. انصب هذه العواطف فخاخاً وستصطاد قلوبَنا بها.

وأفضل طريقة هي عمل ذلك بصدمة درامية مفاجئة، من النوع الذي أوجده تشوكو ليانغ عندما أطعم الأسرى وأطلق سراحهم في الوقت الذي كانوا يتوقعون منه الأسوأ. فهزَّهم كرمه إلى أعماقهم فليَّن قلوبهم. فاستغل مفارقات كهذه: ادفع الناس إلى حافة اليأس، ثم قدِّم لهم الخلاص والفَرَج. ذلك أنهم إذا كانوا يتوقعون الألم وأعطيتهم اللّذة فإنك تكسب قلوبهم. والواقع أن خلق اللَّذة والسرور من أي نوع يأتيك بالنجاح في العادة، تماماً كما يفعل التخفيف من المخاوف وتقديم الأمن أو الوعد به.

وكثيراً ما تكون الإشارات الرمزية كافيةً لكسب العطف وحسن النيّة. فالإشارة إلى التضحية بالذات، مثلاً ـ بإظهار كونك تعاني كما يعاني الآخرون من حولك. ستجعل الناس يتوافقون معك، حتى ولو

كانت معاناتك رمزية أو ثانوية، بينما معاناتهم حقيقية. فعندما تدخل في جماعة، أعطهم إشارة حسن نية وليِّن مواقفهم لتتحمَّل الإجراءات الأقسى التي ستتبع لاحقاً.

عندما كان توماس إدوارد لورانس يقاتل الأتراك في صحارى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى خطر بباله حدس: فقد بدا له أن الحرب التقليدية قد خسرت قيمتها، فالجندي العتيق الطراز ضائع وسط الجيوش الهائلة في عصره، حيث إنه يتلقى الأوامر من هنا وهناك كأنه بيدق لا حياة له. فأراد لورانس أن يقلب هذا الحال. فبالنسبة له كان عقل كل جندي مملكةً يتعيَّن عليه غزوها وفتحها. ذلك أن الجندي الملتزم، الذي لديه حافز نفسي، يقاتل بجهد أكبر وبطريقة خلاقة أكثر من الدمية.

ولا يزال إدراك لورانس صحيحاً أكثر في عالم اليوم، حيث يشعر الكثير منا بأنه غريب، ومجهول، ويتشكك في السلطة... وهذا كله يجعل ألعاب السلطة والقوة أخطر وذات مردود معاكس وسلبي أكثر. فبدلاً من التلاعب ببيادق لا حياة فيها، اجعل أولئك الذين إلى جانبك مقتنعين ومتحمسين للقضية التي جنَّدتهم فيها ولخدمتها. فلن ينجم عن ذلك إلاَّ جعل عملك أسهل، ولكنه أيضاً سيعطيك مهلة لتخدعهم في وقت واحد.

ولتحقيق ذلك تحتاج إلى التعامل مع نفسياتهم الفردية. وإيَّاك أن تفترض على نحو أخرق، أن التكتيك الذي ينجح في التطبيق على شخص مّا سينجح بالضرورة مع شخص آخر. فللعثور على المفتاح الذي سيحرِّضهم، اجعلهم ينفتحون عليك أولاً. وكلما زاد حديثهم زاد ما يكشفونه لك عما يحبُّون وما يكرهون ـ وهذه هي المقابض والرافعات التي ستحرِّكهم بها.

إن أسرع طريقة إلى ضمان عقول الناس، هي العمل بأبسط شكل

ممكن، على إظهار مدى فائدة عملٍ مّا لهم. فالمصلحة الذاتية هي الحافز الأكبر من جميع الحوافز: فالقضية العظيمة قد تأسر العقول ولكن ما أن تنتهي دفقة الحماس الأولى، فإن المصلحة سوف تبرز رأسها ـ ما لم يكن هناك شيء يمكن كسبه. فالمصلحة الذاتية هي أساس التجنيد. والقضايا التي تنجح على نحو أفضل، تستخدم قشرة خارجية من النبل لتخفي توجهاً سافراً نحو المصلحة الذاتية، فالقضية تغوي. ولكن المصلحة الذاتية تختم الصفقة وتؤمّنها.

والناس الأفضل قدرة على مخاطبة عقول البشر كثيراً ما يكونون الفنانين، والمثقفين، وذوي الطبيعة الأكثر شاعرية. ذلك لأن الأفكار تنقل بأسهل طريق من خلال المجازات والاستعارات والصور. ولذا، فإن من حسن السياسة أن تضع في جيبك فناناً أو مفكِّراً مثقفاً واحداً على الأقل، يستطيع مخاطبة عقول الناس بأسلوب صحيح. ولقد ظل الملوك على الدوام يحتفظون في حظائرهم باصطبل من الكتّاب. فكان لفردريك الأكبر فولتيره (إلى أن تشاجر الرجلان، وافترقا)، وكسب نابليون غوته إلى صفه. وعلى عكس ذلك فإن تنفير نابليون الثالث للكتّاب، مثل فيكتور هوجو، الذي نفاه من فرنسا، أسهم في تنامي السخط الشعبي عليه، ممَّا أدَّى في النهاية إلى سقوطه. وإذن فإن من الخطر تنفير أولئك الذين لديهم قوة التعبير، ومن المفيد تهدئتهم واستغلالهم.

وأخيراً، تعلَّم أن تمارس لعبة الأرقام. فكلما اتسعت قاعدة تأييدك زادت قوة سلطتك. كان لويس الرابع عشر، يفهم أن شخصاً واحداً مستبْعَداً، ومُنَفَّراً، وساخطاً يستطيع بشرارة أن يشعل السخط. ولذلك فقد حرص على أن يحبِّب نفسه إلى أصغر موظفيه شأناً. وأنت أيضاً، عليك أن تكسب المزيد من الحلفاء بإطراد وعلى كل المستويات ـ فسيأتي حتماً وقت تحتاج إليهم فيه.

صـــورة:
ثقب المفتاح.
يـبـنـي الـنـاس
جـدراناً لإبـقـائك فـي
الخارج؛ فلا تقحم نفسك
بالقوة إلى الداخل، لأنك
لـن تـجـد سـوى جـدران
داخل جدران. هـنـاك أبواب
في هذه الجدران، أبواب إلى
القلب والعقل، وفيها ثقوب
صغيرة للمفاتيح. فأطل عبر
ثقب المفتاح، واعثر على
المفتاح الذي يفتح الباب،
وعـنـدئذٍ تـتـوصـل إلـى
إرادتـهـم وبـدون
عـلامـات قـبـيـحـة
عـلـى دخـول
بالقوة.

الشاهد: تكمن الصعوبات في طريق الإقناع بمعرفتي قلبَ الشخص المُقْنِع كي أجعل كلماتي مناسبة له... ولهذا السبب فإن كل من يحاول الإقناع أمام العرش عليه أن يراقب بدقةٍ مشاعرَ العاهل من الحب والكراهية، ورغباته ومخاوفه السرِّيّة قبل أن يتمكّن من غزو قلبه.

(هان . في . تزو، فيلسوف صيني، من القرن الثالث ق.م).

الانقلاب

لا يوجد أي انقلاب ممكن على هذا القانون.

القانون

44

انزع السلاح وحرّك الحِنْق بتأثير المرآة

الحكم

تعكس المرآة الحقيقة، ولكنها أيضاً السلاح الأمثل للخداع. فعندما تقلِّد أعداءك كأنك مرآة لهم، تفعل ما يفعلونه بالضبط، فإنهم لا يستطيعون أن يفهموا خطتك الاستراتيجية. ذلك أن تأثير المرآة يسخر منهم ويذلّهم، مما يجعلهم يفرطون في رد فعلهم. وبرفع المرآة أمام نفوسهم، فإنك تغويهم بوهم كونك تشاطرهم قِيَمَهُمْ؛ وبرفع المرآة أمام أعمالهم، فإنك تلقنهم درساً. قليلون هم القادرون على مقاومة تأثير المرآة.

تأثيرات المرآة: تمهيد لدراسة النماذج الشخصية

للمرايا قوة قادرة على إقلاقنا. وعند التحديق في انعكاساتنا في المرآة، كثيراً ما نرى ما نريد أن نراه ـ صورة أنفسنا التي نرتاح معها أكثر من أي شيء آخر. وليست هناك حاجة للتحديق المفرط الدقّة، فنتجاهل التجاعيد والعيوب. ولكننا إذا دققنا النظر في الصورة المنعكسة بالفعل، فإننا نشعر أحياناً بأننا نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون، كشخصٍ بين أناسٍ آخرين، كشيء، أو غرض بدلاً من شخص فاعل. ومثل هذا الشعور يجعلنا نرتجف، إذْ نرى أنفسنا، ولكن من الخارج، أي بدون الأفكار، والجوهر، والروح التي تملأ وعينا. فنصبح شيئاً.

وباستخدام تأثيرات المرآة فإننا نعيد خلق هذه القوة المقلقة بصورة رمزية عن طريق عكس أعمال الناس الآخرين، بتقليد حركاتهم لإزعاجهم وإثارة حنقهم. فعندما يشعرون بأنهم مقلَّدون ومستنسخون، ومعاملون على أنهم أشياء، وصورة بلا روح، فإنهم يغضبون. أو افعل الشيء نفسه بطريقة مختلفة قليلاً وقد يشعرون بأنهم منزوعو السلاح ـ لأنك تكون بذلك قد عكستَ رغباتهم وميولهم. فهذه هي القدرة النرجسية للمرايا. وفي كلتا الحالتين فإن تأثير المرايا يزعزع أهدافك، سواء بإغضابهم أم بسلب لبهم. وفي تلك اللحظة تكون لديك القوة والسلطة التي تمكِّنك من التلاعب بهم أو إغوائهم. ففي التأثير قوة كبيرة لأنه يعمل على أكثر العواطف بدائية.

التاجر وصديقه

كان لأحد التجار ذات مرة رغبة عظيمة في أن يقوم برحلة طويلة. ونظراً لأنه لم يكن واسع الثراء فقد قال لنفسه: «من المطلوب قبل مغادرتي أن أترك جزءاً من ممتلكاتي في المدينة، لكي يكون لدي مال أستند إليه عند عودتي إذا أصابني حظ سيّء في أسفاري». ولهذا الغرض ترك عدداً كبيراً من قضبان الحديد (كانت جزءاً رئيساً في ثروته) أمانةً عند واحد من أصدقائه، راجياً منه أن يحفظها له في غيابه، ثم استأذنه ومضى. وبعد مدة لم يجد في أسفاره إلاّ الحظ السيّء، فعاد أدراجه إلى وطنه. فكان أول ما فعله هو الذهاب إلى صديقه ومطالبته بالحديد. ولكن ذلك الصديق، الذي كان مديناً بعدة مبالغ من المال، كان قد باع الحديد ليسدد به ديونه، أجاب بقوله: «الحق يا صديقي أني وضعت حديدك في غرفة محكمة الإقفال، متصوراً أنه سيكون آمناً فيها كذمتي نفسه. ولكن وقع حادث، ما كان أحد ليشك في وقوعه. إذْ كان

في الغرفة جرذٌ أكل حديدك كله».

فتظاهر التاجر بالجهل، وردّ قائلاً: «إنها لكارثة رهيبة لي حقاً، ولكنني أعرف من قديم أن الجرذان تحب الحديد حباً جماً، وقد عانيت منها في السابق كثيراً بالطريقة نفسها، ولذلك فإنني أستطيع أن أتحمل محنتي!

قَسُرَ الصديق من هذا الجواب كثيراً، وأسعده أن يسمع التاجر يميل إلى تصديق الادعاء بأن جرذاً قد أكل حديده. ولكي يزيل كل شكوكه، دعاه إلى العشاء معه في اليوم التالي. فوعده التاجر بذلك. ولكنه في تلك الأثناء التقى في وسط المدينة بأحد أولاد صديقه؛ فحمله معه إلى منزله وأخفاه في غرفة مغلقة. وذهب في اليوم التالي إلى صديقه، الذي كان في محنة عظيمة، وعندما سأله عن السبب، وكأنه يجهل ما حدث جهلاً تاماً، أجابه الصديق: «آه، يا صديقي العزيز، أرجو أن تعذرني إذا لم تجدني مرحاً كما ينبغي. فقد فقدتُ راحداً من أبنائي، وطلبت من المنادي أن ينادي لي عليه بالسوق، ولا أدري ماذا حدث له». فردّ التاجر: «آه، يحزنني أن أسمع هذا، لأنني عندما غادرت منزلك مساء الأمس، رأيت يوماً في الجوّ وفي مخالبها طفلاً ولكنني لا أدري إن كان ابنك أم لا». فردّ الصديق: «أيها المخلوق الأحمق السخيف! ألا تخجل من مثل هذه الأكذوبة الفاضحة؟ أيومٌ لا تزن أكثر من رطلين

وهناك أربعة تأثيرات رئيسية للمرايا في عالم السلطة.

تأثير التحييد: في الأساطير الإغريقية القديمة أن ميدوسا الغورغونية كان لها ثعابين على رأسها بدل الشعر، ولسان يتدلى إلى الخارج، وأسنان ضخمة ثقيلة، ووجه قبيح إلى درجة أن كل من ينظر إليه يتحوَّل إلى حجر بسبب الخوف. ولكن البطل بيرسيوس تمكَّن من ذبح الميدوسا عن طريق تلميع درعه البرونزي حتى تحوَّل إلى مرآة. ثم استخدم الانعكاس في المرآة ليقوده وهو يزحف حتى قطع رأسها دون أن ينظر إليها مباشرة. فإذا كان الدرعُ مرآةً في هذه الحالة، فقد عملت المرآة كنوع من الدروع: فلم تستطع الميدوسا أن ترى بيرسيوس، بل رأت أعمالها فقط وهي تنعكس على صفحة المرآة، ومن خلف هذه الستارة تسلَّل البطل وقضى عليها.

وهذا هو جوهر تأثير التحييد. إعمل ما يعمله أعداؤك، متتبعاً تصرفاتهم كأفضل ما تستطيع، وبذلك لن يستطيعوا أن يروا ما تهدف إليه. فمرآتك تعميهم. وتعتمد استراتيجيتهم للتعامل معك على إبداء ردود فعلٍ تجاههم مميزة لك كما يعرفونك. حيِّد ردود الفعل هذه بممارسة لعبة التقليد معهم. فلهذا التكتيك تأثير ساخر، بل ومثير للحنق. إن معظمنا يتذكر تجربة طفولتنا عندما كان شخص ما يسخر منا بترديد كلماتنا كما ننطقها بالضبط ـ وبعد فترة ليست طويلة في العادة. فإننا نرغب في لطم مقلِّدنا على وجهه. وبالعمل بطريقة أخفى وأذكى كشخص بالغ، يمكنك أن تهزّ استقرار خصومك بهذه الطريقة. فتحتي استراتيجيتك نفسها بالمرآة كدرع وتنصب فخاخاً غير مرئية، أو تدفع بخصومك إلى الفخ الذي أعدوه لك.

وقد استُخْدِمَ هذا الأسلوبُ القوي في الخطط الاستراتيجية العسكرية منذ أيام صُنْ . تزُو. أما في عصرنا الحاضر، فإنه كثيراً ما يصطدم في الحملات السياسية. وهو مفيد أيضاً في تمويه الأوضاع التي لا يكون لديك فيها أية استراتيجية خاصة أو معيَّنة. وهذه هي مرآة المحارب.

والظلُّ نسخة معاكسة لتأثير التحييد. فأنت تلاحق خصومك كظلِّهم في كل حركة من حركاتهم بدون أن يروك. فاستخدم الظل لتجميع المعلومات التي ستحيّد استراتيجيتهم فيما بعد، عندما تكون قادراً على إحباط كل واحدة من حركاتهم. فالظل مؤثر لأن تتبع حركات الآخرين يعني الحصول على معلومات داخلية عميقة ثمينة لعاداتهم وروتين حياتهم. فالظل هو التدبير العقابي للجواسيس والعاملين في التحرِّي السرِّي.

التأثير النرجسي: عندما كان الشاب الإغريقي نارسيوس يحدِّق في صورته المنعكسة في مياه بركة وقع في غرامها. وعندما اكتشف أنها كانت صورته، وأنه لذلك عاجز عن تنفيذ هذا الغرام، انتابه اليأس فأغرق نفسه. ونحن جميعاً لدينا مشكلة مماثلة: فنحن نحب أنفسنا حبّاً عميقاً، ولكن بما أن هذا الحب يستبعد أي هدف للحب خارج أنفسنا، فهو يظل غير مُلَبّىً على الدوام وغير مطبَّق. فالتأثير النرجسيّ يعمل على استغلال خاصيّة النرجسية هذه العالمية الانتشار: فأنت تنظر عميقاً إلى داخل أرواح الناس الآخرين، وتسبر أغوار أعمق رغباتهم الداخلية، وقيمهم، وأذواقهم، وجوهرهم؛ ثم تعيدها منعكسة إليهم، جاعلاً نفسك نوعاً من صورة المرآة. فقدرتك على عكس روحهم تعطيك سلطة كبيرة عليهم؛ بل إنهم قد يشعرون بلمسة حب.

إن هذه ببساطة هي القدرة على تقليد شخص آخر، ليس جسدياً، بل نفسياً، وهي قوية بشكل هائل، لأنها تستغل حب الطفل لذاته، وهو الحبّ غير المتحقق. فالناس في العادة يطلقون علينا تجاربهم هم وأذواقهم هم. فلا يكادون يقومون بأي محاولة لرؤية الأشياء من خلال أعيننا. وهذا شيء مزعج، ولكنه يخلق فرصة كبرى أيضاً. فإذا استطعتَ أن تُظْهِرَ بأنك تفهم شخصاً آخر بأن تعكس له أعمق مشاعره، فإنك سوف تسلب لبّه وتنزع سلاحه.. وذلك لأن هذا لا يحدث إلاَّ نادراً. فلا أحد يستطيع أن يقاوم هذا الشعور بانعكاس صورته بشكل منسجم

أو ثلاثة، تستطيع أن تحمل طفلاً يزن خمسين رطلاً؟» فردّ عليه التاجر. «لِمَ تعجب من ذلك؟ وكأن البلد التي يستطيع فأر واحد فيها أن يأكل مائة طن من الحديد، يكون من العجيب فيها أن تحمل بوم طفلاً كل وزنه خمسون رطلاً!». وعندئذ اكتشف الصديق أن التاجر لم يكن من الحمق كما ظنّه، فاعتذر منه على الاحتيال الذي مارسه عليه، وأعاد إليه قيمة حديده، واستعاد منه ولده.

خرافات
بلباي، الهند
القرن الرابع الميلادي

متناغم في العالم الخارجي، حتى ولو كنت تصنع هذا الانعكاس لمصلحتهم ولأغراض خداعية خاصة بك.

والتأثير النرجسي يفعل الأعاجيب، في الحياة الاجتماعية، وفي الأعمال التجارية على حدٍّ سواء؛ إذْ أنه يعطينا مرآة المغوي، ومرآة رجل الحاشية معاً.

التأثير الأخلاقي: إن قوة الحجة الشفهية محدودة للغاية، وكثيراً ما تحقق عكس ما هو مقصود. وكما يلاحظ غراسيان: «إن الحقيقة تُرَى بصورة عامة، ونادراً ما تُسْمَع». فالتأثير الأخلاقي طريقة مثالية لإظهار أفكارك من خلال العمل. وبكل بساطة، فإنك تلقن الآخرين درساً بإعطائهم جرعة من دوائهم نفسه.

وبالتأثير الأخلاقي تعكس مرآتك ما فعله بك الآخرون. وتفعل ذلك بطريقة تجعلهم يدركون أنك تفعل بهم ما فعلوه بك تماماً فتجعلهم **يشعرون** بأن سلوكهم كان كريهاً. وهذا عكس سماعهم أنك وأنت تشكو وتنتحب من سلوكهم ذاك، ممّا لا يؤدِّي إلاَّ إلى ارتفاع دروعهم الدفاعية. فعندما يشعرون بأعمالهم وقد عادت إليهم منعكسة. فإنهم يدركون بأعمق إحساس كيف يؤذون الآخرين ويعاقبونهم بسلوكهم غير الاجتماعي. فأنت تجسِّد لهم صفاتٍ تريدهم أن يشعروا بالخجل منها، وتخلق مرآة تتيح لهم أن ينظروا إلى حماقاتهم ويتعلَّموا درساً عن أنفسهم. وهذا أسلوب كثيراً ما يستخدمه المثقِّفون، وعلماء النفس، وأي شخص مضطر إلى التعامل مع سلوك بغيض وغير واعٍ. وتلك هي مرآة المعلِّم. وسواء أكان هناك شيء خاطىء أم لم يكن في طريقة معاملة الناس لك، فكثيراً ما يكون من مصلحتك أن تعكسها لهم بطريقة تشعرهم بالذنب حولها.

التأثير الهلوسي: إن المرايا خدَّاعة بشكل هائل، لأنَّها تخلق لك شعوراً بأنك تنظر إلى العالم الحقيقيّ. والواقع أنك لا تنظر إلاَّ إلى قصعة زجاج ليس بوسعها، كما يعلم الجميع، أن تعرض لك العالم كما هو

بالضبط: فكل شيء في المرآة منقلب إلى عكسه. وعندما تذهب آليس عبر المنظار في كتاب لويس كارّول، فإنها تدخل إلى عالم مقلوب رأساً على عقب، وليس بصرياً فقط.

ويأتي التأثير الهلوسيّ من خلق نسخة كاملة لشيء، أو مكان، أو شخص. وهذه النسخة تعمل كنوعٍ من الدُّمى، فالناس يعتبرونها الشيءَ الحقيقي، لأن لها المظهر الجسديّ للشيء الحقيقيّ. وهذا هو الأسلوب البارز لفنّاني الاحتيال، الذين يقلّدون العالم الحقيقي على نحو استراتيجي لكي يخدعوك. وله أيضاً تطبيقات في أية حلبة تتطلّب التمويه. فهذه هي مرآة المخادع.

حالات مراعاة تأثيرات المرآة

الحالة الأولى

في شهر شباط/ فبراير سنة 1815، هرب الإمبراطور نابليون من جزيرة إلبا، حيث كانت قوات الحلفاء الأوروبيين تحتجزه، وعاد إلى باريس في زحف حرَّك الأمّة الفرنسية، فالتفَّ حوله الجنود والمواطنون من كل الطبقات، وطاردوا خَلَفه الملك لويس الثامن عشر فأبعدوه عن العرش. غير أنه بحلول شهر آذار/ مارس، وبعد أن رسخ نابليون نفسه في السلطة، كان عليه أن يواجه كون وضع فرنسا قد تغيَّر بشكل خطير. فقد كان البلد مدمَّراً، ولم يكن له حلفاء بين الأمم الأوروبية الأخرى. وقد هجره أهم وزرائه وأكثرهم ولاءً أو غادروا البلد. ولم يبق من النظام القديم سوى رجل واحد ـ جوزيف فوشيه، وزير الشرطة السابق عند نابليون.

وكان نابليون طيلة عهده السابق يعتمد على فوشيه للقيام بأعماله القذرة، ولكنه لم يتمكَّن من فهم وزيره هذا على الإطلاق، وكان يقتني جهازاً من العملاء ليتجسَّسوا على وزرائه جميعاً بحيث تكون له ميزة التفوُّق عليهم دائماً. ولكن أيّاً منهم لم يمسك شيئاً ضد فوشيه. فقد كان

عندما تتشبك مع العدو، وتأخذان في الاصطراع، وتدرك أنك لا تستطيع إحراز تقدم، فإنك تلتصق بالعدو، و«تتغلغل» في صفوفه فتصبح كأنك معه كتلة واحدة. وعندئذ تستطيع الفوز بتطبيق أسلوب مناسب بينما أنتما مشتبكان اشتباكاً لصيقاً ومتبادلاً. وكثيراً ما تتمكن من الفوز بميزة معرفة كيفية «النفاذ» إلى العدو (كنفاذ الماء في الإسفنجة)، أما إذا ابتعدت عنه منفصلاً فإنك ستخسر فرصة الفوز.

كتاب الحلقات الخمس
ميامونو موساشي، اليابان
القرن السابع عشر

هذا الوزير إذا اتُّهِمَ بأي جرم يَخْضَع، ويهزّ رأسه، ويبتسم، ويغيِّر ألوانه كما تفعل الحرباء، متكيِّفاً لمقتضيات اللحظة. وفي بادىء الأمر كان ذلك يبدو إلى حدٍّ مّا ساراً وآسراً، ولكنه بعد ذلك صار يُشْعِرُ نابليونَ بالإحباط، الذي أخذ يحسّ بأنه مغلوب أمام هذا الرجل الغامض المراوغ. وفي وقت آخر كان نابليون قد طرد معظم وزرائه الهامِّين، ولكنه لم يلمس فوشيه على الإطلاق. وهكذا في سنة 1815، بعد أن عاد إلى السلطة، وكان في حاجة إلى المساعدة، شعر بأنه ليس لديه خيار سوى إعادة تعيين فوشيه وزيراً لشرطته.

وبعد مضي عدة أسابيع في عهد نابليون الجديد، أخبره جواسيسه أنهم يعتقدون أن فوشيه على اتصال سرِّي بوزراء بلدان أجنبية بما في ذلك مترنيخ النمسوي. وخشي نابليون أن يكون أثمن وزير عنده يخونه لصالح أعدائه. فكان عليه أن يكتشف الحقيقة قبل فوات الأوان. ولم يستطع مواجهة فوشيه مباشرة ـ فمن الناحية الشخصية كان الرجل زلقاً أكثر من سمكة الأنقليس. وكان نابليون بحاجة إلى دليل ملموس.

وجاء الدليل في الظاهر في شهر نيسان/ إبريل، عندما ألقت شرطةُ الإمبراطور الخاصةُ القبض على سيِّدٍ من ڤيينا كان قد قَدِمَ إلى باريس لإيصال معلومات إلى فوشيه. فأمر نابليون بإحضار الرجل إليه، وهدَّده بالقتل في ذلك المكان وفي تلك اللحظة ما لم يعترف. فانهارَ الرجل واعترف بأنه أعطى فوشيه رسالة من مترنيخ، مكتوبة بحبرٍ خفيّ، عن تدبير اجتماع سرِّي للعملاء الخصوصيين في مدينة بال. وبناء على ذلك أمر نابليون واحداً من عملائه بالتسلل إلى ذلك الاجتماع. فإن كان فوشيه يخطِّط لخيانته حقاً فسوف يتم الإمساك به متلبساً في آخر الأمر، ويُشْنَق.

وانتظر نابليون عودة عميله بفارغ الصبر. ولكن، لذهوله، ظهر العميل بعد أيام ليبلغه أنه لم يسمع شيئاً يوحي بتورّط فوشيه في مؤامرة. والحقيقة أنه يبدو أن العملاء الآخرين قد شكّوا بأن فوشيه كان يخدعهم هم، وكأنه كان يعمل لنابليون على طول الخطّ. ولم يصدِّق نابليون هذا

الثعلب والثلج

قرّر الثعلب ذات يوم أن يتكارم ويدعو الثلج العجوز إلى وليمة. ولم يكن العشاء معقداً، وبما أنه كان معتاداً على البخل، فإنه لم يجرب أسلوب المطبخ الراقي، بل كان العشاء في الحقيقة يتكون من طبق مسطح ضحل من الثريد. وفي غضون دقيقة كان مهرجنا قد لعق طبقه حتى نظفه! وفي تلك الأثناء كان ضيفه يحاول أن يلتقط بمنقاره شيئاً، فلم يحصل على لقمة. ولكي ينتقم من الثعلب لهذه النكتة العملية القاسية، دعاه إلى العشاء في الأسبوع التالي، فقال الثعلب: «سأكون مسروراً، فعندما تأتي الدعوة من صديق، لا أتكبّر عليه». وبدقّة في مراعاة اليوم المرعود، ركض إلى بيت مضيفه وبدأ يمتدح كل شيء: «يا له من ذوق! يا لها

ولو للحظة ـ كان فوشيه قد تفوَّق عليه في الذكاء بطريقة مّا مرَّة أخرى.

وفي صباح اليوم التالي، زار فوشيه نابليون، ولاحظ: «وعلى فكرة، يا سيدي، لم أقل لك إنني تلقيتُ رسالة من مترنيخ قبل بضعة أيام؛ وكان ذهني مشغولاً بأشياء أكثر أهمية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد نسي مبعوثُهُ، أن يعطيني المسحوق المطلوب لجعل الكتابة مقروأة. . . وها هي ذي الرسالة أخيراً». وتأكَّد نابليون من كون فوشيه يَتَلَعَّبُ به، فانفجر: «إنك خائن يا فوشيه! وينبغي عليَّ أن آمر بشنقك». واستمر نابليون في خطابه لتعنيف فوشيه، ولكنه لم يقدر على طرده بدون دليل، بينما اكتفى فوشيه بالتعبير عن ذهوله من كلمات الإمبراطور، ولكنه ابتسم في سرِّه، لأنه كان من البداية يمارس لعبة المرايا.

التفسير

كان فوشيه يعرف منذ سنوات أن نابليون ظل متربعاً على القمة فوق مَنْ حوله عن طريق التجسس عليهم ليلاً نهاراً. وقد نجا الوزير بأن كان لديه جواسيسه الخاصون به للتجسس على جواسيس نابليون، وبذلك كان يحيِّد أي إجراء قد يتخذه ضده نابليون، بل إنه في حالة الاجتماع في بال، قَلَبَ الطاولة؛ فقد كان يعرف عن عميل نابليون المزدوج، وهكذا رتَّب الأمور بحيث يبدو أن فوشيه عميل مزدوج مخلص لنابليون، هو الآخر.

لقد كسب فوشيه السلطة وازدهر في فترة من الاضطراب الشديد، عن طريق عكسِ صُوَرِ الذين حوله في المرايا. فأثناء الثورة الفرنسية كان من اليعاقبة المتشددين؛ وبعد عهد الإرهاب صار جمهورياً معتدلاً، وتحت حكم نابليون أصبح استعمارياً ملتزماً أعطاه نابليون لقب نبالة وجعله دوق أوترانتو. فإذا لجأ نابليون إلى سلاح الحفر لإلقاء القاذورات على الناس، فقد تأكد فوشيه من أن لديه قاذورات ضد نابليون وضد كل شخص آخر كذلك. وقد أتاح له ذلك أن يتنبأ بخطط الإمبراطور ورغباته، بحيث كان يستطيع أن يردِّد صدى عواطف رئيسه حتى قبل أن

من آناقة! والطعام معمول على الوجه الأكمل!». ثم جلس وشهيته متقدة (فالثعالب مستعدة للأكل على الدوام)، وقد وصلت إلى خياشيمه رائحة اللحم اللذيذ. وكان لحماً مفروماً، وقد قدّم للثعلب ـ كما يستحق! ـ في دورق طويل العنق ضيّق الفوهة. فانحنى اللقلق بسهولة، وتمتع باللحم تمتعاً كاملاً وهو يتناوله بمنقاره. أما فم الثعلب، فلم يكن شكله مناسباً، ولا حجمه، فاضطر إلى العودة إلى وجاره خاوي البطن، يجر ذيله وراءه خائباً، وقد تهدّمت أُذناه واحمر وجهه كأنه ثعلب أمسكت به دجاجة.

خرافات منتقاة
جان دي لافونتين
1621 ـ 1695

يتفوَّه بها. وإذْ جعل فوشيه استراتيجية المرايا درعاً يحصِّن به تصرفاته، فإنه استطاع أيضاً أن يخطِّط لحركات هجوميّة بدون أن يُضْبَطَ متلبِّساً بعمله هذا.

تلك هي قوة عكس صور مَنْ حولك في المرايا. فأنت أولاً تعطي الناس شعوراً بأنك تشاطرهم أفكارهم وأهدافهم. فإذا شكّوا ـ ثانياً ـ بأن لديك أهدافاً خفية، فإن المرآة تحصّنك منهم، فتمنعهم من فهم استراتيجيتك. وفي آخر الأمر، فإن ذلك سوف يثير ثائرتهم ويزعزع استقرارهم. فبممارسة لعبة مزدوجة، فإنك تسرق الرعد منهم، وتمتص منهم زمام المبادرة، وتجعلهم يشعرون بأنهم بلا حول ولا قوة. كما أنك تكسب القدرة على اختيار زمن إقلاقهم وكيفية التشويش عليهم ـ وهذا طريق آخر نحو السلطة. كما أن المرآة توفر عليك طاقة عقلية: ذلك أن ترديد صدى حركات الآخرين يتيح لك المجال الذي تحتاج إليه كي تطوِّر استراتيجيتك الخاصة بك.

الحالة الثانية

في أوائل الحياة العملية، قام السياسي والجنرال الطموح آلسيبياديس الأثينيّ (450 ـ 404 ق.م) بتكييف سلاح رهيب صار مصدر سلطته. ففي كل مواجهة مع الآخرين، كان يستشعر أمزجتهم وأذواقهم. ثم يفصل كلماته وأعماله بعناية لتعكس في المرآة أعمق رغباتهم. فيغويهم بفكرة كون قِيَمِهِمْ متفوِّقةً على قِيَم كل شخص آخر، وبأن هدفه هو أن يجعلهم نماذج له يقلِّدها، أو أن يساعدهم على تحقيق أحلامهم فلم يستطع مقاومة سحره إلاَّ قليلون.

وكان أول رجل يقع تحت تأثير سحره هو الفيلسوف سقراط وكان آلسيبياديس يمثل عكس مثال البساطة والاستقامة السقراطيّ. فقد كان يعيش في فخفخة، وكان بلا مبادىء تماماً. غير أنه كان كلما التقى بسقراط، يعكس في المرآة وقار الرجل ورزانته، فيأكل ببساطة، ويرافق سقراطَ في مسيرات طويلة على الأقدام، ولا يتحدث إلاَّ عن الفلسفة

الرسالة المختلسة

عندما أريد أن اكتشف أي شخص كم هو حكيم أو غبي، أو طيب أو شرير، أو ما هي أفكاره في حينها، فإنني أشكّل تعبير وجهي، بأقصى دقة ممكنة، حسب التعبير المرتسم على وجهه، ثم أنظر لأرى ما الأفكار أو العواطف التي تنشأ في ذهني أو في قلبي، كأنما لتتماشى أو تتماثل مع التعبير.

إدغار آلن بو
1809 ـ 1849

والفضيلة. ولكن سقراط لم ينخدع بصورة كاملة. فلم يكن غافلاً عن حياة آلسيبياديس الأخرى. ولكن ذلك لم يزد على جعل سقراط مكشوفاً لمنطقٍ تَمَلَّقَهُ: فأخذ يشعر بما يلي: لا يخضع هذا الرجل لتأثيرات الفضيلة إلاَّ في حضوري. فأنا فقط الذي أملك سلطة عليه. وأَسْكَرَ هذا الشعور سقراط، فصار معجباً بآلسيبياديس ومؤيداً له بشدة، بل لقد غامر بحياته ذات يوم لينقذ الشابَّ في المعركة.

وكان الأثينيون يعتبرون آلسيبياديس أعظم خطبائهم. إذْ كانت له قدرة خارقة على التناغم مع تطلعات مستمعيه، وعكس رغباتهم في المرآة. وقد ألقى أعظم خطبة في تأييد غزو صقلية، التي كان يعتقد أنها ستجلب ثروةً عظيمة لأثينا، ومجداً لا حدود له لنفسه. وقد عبَّرت تلك الخطب عن تعطش الشباب الأثينيين لغزو أراضٍ لأنفسهم، بدلاً من العيش على انتصارات أسلافهم. ولكنه فصَّل كلماته أيضاً بحيث تعكس حنين الشيوخ إلى سنوات المجد الغابر عندما كانت أثينا تقود الإغريق ضد فارس، ومن ثمَّ استمرَّت حتى خَلَقَتْ إمبراطورية. وهكذا راحت أثينة كلها تحلم بغزو صقلية. وتمت الموافقة على خطة آلسيبياديس، وتم تعيينه قائداً للحملة.

غير أنه بينما كان آلسيبياديس يقود غزو صقلية، لفق ضده بعض الأثينيين اتهامات بأنه دنّس تماثيلَ مقدسة. فَعَلِمَ أنه إذا رجع إلى الوطن فسوف يسعى أعداؤه لإعدامه. وهكذا ففي الدقيقة الأخيرة هَجَرَ أسطول أثينة وهرب إلى عدوها اللدود، إسبارطة. فرحّب الإسبارطيون بمجيء هذا الرجل العظيم للوقوف إلى جانبهم. ولكنهم كانوا يعرفون سمعته، فكانوا حذرين منه. وكان آلسيبياديس يحب البذخ؛ بينما كان الإسبارطيون شعباً محارباً يعبد التقشف. وكانوا يخشون أن يفسد آلسيبياديس شبابهم. ولكنهم ارتاحوا كثيراً، لأن الآلسيبياديس الذي وصل إلى إسبارطة لم يكن أبداً ما توقعوه: فقد أسدل شعره بلا تشذيب (كما كانوا يفعلون)، وأخذ يستحم بالماء البارد، ويأخل خبزاً خشناً،

وحساءً أسود، ويرتدي ملابس بسيطة. وكان هذا عند الإسبارطيين يشير إلى أنه قد اقتنع بأن طريقة حياتهم متفوقة على حياة الأثينيين، وبأن الإسبارطيين أعظم من الأثينيين، ولذلك اختار أن يكون إسبارطياً بدلاً من أن يكون مولوداً كذلك. ولهذا يجب تكريمه فوق الجميع. وهكذا وقعوا تحت تأثير سحره ومنحوه سلطات عظيمة. ولسوء الحظ، فإن آلسيبياديس لم يكن يعرف كيف يلجم سره هذا ـ فقد استطاع أن يغوي زوجة ملك إسبارطة، التي حملت منه سفاحاً. وعندما شاع ذلك عنه، اضطر إلى الفرار مرة أخرى كي ينجو بحياته.

وفي هذه المرة هرب آلسيبياديس إلى فارس، حيث تحول فجأة من البساطة الإسبارطية إلى طراز حياة البذخ الفارسية حتى أدق تفاصيلها. وقد شعر الفرس بالملق الهائل بالطبع، وهم يرون إغريقياً من حجم آلسيبياديس ومكانته يفضل حضارتهم على حضارته. فأمطروه بأنواع التكريم، وأهدوه الأراضي، ومنحوه السلطة. وما إن أغوتهم المرآة حتى عجزوا أن يلاحظوا أن ألسيبياديس كان يمارس من وراء ذلك الدرع لعبة مزدوجة، فيساعد الأثينيين سراً في حربهم مع إسبارطة، وبذلك يتقرب زُلْفَىٰ من المدينة التي كان يريد أن يعود إليها بشكل يائس، والتي رحبت بعودته بذراعين مفتوحتين سنة 408 ق .م.

التفسير

في وقت مبكر من حياته العملية، قام آلسيبياديس باكتشاف غيّر نهجه كله إزاء السلطة. فقد كانت له شخصية قوية نابضة بالحيوية، ولكنه عندما يجادل الآخرين في أفكاره، كان يكسب قلّةً منهم، وينفّر كثيرين غيرهم في الوقت نفسه، حتى شرع يعتقد بأن السرّ في الصعود فوق أعداد كبيرة من الناس ليس في فرض وجهة نظره عليهم، بل في امتصاص آرار مَنْ حوله، كالحرباء. فعندما يقع الناس في حبائله، فإن ضروب الخديعة التي يستمر في ممارستها ستكون خافيةً عليهم.

إفهم: إن كل واحد يتلفع في قوقعته النرجسية الخاصة. فعندما

لورنزو دي ميديتشي يغوي البابا

ولم يُضِعْ لورنزو دي ميديتشي أي فرصة لزيادة الاحترام الذي راح البابا إنّوسنت يشعر به تجاهه، أو لكسب صداقة البابا، ومحبته إن أمكن. وكلف نفسه عناء اكتشاف أذواق البابا وأشبعها له بالطريقة المناسبة. فأخذ يرسل إليه . . . براميل من شرابه المفضل. . . وأرسل إليه رسائل مهذبة ومتملقة، يؤكد له فيها (عندما كان البابا مريضاً)، أنه يشعر بآلامه وكأنها آلامه هو، ويشجعه بعبارات مقوّية من مثل قوله: «إن البابا هو ما يريد أن يكون»، وكان يضمّن تلك الرسائل آراءه في المسار اللائق للسياسات البابوية، وكأنما يسوق تلك الآراء بشكل عفوي عابر. وكان البابا راضياً بمجاملات لورنزو، ومقتنعاً بحججه. . . بل إنه راح يشاطره آراءه، وبشكل كامل، إلى درجة أن سفير فيرارا الساخط عبّر عن ذلك بقوله: «إن البابا ينام بعيني لورنزو الرائع».

آل ميديتشي: صعودهم وسقوطهم
كريستوفر هيبرت، 1980

تحاول أن تفرض ذاتك الأنانية عليهم، تزداد مقاومتهم. أما عندما تعكس صورهم في المرايا، فإنك تغويهم بنوع من الجذل النرجسي: إذ إنهم يحدّقون في توأم لروحهم نفسها. وهذا التوأم تصنّعه أنت بكامله، وما أن تستخدم المرآة لإغوائهم، حتى تصبح لك سلطةٌ كبرى عليهم.

غير أن من الجدير بالملاحظة، أن هناك أخطاراً في استخدام المرايا بطريقة مختلطة مشوشة بلا تمييز. ففي حضرة آلسيبياديس، كان الناس يشعرون بأنهم كبروا، وكأن حجم ذواتهم قد تضاعف، ولكن ما أن يغادرهم حتى يشعروا بالفراغ والنقص. وعندما كانوا يرونه يعكس صور أناس مختلفين عنهم تماماً، وبالطريقة الكلية التي كان يعكس فيها صورهم هم، فإن شعورهم لم يكن يقتصر على النقص والتضاؤل، بل كانوا يشعرون أنه يخونهم أيضاً. وقد أدى استعماله المفرط لتأثير المرآة إلى جعل شعوب بكاملها تشعر بأنها قد استُغِلَّت، بحيث أنه اضطر إلى مواصلة الهرب من مكان إلى آخر. والحقيقة أن آلسيبياديس قد أغضب الإسبارطيين إلى درجة أنهم دبروا اغتياله. فقد تجاوز الحدود. وإذن فإن مرآة المغوي ينبغي استخدامها بحذر وتمييز.

الحالة الثالثة

في سنة 1652، قامت البارونة مانسيني، الحديثة الترمُّل، بنقل عائلتها من روما إلى باريس، حيث كان بوسعها أن تعتمد على نفوذ شقيقها الكردينال مازاران، رئيس وزراء فرنسا، وحمايته. ومن بين بنات البارونة الخمس، دوّخت أربعٌ البلاطَ بجمالهن، وروحهن المعنوية العالية. فأصبحت بنات أخت الكردينال مازاران الفاتنات سيئات الصيت يُعْرَفْنَ باسم المازارانيّات. وسرعان ما رُحْنَ يجدن أنفسهن مدعوات إلى معظم الفعاليات الهامة في البلاط.

ولم تشترك البنت الخامسة، ماري مانسيني، في هذا الحظ السعيد، إذْ كان ينقصها جمال شقيقاتها ورشاقتهن فبدأن يكرهنها، كما

كان لدى فتغنشتاين موهبة خارقة في حَدْس أفكار الشخص المشترك معه في مناقشة. فبينما كان الآخر يكافح لوضع أفكاره في كلمات، كان فِتْغِنْشْتاين يفهِّم تلك الأفكار ويصوغها له في عبارات. وإنني لمتأكد بأن هذه القدرة، التي كانت تبدو غريبة أحياناً، صارت ممكنة بفضل أبحاثه المطولة والمستمرة.

لودفيغ فتغنشتاين: ذكرى: نورمان مالكولم، 1958

كرهتها الأم، وخالها الكردينال مازاران في آخر الأمر. فقد شعروا بأنها تفسد صورة العائلة. فحاولوا إقناعها بدخول دير، حيث تكون أقل إحراجاً لهم. ولكنها رفضت. وعكفت بدلاً من ذلك على دراساتها. فتعلمت اللاتينية، واليونانية، وأتقنت لغتها الفرنسية، وشرعت تدرّب مهاراتها الموسيقية. وفي المناسبات النادرة التي كانت أُسرتها تسمح لها فيها بحضور فعاليات البلاط، دربت نفسها على أن تكون متقنةً لفن الاستماع، فكانت تزن الناس وتسبر أغوارهم بحثاً عن نقاط ضعفهم، ورغباتهم الخفيّة. وعندما التقت آخر الأمر بملك المستقبل، لويس الرابع عشر، في سنة 1657 (عندما كان لويس في السابعة عشرة، وماري في الثامنة عشرة) قررت أنها ستجد طريقة لجعل هذا الشاب يقع في غرامها، لكي تغيظ أُسرتها وخالها.

كانت تلك مهمة تبدو مستحيلة لمثل هذه الفتاة العادية المظهر. فقامت ماري بدراسة ملك المستقبل دراسة وثيقة عن كثب. فلاحظت أن عبث شقيقاتها لم يكن يروق له. وشعرت بأنه يمقت التآمر وأحابيل المكر الرخيص الشائعة من حوله. ورأت أن له طبيعة خيالية حالمة ـ فقد كان يقرأ قصص المغامرات، ويصرّ على السير على رأس جيوشه، ولديه مُثُلٌ عُليا وحب حماسيّ للمجد. ولم يكن البلاط يغذي خيالاته تلك، بل كان عالماً مبتذلاً من السفاسف السطحية التي تشعره بالسأم.

ورأت ماري أن المفتاح إلى قلب لويس هو إقامة مرآة تعكس خيالاته وتشوق شبابه إلى المجد والمغامرة. وفي البداية غمست نفسها في القصص الرومانسية الحالمة، والأشعار والمسرحيات التي كانت تعرف أن الملك الشاب منهمك في قراءتها بنهم. فعندما كان لويس يشركها في محادثته، كانت ـ لفرحته وطربه ـ تتحدث عن أشياء تثير روحه ـ وليس عن هذا الزيّ وتلك الشائعة من القيل والقال، بل عن الحب العذري المتسامي، وأعمال الفرسان العظام، ونبل الملوك

يجب أن يكون الطبيب مُغْيماً غير شفاف أمام مرضاه، وأن لا يعرض عليهم أكثر مما يبدو أمامهم لو نظروا في مرآة.

سيغموند فرويد، 1856 ـ 1939

والأبطال الغابرين. وهكذا راحت تغذي تعطشه للمجد بخلق صورة للملك الرزين الوقور المتفوق الذي باستطاعته أن يتطلع لِيَكُونَهُ. فحركت خياله.

وعندما راح ملك الشمس المستقبل يفضي في حضرة ماري وقتاً أطول فأطول، اتضح في آخر الأمر أنه قد وقع في غرامها، رغم أنها كانت أقل النساء احتمالاً لحدوث ذلك في البلاط كله. ولذعر أم ماري وشقيقاتها، راح لويس يمطرها باهتمامه. فأخذ يصطحبها في حملاته. ويتعمد إظهارها في مواقع تستطيع منها أن تتفرج عليه وهو زاحف إلى المعركة. بل إنه وعدها بالزواج منها وجعلها ملكة.

غير أن مازاران لم يكن ليسمح للملك بالزواج من ابنة أخته، لأنها امرأة لا تستطيع أن تأتي لفرنسا بتحالفات دبلوماسية أو ملكية. بل كان على لويس أن يتزوج أميرة من إسبانيا أو النمسا. وفي سنة 1658، خضع لويس للضغوط، ووافق على فسخ أول ارتباط عاطفي رومانسي في حياته. وفعل ذلك بكثير من الأسف. ولقد اعترف في آخر عمره أنه لم يحب أحداً كما أحب ماري مانسيني.

التفسير

أتقنت ماري مانسيني لعبة الإغواء إتقاناً كاملاً، فأولاً: خطت خطوة إلى الوراء لتدرس فريستها. وكثيراً ما يفشل الإغواء في أن يتخطّى إلى ما بعد الخطوة الأولى عندما يكون هجومياً وعدوانياً أكثر من اللازم. فينبغي أن تكون الخطوة الأولى على الدوام تراجعاً. فمن خلال دراسة الملك من على مبعدة، رأت ماري ما يميزه عن الآخرين ـ قيمه العليا، طبيعته الخيالية الحالمة. واحتقاره المتعجرف للمكائد التافهة. وكانت خطوة ماري التالية عمل مرآة تنعكس فيها أشواق لويس الخفية، تتيح له لمحات مما يمكن أن يكونه. كملك شبيه بالآلهة!

وكانت لهذه المرآة مهام عديدة، فهي ترضي غرور لويس الذاتي

بإعطائه توأماً ينظر إليه. كما أنها تركز عليه بشكل حصري يعطيه شعوراً بأن ماري مانسيني موجودة له وحده. فقد كان محاطاً بزمرة من رجال الحاشية المتآمرين الذين ليس في قلوبهم سوى مصلحتهم الأنانية. فلم يستطع الخلاص من تأثير هذا التركيز المخلص. وأخيراً فإن مرآة ماري أقامت له مثالاً يسعى ليصل إلى مستواه. وهو الفارس النبيل في بلاط العصور الوسطى. وبالنسبة إلى روح عاطفية خيالية وطموحة، لم يكن هناك شيء مسكر أكثر من وجود شخص يحمل له انعكاساً لصورةٍ له مثالية. والواقع أن ماري مانسيني كانت هي التي اصطنعت صورة الملك الشمس ـ وبالفعل، فقد اعترف لويس، فيما بعد، بالدور الهائل الذي لعبته ماري في صياغة صورته المشعة عن نفسه. وهذه هي قوة مرآة المغوي: بمضاعفة أذواق الهدف ومثالياته، فإنك تظهر له (أولها) اهتمامك بنفسيته، وهو اهتمام أكثر جاذبية من أية متابعة هجوميّة أو عدوانية. اعثر على ما يميز الشخص الآخر ويفصله عن بقية الناس، ثم ارفع له المرآة التي تعكس هذا الشيء وتستخرجه منه. قم بتغذية خيالاتهم عن السلطة والعظمة، بإظهار مثالياتهم منعكسة على المرآة، وسوف يخضعون.

الحالة الرابعة

في سنة 1538، توفيت هيلينا وتركت ابنها إيڤان يتيماً في الثامنة من عمره، وهو الذي صار فيما بعد قيصر روسيا تحت اسم إيڤان الرابع (أو إيڤان الرهيب). وطيلة السنوات الخمس التالية كان يتفرج على طبقة الأمراء (المعروفين باسم البويار) وهي تسلط إرهابها على البلد. ولكي يسخروا من إيڤان الصغير، كانوا يجعلونه بين حين وآخر يرتدي تاجاً ويحمل صولجاناً، ويضعونه على العرش. وعندما تتدلى قدما الولد الصغير فوق حافة الكرسي، كانوا يضحكون ويرفعونه عنه، ثم يرمونه في الهواء من رَجُلٍ إلى آخر، ليجعلوه يشعر بأنه لا حول له بالمقارنة معهم.

وعندما بلغ إيڤان الثالثة عشرة من عمره، اغتال قائدَ البويار بجرأة،

واعتلى العرش. وعلى مدى العقود القليلة التالية كافح إيڤان لإخضاع سلطة البويار، ولكنهم استمروا يَتَحَدَّوْنَهُ. وبحلول سنة 1575، كانت جهوده لتحويل روسيا ودحر أعدائها قد أنهكته. وفي تلك الأثناء كان رعاياه يتذمّرون من حروبه التي لا تنتهي، ومن شرطته السرية، ومن البويار الظّلَمَة غير المدحورين. وبدأ وزراؤه أنفسهم يتساءلون عن تحركاته، وأخيراً قرر أنه قد تحمّل ما فيه الكفاية. وفي سنة 1564، هَجَرَ عرشه مؤقتاً، فأرغم رعاياه على استدعائه ليعود إلى السلطة. وعندئذ خطا باستراتيجيته خطوة أبعد، فتنازل عن العرش.

وكان إيڤان قد رفَّع سيميون بيكبولاتوفيتش، أحد جنرالاته، ليحل محله على العرش. وعلى الرغم من كون سيميون قد اعتنق المسيحية قبل ذلك بوقت قصير، فقد كان بالولادة تتريّاً، وكان وضعه على العرش إهانة لرعايا إيڤان؛ إذ أن الروس كانوا يحتقرون التتر، ويعتبرونهم ناقصين وكفّاراً. ومع ذلك أمر إيڤان أن يتعهد الروس جميعاً، بما فيهم البويار، بالولاء لحاكمهم الجديد. وبينما انتقل سيميون إلى الكرملين، راح إيڤان يعيش في بيت متواضع في ضواحي موسكو، وكان يذهب منه أحياناً لزيارة القصر، وينحني أمام العرش، ويجلس بين البويار الآخرين، ويقدم لسيميون طلباتٍ بأن يسدي له صنيعاً.

وبمرور الزمن اتضح أن سيميون كان نوعاً من توأم للملك. فكان يلبس كما يلبس إيڤان، ويتصرف كما يفعل إيڤان، ولكن لم تكن له سلطة حقيقية، إذ لم يكن يطيعه أحد فعلياً. ورأى هذه الصلةَ البويارُ من كبار السن الذين تذكروا ما كانوا يفعلونه بإيڤان وهو طفل بوضعه على العرش. كانوا يجعلونه يشعر كأنه مُدَّعٍ ضعيف. وهكذا راح يعكس لهم أعمالهم تلك في المرآة بوضع مُدَّعٍ ضعيف من تدبيره هو على العرش.

وعلى مدى عامين طويلين ظل إيڤان ممسكاً بمرآة سيميون أمام الشعب الروسي. فكانت تلك المرآة تقول لهم: إن نحيبكم وعصيانكم قد جعلاني قيصراً بلا سلطة فعليّة، وهكذا سأعكس لكم صورة قيصر بلا

سلطة حقيقية. ولقد عاملتموني بلا احترام، ولذا فسأفعل بكم الشيء نفسه، جاعلاً روسيا موضع ضحك العالم. وفي سنة 1577، وباسم الشعب الروسي، ذهب البويار المضروبون المعاقَبون إلى إيڤان مرة أخرى متوسلين إليه أن يعود إلى العرش، ففعل. وعاش كقيصر حتى وفاته سنة 1584، فاختفت المؤامرات، والشكاوى، والتساؤلات المحيِّرة، ومعها سيميون.

التفسير

في سنة 1564، بعد التهديد بالتنازل عن العرش، مُنِحَ إيڤان سلطات مطلقة. ولكن تلك السلطات راحت تتآكل بينما أخذ كل قطاع ينافسه عليها سعياً وراء مزيد من السيطرة ـ وقد شمل ذلك البويار، والكنيسة، والحكومة. وكانت الحروب الخارجية قد أنهكت البلد. وتزايدت المشاحنات الداخلية. وقوبلت محاولات إيڤان للردّ على ذلك بالسخرية. وتحولت روسيا إلى ما يشبه طلبة صفٍّ صاخب، يضحك فيه التلاميذ على المدرس علناً. فإذا رفع صوته أو تذمر، لم يلقَ سوى المزيد من المقاومة. فتعيّن عليه أن يلقنهم درساً، وأن يعطيهم جرعة من دوائهم نفسه ليذيقهم طعم مثل تلك المعاملة. وكان سيميون بكيبولاتو فيتش هو المرآة التي استخدمها ليفعل ذلك.

وبعد عامين ظل فيهما التاجُ موضعَ التهكم والاشمئزاز، تعلم الشعبُ الروسيُّ درسَه. فأراد الناسُ عودةَ قيصرهم، وأقرّوا له بالتبجيل والاحترام اللَّذين كان يجب أن يتمتع بهما المنصب على الدوام. وطيلة ما تبقى من عهده انسجمت روسيا مع إيڤان بشكل متناغم.

إفهم: الناسُ منغلقون في تجاربهم الذاتية. فعندما تنتحب حول انعدام أحاسيسهم فربما يُظْهِرون لك أنهم يتفهمون، ولكنهم من الداخل لا يتأثرون، بل ويصبحون أكثر مقاومة. وهدف السلطة دائماً هو تقليل مقاومة الناس لك. ولذلك فأنت محتاج إلى أحابيل، وإحدى هذه الأحابيل هي تلقينهم درساً.

وإذن، فبدلاً من تقريع الناس بالخطب الشفهية، اخلق نوعاً من المرايا يعكس لهم صورة سلوكهم. وفي عملك هذا اتركهم أمام خيارين: فإمّا أن يتجاهلوك، وإما أن يبدأوا بالتفكير في أنفسهم، وحتى إذا تجاهلوك، فإنك ستكون قد غرست بذرةً في لا شعورهم ستمدّ لها جذراً في آخر الأمر. وعندما تعكس لهم سلوكهم في المرآة، لا تَخْشَ من إضافة لمسة كاريكاتورية ساخرة، وشيء من المبالغة، كما فعل إيڤان بوضِع تتريٌّ على العرش ..ذلك أن كمية التوابل القليلة في الحساء هي التي ستفتح عيونهم وتجعلهم يرون السخافة في تصرفاتهم ذاتها.

الحالة الخامسة

كان الدكتور ملتن هـ. إيريكسون، أَحَدُ رُوَّادِ عِلْم النفس الاستراتيجي، كثيراً ما يثقف مرضاه بقوة ولكن بطريقة غير مباشرة بخلق نوع من تأثير المرايا. فكان يتجاوز مقاومة مرضاه للتغيير عن طريقة إقامة تناظر يجعل مرضاه يرون الحقيقة من تلقاء أنفسهم بالقياس التمثيلي. وعلى سبيل المثال فعندما كان يعالج زوجاً وزوجة يشكوان من مشاكل جنسية، كثيراً ما كان يجد أن أسلوب العلاج النفسي التقليدي بالمواجهة والحديث المباشر عن المشاكل إنما يزيد مقاومة الزوجين ويجعل خلافاتهما أكثر حدّة. وبدلاً من ذلك كان يستدرجهما للحديث عن مواضيع أخرى، كثيراً ما تكون عادية ومبتذلة، محاولاً العثور على نظير للصراع الجنسي.

وفي الجلسة الأولى لمعالجة زوجين، كان الزوجان يناقشان عاداتهما على الطعام، ولا سيما عند العَشَاء. فكانت الزوجة تفضل النهج البطيء ـ كتناول شراب قبل الوجبة، ثم بعض المقبّلات، فوجبة رئيسية صغيرة، وكل ذلك بطريقة بطيئة ومتحضرة. وكان ذلك يشعر الزوج بالإحباط، إذ أنه كان يريد الانتهاء من عشائه بسرعة، ويبدأ الغوص في الوجبة الرئيسية فوراً، وكلما كانت أكبر كان ذلك أفضل. وبينما استمر الحديث عن هذا الموضوع، بدأ الزوجان يجدان فيه نظيراً لمشاكلهما في

الفراش. غير أن الدكتور إيريكسون كان يغير الموضوع في اللحظة التي يربط فيها الزوجان بين الحالتين، وبذلك يتجنب مناقشة المشكلة.

واعتقد الزوجان أن إيريكسون قد ابتدأ يتعرف عليهما، وأنه سيتناول المشكلة في الجلسة التالية. ولكن في نهاية الجلسة الأولى وجههما الدكتور جونسون إلى ترتيب عشاء بعد بضع ليال يجمعان فيه بين رغبات كل منهما. فتحصل الزوجة على وجبتها البطيئة، بما في ذلك الوقت المصروف في عملية الربط بين مراحل العشاء المختلفة، ويحصل الزوج على الأطباق الكبيرة التي يريد أكلها. وبدون أن يدركا أنهما يتصرفان تحت التوجيه اللطيف للطبيب، كان الزوجان يدخلان إلى مرآة تعكس مشكلتهما. وفي المرآة يحلاّن مشاكلهما بنفسيهما، فتنتهي الأمسية كما كان الطبيب يتمنى ـ بأن يعكسا في الفراش آليةَ الحركة المتحسّنة للعشاء.

وفي معالجة المشاكل الأقسى، كالمرآة الخيالية التي يخلقها لنفسه المريضُ المصابُ بانفصام الشخصية، كان الدكتور إيريكسون يحاول دائماً أن يخطو إلى داخل المرآة ليعمل ضمنها. فقد عالج مرةً نزيل مستشفىً كان يظن نفسه عيسى المسيح ـ فيغطي جسده بقطع القماش، ويتحدث بقصص وأمثال غامضة، ويلقي على الموظفين والمرضى مواعظ مسيحية لا تنتهي. وبدا أنه لم تنجح في شفائه أية معالجات أو أدوية. حتى اتجه الدكتور إيريكسون إليه ذات يوم وقال له: «لقد فهمت أنه كان لك تجربة كنجّار». وبما أن المريض كان يعتقد أنه المسيح، فقد كان عليه أن يقول إنه كانت له مثل تلك التجربة. وعندئذٍ أسرع الدكتور إيريكسون إلى تشغيله بعمل خزائن كتب ومواد مفيدة أخرى وسمح له بارتداء ثوبه الذي يشبه ثوب المسيح. وعلى مدى الأسابيع التالية، وبينما راح المريض يشتغل بهذه المشاريع، صار ذهنه أقل انشغالاً بخيالاته عن المسيح، وأكثر تركيزاً على عمله. ومع إعطاء الأولوية لعمل النجارة، حدث تحول نفسي في داخله. فقد بقيت خيالاته الدينية، ولكنها

تراجعت إلى الخلف، مما سمح للرجل بالعمل في مجتمعه.

التفسير

يعتمد التواصل على الاستعارات والمجازات اللغوية والرموز التي هي أساس اللغة نفسها. فالاستعارة نوع من المرايا العاكسة لما هو مادي وحقيقي، وكثيراً ما تعبر بوضوح وعمق يفتقر إليهما الوصف الحَرْفي. وعندما تتعامل مع إرادة القوة التي يصعب التنبؤ بها ومتابعتها لدى الآخرين، فإن الاتصال المباشر معهم كثيراً ما ينجم عنه زيادة مقاومتهم، ليس إلاَّ.

ويحدث هذا بأوضح طريقة عندما تشكو من سلوك الناس، ولا سيما في مجالات حساسة كتصرفاتهم الجنسية. ولذلك فإنك تحدث تغييراً أدوم وأبقى بكثير إذا أقمت نظيراً، كما فعل الدكتور إيريكسون، ومرآة رمزية تعكس الوضع أو الحالة، ووجهت الآخرين من خلالها. وكما فهم المسيح نفسه، فإن التحدث بالأمثال كثيراً ما يكون أفضل طريقة لإعطاء درس، لأن ذلك يتيح للناس أن يدركوا الحقيقة من تلقاء أنفسهم.

وعند التعامل مع أُناس ضائعين في خليط من انعكاسات عوالم خيالهم (بما في ذلك كثير من الناس غير النازلين في مشافي الأمراض العقلية)، إياك أن تحاول دفعهم إلى الحقيقة بتحطيم مراياهم. وبدلاً من ذلك أدخل إلى عالمهم واعمل من داخله، وبمراعاة قواعدهم، وثم بتوجيههم بلطف إلى خارج قاعة المرايا التي دخلوها.

الحالة السادسة

كان أستاذ حفلة الشاي الياباني العظيم كاكينو شو في القرن السادس عشر، عابراً أمام بيت ذات مرة، فلاحظ شاباً يروي زهوراً قرب البوابة الأمامية. فلفت شيئان نظر شو، أولهما الطريقة الرشيقة التي كان الشاب يؤدي بها مهمته، وثانيهما الورود الربيعية المذهلة الجمال التي

تفتحت براعمها في الحديقة. فتوقف وقدم نفسه للشاب، الذي كان اسمه صُنْ نو ريكيو. وأراد شو أن يبقى، غير أنه كان مضطراً للإسراع في الذهاب نظراً لأنه كان لديه ارتباط مسبق. ولكنه قبل المغادرة تلقى دعوة من ريكيو لتناول الشاي معه في صباح اليوم التالي، فقبل شو هذه الدعوة بسعادة.

وعندما فتح شو، بوابة الحديقة في اليوم التالي، ذعر عندما رأى أنه لم تبق فيها وردة حمراء واحدة. كان يريد في مجيئه أكثر من أي شيء، أن يرى أزرار الوردة السارونية التي لم يتح له في الأمس أن يتملّى جمالها ويقدرها. وهكذا شعر بخيبة أمل وشرع في المغادرة. ولكنه أوقف نفسه عند البوابة، وقرر أن يدخل إلى غرفة الشاي التابعة لصُنْ نو ريكيو. وفور دخوله توقفت خطواته وراح يحدّق مذهولاً. فأمامه تدلّت من السقف مزهرية فيها زهرة سارونيّة وحيدة، هي الأجمل في الحديقة. وبطريقةٍ مّا، قرأ صن نو ريكيو أفكار ضيفه، وبهذه الإشارة البليغة، أظهر له أن الضيف والمضيف سيكونان في انسجام كامل.

وقد قيض لصُنْ نو ريكيو أن يستمر ليصبح واحداً من أشهر أساتذة حفلة الشاي جميعاً. وكانت علامته المسجلة هي قدرته الخارقة على جعل نفسه ينسجم تماماً مع أفكار ضيوفه، وأن يفكر سلفاً متقدماً بخطوة مسبقة، فيسحرهم بالتكيف لأذواقهم.

وذات يوم تلقى ريكيو دعوة لتناول الشاي من ياماشينا هيتشيغوان، أحد المعجبين بحفلة الشاي، ولكن كان لديه أيضاً حسّ دعابة واضح. وعندما وصل ريكيو إلى منزل هيتشيغوان، وجد بوابة الحديقة مغلقة. ففتحها ليبحث عن مضيفه. فرأى في الجانب الآخر من البوابة أن شخصاً مّا قد حفر حفرةً أولاً، ثم غطاها بقماش القنّب والطين. وأدرك أن هيتشيغوان قد خطط لنكتة عملية. فقرر إرضاءه وأوقع نفسه في الحفرة عمداً ولطّخ ثيابه بالطين.

وهرع إليه هيتشيغوان راكضاً وهو يتظاهر بالهلع، وأسرع به إلى

الحمام، الذي كان ـ لسبب غير واضح ـ مهيّأً تماماً وسلفاً. وبعد الاستحمام، انضم ريكيو إلى هيتشيغوان في حفلة الشاي، التي استمتعا بها كثيراً، وضحكا معاً على حادث الحفرة. وفيما بعد، أوضح صُنْ نو ريكيو لصديق له، أنه كان قد سمع مسبقاً عن مقالب هيتشيغوان: «ولكن بما أن المرء يجب أن يهدف دوماً إلى إرضاء رغبات مضيفه، فقد أوقعت نفسي في الحفرة بمعرفتي، وبذلك ضمنتُ نجاح الاجتماع. فليست حفلة الشاي تملقاً محضاً، بأي حال من الأحوال. ولكن ليس هناك حفلة شاي بدون أن يكون المضيف والضيف في حالة انسجام معاً». ذلك أن رؤية هيتشيغوان لصُنْ نو ريكيو الوقور في قاع حفرة، قد سرَّته سروراً لا نهاية له.. ولكن ريكيو أيضاً حصل على السرور بتلبية رغبة مضيفه والتفرج عليه وهو يسلّي نفسه بهذه الطريقة.

التفسير

لم يكن صُنْ نو ريكيو ساحراً ولا عرّافاً ـ بل كان يراقب مَنْ حوله بدقة، فيسبر غور الإشارات الخفية التي تكشف رغبة دفينة، ثم ينتج صورة لتلك الرغبة، ورغم أن شو لم ينطق بكلمة عن وقوعه تحت سحر براعم الزهرة السارونية، فإن ريكيو قد قرأ ذلك في عينيه. وإذا كان انعكاس رغبة شخصٍ مّا في المرآة يعني الوقوع في حفرة، فليكن. فقد كانت سلطة ريكيو مستقرةً في استخدامه البارع لمرآة رجل الحاشية، الذي أضفى عليه قدرة غير عادية على رؤية ما في داخل الناس الآخرين.

تعلَّم التلاعب بمرآة رجل الحاشية، لأنها ستأتيك بسلطة عظيمة. ادرس أعين الناس وتتبع إشاراتهم ـ فهي مقياس للألم واللذة موثوق وأدق من أية كلمة منطوقة. لاحظ التفاصيل وتذكرها. الملابس، واختيار الأصدقاء، والعادات اليومية، والملاحظات العابرة الملقاة في غير اهتمام ـ التي تكشف عن رغبات خفية، نادراً ما تكون مُلَبَّاةً. وبعد أن تمتص هذا كله، اكتشفْ ما الذي يكمن تحت السطح، ثم اصنع بنفسك للناس مرآة ذواتهم التي لا يتكلمون عنها. فذلك هو مفتاح هذه السلطة: ذلك

أن الشخص الآخر لم يطلب منك أن تنظر في وضعه، ولم يذكر لك سروره بالوردة السارونية، وعندما تعيد صورتها منعكسةً إليه، فسوف تزيد سروره، لأنه لم يطلب منك شيئاً. وتذكّر: إن الاتصال الصامت بلا كلمات، والمديح غير المباشر، يحتويان على أكبر قدر من السلطة. فلا أحد يستطيع أن يقاوم سحر مرآة رجل الحاشية.

الحالة السابعة

كان يالوكيد ويل، فنان الاحتيال الخارق للعادة، يستخدم مرآة المخادع في أكثر أحابيله ألمعيّة. وكان أوقحها إعادة خلقه لمصرف في مونسي، بولاية إنديانا. فعندما قرأ ذات يوم أن المصرف التجاري في مونسي قد انتقل، رأى في ذلك فرصة لم يسعه أن يدعها تمرّ.

وهكذا استأجر ويل البناية الأصلية للمصرف التجاري، وهي ما تزال تحتوي على أثاث المصرف، بما فيها كُوَىٰ الصرف. واشترى حقائب نقود، ونسخ عليها اسماً مخترعاً لمصرف، وملأها بقطع دائرية من الفولاذ، وصفّفها بشكل يترك انطباعاً بالإعجاب وراء كوى الصرف، وإلى جانبها رزم من النقود ـ أوراق نقدية حقيقية تغطي قصاصات صحف مقطوعة بالحجم الصحيح. ولتمثيل دور موظفي «المصرف» وزبائنه، استأجر ويل أعداداً من المقامرين، ووكلاء المراهنات، وفتيات من ماخور محلي، وتشكيلة منوعة من الشركاء الآخرين، بل لقد استأجر أيضاً سفاحاً محلياً ليقف في «المصرف» ممثلاً دور الشرطي السري.

وانتحل ويل شخصية وكيل لترويج شهادة استثمار يعرضها «المصرف»، وبذلك راح يفتش في المياه لاصطياد الغنيّ المغفل المناسِب، ثم يأتي بذلك الرجل إلى «المصرف» ويطلب رؤية الرئيس. فيأتي «موظف» في المصرف ليقول لهما إن عليهما الانتظار، فكان ذلك يزيد في واقعية الحيلة. إذْ إن المرء يتعين عليه دائماً أن ينتظر قبل أن يستطيع رؤية الرئيس. وأثناء انتظارهما كان «المصرف» يضج بالنشاط

الشبيه بنشاط المصارف، بينما كانت المومسات ووكلاء المراهنات يدخلون ويخرجون، يودعون الأموال ويسحبونها ويشيرون إلى قبعاتهم لتحية الشرطي السري المزيف. فكان المغفل يستنيم إلى هذه النسخة الكاملة للحقيقة، ويودع في المصرف المزور خمسين ألف دولار دون أي شعور بالقلق على الإطلاق.

وعلى مدى سنوات، فعل ويل الشيء نفسه بنادٍ مهجور لليخوت وبمكتب مراهنات متروك، وبمكتبٍ عقاريٍّ منقول إلى مكان آخر، وبصورة واقعية تماماً لنادٍ للقمار والمراهنات.

التفسير

إن عكس الحقيقة في مرآة يقدم قوىً خدّاعة هائلة. فاستخدام الزي الصحيح، واللهجة الكاملة، والدعائم الملائمة الكافية يجعل من غير الممكن فك رموز شيفرة الخداع لأنها متشابكة مع تشبيه متقن للحقيقة. فالناس لديهم رغبة شديدة في الإيمان وحاجة إليه. وتوجههم غريزتهم الأوليَّة إلى الثقة بواجهة جيدة التركيب، وإلى اعتبارها هي الحقيقة حتى ولو كانوا مخطئين. فبعد كل شيء، لا نستطيع أن نستمر في التشكك في حقيقة كل ما نراه ـ فذلك شيء مفرط الإنهاك. ولذا فنحن في العادة نقبل المظاهر. وهذه قابلية للتصديق تستطيع استغلالها.

وفي هذه اللعبة بالذات، فإن النظرة الأولى هي الأهمّ. فإذا لم تثر شكوك مغفّليك من نظرتهم الأولى إلى ما هو منعكس في المرآة، فستبقى تلك الشكوك مكبوتة. وما أن يدخلوا إلى قاعة مراياك حتى يعجزوا عن التمييز بين الحقيقي والمزيف، وعندئذٍ يصبح خداعهم أسهل فأسهل.

تذكّر: ادرس مظاهر العالم السطحية، وتعلّم أن تعكسها في مرآة عاداتك، وأساليب سلوكك، وملابسك. ومثل النبتة اللاّحمة بالنسبة للحشرات التي لا تشك فيك، سوف تبدو مثل جميع النباتات الأخرى في الحقل.

الشاهد: إن مهمة عملية عسكريةٍ مّا، هي التناسب بشكل خادع مع ترايد العدو... فعليك أن تصل إلى ما يريدون قبل وصولهم إليه. فحافظ على الضبط وتكيّف للعدو... وهكذا فإنك تبدو أولاً كالفتاة البكر، وبذلك يفتح لك العدوّ بابه، فإذا أنت كأرنب منفلت، بحيث لا يستطيع العدو إبقاءك خارجاً. (صُنْ ـ تُزُو، القرن الرابع قبل الميلاد).

صورة: درع بيريسوس. يلمع
حتى يصبح كالمرآة العاكسة. فلا تستطيع
الميدوسا أن تراك، إذ لا تنعكس أمامها من المرآة
سوى بشاعتها. وخلف مثل تلك المرآة، يمكنك أن تخدع،
وتسخر، وتثير الحنق. ثم بضربة واحدة تفصل
رأس الميدوسا التي لا تشكّ بك.

تحذير: إياك والأوضاع المنعكسة في المرايا.

تحتوي المرايا على سلطة كبيرة، ولكن فيها أيضاً جروفاً خطرة، بما فيها الوضع المنعكس في المرآة ـ وهو وضع يبدو أنه يعكس وضعاً سابقاً أو يشبهه شبهاً وثيقاً قريباً، وأكبر الشبه في الأسلوب والمظهر السطحي الخارجي. فكثيراً ما تتراجع إلى مثل هذا الموقف، دون أن تفهمه تماماً، بينما الذين حولك يفهمونه بشكل جيد جداً، ويقارنونه وإياك بأي شيء يكون قد حدث من قبل، فتخسر في المقارنة في غالب الأحيان، إذْ تبدو أضعف من الذي كان يحتل منصبك من قبل، أو تتلوث بأي ارتباطات وتداعيات كريهة، خَلَّفها ذلك الشخص وراءه.

ففي سنة 1864، انتقل المؤلف الموسيقي ريتشارد فاغنر، إلى ميونيخ بتحريض من لودفيغ الثاني، الذي كان يُعْرَف أيضاً بلقب الملك البجعة، أو الملك المجنون لبافارية. فقد كان لودفيغ هو أكبر المعجبين

بفاغنر، وأكبر رعاته. بل إن قوة دعمه قد أدارت رأس فاغنر، الذي اعتقد أنه ما أَنْ يستقر في ميونيخ تحت حماية لودفيغ، حتى يصبح قادراً على أن يقول ويفعل ما يشاء.

وهكذا انتقل فاغنر إلى بيت فخم باذخ اشتراه الملك له في آخر الأمر. وكان ذلك البيت على مرمى حجر من البيت الذي كانت تسكنه لولا مونتيزْ، الغانية سيئة الصيت، التي كانت قد ورّطت جدّ لودفيغ الثاني في أزمة أرغمته على التنازل عن عرشه. وقد حُذِّر فاغنر من أن هذا الارتباط قد يعديه، فلم يكن ردّه سوى السخرية، وقال: «أنا لست لولا مونتيز». غير أن مواطني ميونيخ سرعان ما بدأوا يسخطون على ضروب الحظوة والأموال التي أغدقت على فاغنر، فلقبوه «لولا الثانية»، أو «لولوت». وبدأ ـ دون وعي منه ـ يقتفي خطوات لولا مونتيز ـ فينفق الأموال بإسراف، ويتدخل في قضايا خارج نطاق الموسيقى، بل يشتغل في السياسة، ويقدم النصائح للملك حول تعيين الوزراء. وفي تلك الأثناء كانت عاطفة لودفيغ تجاه فاغنر تبدو شديدة، ولا تليق بوقار ملك ـ تماماً كعشق جده للولا مونتيز. وفي آخر الأمر، كتب وزراء لودفيغ رسالة له: «إن جلالتكم تقفون الآن على مفترق طرق مصيري، ويتعين عليكم أن تختاروا بين حبّ شعبكم المخلص واحترامه، وبين «صداقة ريتشارد فاغنر». وفي شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة 1865، طلب فاغنر من صديقه بأسلوب مهذب أن يغادر فلا يعود أبداً. فقد وضع فاغنر نفسه ـ عن غير قصد ـ في انعكاس صورة لولا مونتيز. وعندما صار هناك، أخذ كل شيء يعمله يذكّر البافاريين البلداء الأحاسيس بتلك المرأة الرهيبة، ولم يكن هناك شيء يسعه أن يفعله إزاء ذلك.

فتجنّب أثر مثل هذه التداعيات والارتباطات، كما تتجنب الطاعون، وفي وضع منعكس في المرآة، تكون سيطرتك قليلة أو معدومة على الانعكاسات والذكريات التي سترتبط بك. وأي وضع

خارج عن سيطرتك يكون خطراً. وحتى لو كان للشخص، أو الحدث ارتباطات إيجابية، فإنك ستعاني من العجز عن الارتفاع إلى مستواه، ما دام الماضي بصورة عامة يبدو أعظم من الحاضر. فإذا لاحظتَ أناساً يربطون بينك وبين حدثٍ ماضٍ أو شخصٍ معيّن، فافعل كل ما في استطاعتك لتفصل نفسك عن تلك الذكرى، ولتبدّد ذلك الانعكاس.

القانون

45

بشِّر بالحاجة إلى التغيير ولكن إياك أن تُصْلِحَ أكثر من اللازم دفعة واحدة

الحكم

كل شخص يفهم الحاجة إلى التغيير بصورة مجردة ولكن على مستوى الحياة اليومية، فإن الناس أبناء العادة. فالتجديد المفرط يخلق رضوضاً، ويؤدي إلى ثورة. فإن كنتَ جديداً على أي منصب ذي سلطة، أو خارجياً تحاول بناء قاعدة قوة، فأبرز على نحو استعراضي احترامَك للطريقة القديمة في عمل الأشياء. وإذا كان التغيير ضرورياً، فاجعل الناس يشعرون به كأنه تحسينٌ لطيف للماضي.

انتهاك القانون

في وقت مّا في أوائل العشرينات من القرن السادس عشر، قرَّرَ مَلِكُ إنكلترا هنري الثامن أن يُطَلِّقَ زوجته، كاترين أميرة آراغون، لأنه فشلت في أن تنجب له ولداً، ولأنه وقع في غرام الشابة الجميلة آن بولين. فاعترض على الطلاق البابا كليمنت السابع، وهدد الملكَ بالحرمان. وكان أقوى وزراء الملك، الكردينال وُولْزِي، يرى أيضاً أن لا حاجة إلى الطلاق ـ وقد كلفه تأييدُهُ نصفُ المتحمس للملك منصبَه، وبعد ذلك بقليل حياتَه.

وكان في حكومة هنري رجل يدعى توماس كرومويل، لم يكتفِ بتأييد هنري في رغبته في الطلاق، بل كانت لديه فكرة لتحقيقه؛ وهي الانفصال الكامل عن الماضي؛ فأقنع الملكَ بأنه بقطع علاقاته مع روما وجعل نفسه رئيساً للكنيسة الإنكليزية الحديثة التأسيس، سوف يتمكن من تطليق كاترين والزواج من آن. وبحلول سنة 1531، رأى هنري أن هذا هو الحل الوحيد. ولمكافأة كرومويل على فكرته البسيطة واللامعة، قام بترفيعه ـ رغم أنه ابن حداد ـ إلى منصب مستشار ملكي.

وبحلول سنة 1534، كان كرومويل قد سُمِّيَ أمين سر الملك. وباعتباره السلطةَ من وراء العرش فقد أصبح أقوى رجل في إنكلترا. ولكن الانفصال عن روما كان بالنسبة إليه يذهب إلى أبعد من إرضاءِ رغبات الملك الجسدية: فقد كان يرى نظاماً بروتستانتياً جديداً في

من اين جاء عيد الميلاد

إن الاحتفال بانتهاء السنة عادة قديمة. فقد كان الرومان يحتفلون بعيد زُحَل، إله الحصاد عندهم، بين السابع عشر والثالث والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر. وكان ذلك أكثر الاحتفالات مرحاً وعربدة في العام. فكانت كل الأعمال والتجارة تتوقف، بينما تمتلىء الشوارع بجموع الناس في جوّ كرنفالي. وكان العبيد يحرَّرون بشكل مؤقت، والبيوت تزيّن بأغصان الغار، والناس يتزاورون، حاملين هدايا من الشموع والتماثيل الطينية الصغيرة.

وقبل ميلاد المسيح بزمن طويل، كان اليهود يحتفلون بعيد يستمر ثمانية أيام، يسمى عيد التجديد أو عيد الأنوار [في الموسم نفسه]، ومن المعتقد أن الشعوب الجرمانية كانت تقيم احتفالاً عظيماً، ليس فقط في منتصف الصيف، بل كذلك عند الانقلاب الشتوي، عندما كانوا يحتفلون بولادة

إنكلترا، تُسْحَقُ فيه سلطة الكنيسة الكاثوليكية، وتقع فيه ثروتها الطائلة في أيدي الملك والحكومة. وفي العام نفسه، بدأ عملية مسح كامل للكنائس والأديرة في إنكلترا. فاتضح له أن الكنوز والأموال التي كدستها الكنائس عبر قرون متطاولة كانت أكبر بكثيرٍ مما تخيله، فقد عاد جواسيسه ووكلاؤه بأرقام مذهلة.

ولتبرير مخططاته، أخذ يشيع قصصاً عن الفساد في الأديرة الإنكليزية، وإساءة استعمال السلطة، واستغلالها للناس الذين كان يفترض فيها أن تخدمهم. وبعد أن فاز كرومويل بتأييد البرلمان لحلّ الأديرة، بدأ بالاستيلاء على ممتلكاتها وإزاحتها من الوجود واحداً بعد الآخر. وفي الوقت نفسه بدأ بفرض المذهب البروتستانتيّ، وإدخال إصلاحاتٍ على الطقوس الدينية، ومعاقبة الذين أصروا على التمسك بالمذهب الكاثوليكي، والذين راح يطلق عليهم لقب الهراطقة. وفي غضون عشية وضحاها، تحولت إنكلترا إلى دين رسمي جديد.

وخيم الإرهاب على البلد. وكان بعض الناس قد عانوا وتألموا في ظل الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت ذات سلطة هائلة قبل الإصلاح. ولكن معظم البريطانيين كانت لهم روابط قوية بالكاثوليكية وطقوسها المريحة. وأخذوا يتفرجون في رعب، بينما كانت الكنائس تهدم، وصور العذراء، وتماثيل القديسين، تُحَطَّم إلى قطع متناثرة، ونوافذ الزجاج الملون تتكسر، وكنوز الكنائس تُصادَر. وبذهاب تلك الأديرة التي كانت تؤوي الفقراء، تدفق هؤلاء إلى الشوارع كالطوفان. وتضخمت صفوف طبقة الشحاذين أكثر بالرهبان السابقين. وفوق هذا كله، فرض كرومويل، ضرائب مرتفعة تُدْفَعُ لتحقيق إصلاحاته الدينية.

وفي سنة 1535، هددت ثوراتٌ عنيفةٌ في شمال إنكلترا بإسقاط هنري عن عرشه. وبحلول السنة التالية كان قد قمع الثورات، غير أنه بدأ يرى أيضاً تكاليف إصلاحات كرومويل. فلم يكن الملك نفسه يريد الذهاب إلى هذا الحدّ. بل كان لا يريد إلاّ الطلاق. وعندئذ جاء دور

الشمس ثانيةً، ويكرمون آلهة الخصب العظيمة عندهم، رُوطَان وفريجيا، ودونار (ثور) وفرير [وكان كهنة إيزيس في مصر القديمة يخرجون حاملين المشاعل في شوارع طيبة في منتصف ليلة الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر من كل عام وهم يهتفون: «لقد وضعت العذراء حملها، وقد ولدت الشمس»: المترجم]. وحتى بعد أن أعلن الإمبراطور قسطنطين (306 ـ 337) المسيحية ديانة رسمية إمبراطورية لروما، لم يكن بالإمكان قمع استحضار الضوء والخصب قمعاً كلياً كأحد مكونات احتفالات منتصف الشتاء فيما قبل اعتناق المسيحية. وفي عام 274، كان الإمبراطور الروماني أورليان (214ـ 275) قد أسس عبادةً رسميةً لإله الشمس ميثرا، وأعلن عيد ميلاده، الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، عطلة وطنية. وكانت عبادة ميثرا، إله النور عند الآريّين، قد انتشرت من فارس عبر آسية الصغرى إلى اليونان وروما، فوصلت إلى الأراضي الجرمانية وإلى بريطانية. ولا تزال هناك آثار عديدة لمعابد هذا الإله تشهد على التبجيل الكبير الذي خُصَّ به، ولا سيما لدى الفيالق الرومانية، باعتباره جالباً للخصب، والسلام، والنصر. وهكذا فإن الكنيسة المسيحية قامت بخطوة ذكية في عام 354، أيام البابا ليبيريوس (352 ـ 366)، عندما اختارت عيد ميلاد ميثرا، فأعلنت أن الخامس

كروموبل ليتفرج بقلق بينما راح الملك يعمل ببطء على إبطال إصلاحاته، فأعاد الأسرار الكاثوليكية وغيرها من الطقوس التي كان كروموبل قد جعل ممارستها خروجاً على القانون.

وشعر كروموبل بسقوطه من مركز الحظوة. وفي سنة 1540، قرر أن يستعيد هذه الحظوة برمية زهر (أو ضربة حظ) واحدة: وهي العثور لهنري على زوجة جديدة. فقد كانت زوجته الثالثة، جين سيمور، قد ماتت قبل ذلك ببضعة أعوام. وكان يتحسر على ملكة شابة جديدة. وكان كروموبل هو الذي عثر له عليها، فكانت آن، أميرة كليفْزْ الألمانية، وهي بروتستانتية، وهذا هو الشيء الأهم بالنسبة لكروموبل. وبناء على طلب من كروموبل، أنتج الرسام هولبين لوحة جميلة لآن. وعندما رآها هنري وقع في غرامها، ووافق على الزواج منها. وبدا أن كروموبل قد استعاد حظوته.

غير أنه لسوء الحظ، كانت صورة آن التي رسمها هولبين مُجَمَّلَةً إلى حد مثالي. وعندما قابل الملكُ الأميرةَ في آخر الأمر فإنها لم تسرّه أقلّ سرور. فلم يعد يستطيع أن يتحكم في غضبه على كروموبل ـ أولاً بسبب إصلاحاته التي لم يُنْضج التفكير فيها، وبعد ذلك لتوريطه مع زوجة بروتستانتيّة غير جذابة. وهكذا أُلْقِيَ القبض على كروموبل في شهر حزيران/ يونيو من تلك السنة، واتهم بأنه بروتستانتي متطرف وزنديق، فأرسل إلى برج لندن، وبعد ستة أسابيع، وأمام جمهور غفير متحمس، قطع الجلاد العام رأسه.

التفسير

كانت لدى توماس كروموبل فكرة بسيطة: كان يريد تحطيم سلطة الكنيسة الكاثوليكية وثروتها، وإرساء أسس المذهب البروتستانتي في إنكلترا. وأراد أن يقوم بذلك في وقت قصير، وبلا رحمة. وكان يعلم أن إصلاحاته السريعة سوف تسبّب آلاماً وسخطاً، ولكنه ظنّ أن هذه المشاعر ستتلاشى في سنوات قليلة. والأهم من ذلك، فإنه بالوقوف في

والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، هو عيد ميلاد عيسى المسيح.
مجلة نيو زورخر زايتونغ، آن ـ سوزان ريشكه 25 كانون الأول/ ديسمبر، 1983

صف التغيير سوف يصبح قائداً للنظام الجديد، فيجعل الملك معتمداً عليه. ولكن كانت هناك مشكلة في استراتيجيته. فمثل كرة البليارد عند ضربها بشدّة مفرطة على بطانة حافة المائدة، أحدثت إصلاحاته ردود فعل ورجّات ارتداديّة، لم يتصورها ولم يستطع أن يسيطر عليها.

فالذي يبادر بإدخال إصلاحات قوية كثيراً ما يصبح كبش فداء لأي نوع من السخط. وقد تستهلكه إصلاحاته في آخر الأمر. فالتغيير يضايق الحيوان الإنساني، حتى عندما يكون إلى الأفضل. ذلك أن العالم مليء، وكان دائماً مليئاً بالتهديد وعدم الأمان. فنحن نلتصق بالوجوه المألوفة ونخلق عاداتٍ وطقوساً تجعل العالم مريحاً أكثر. وقد يكون التغيير ساراً، بل ومرغوباً بصورة مجردة أحياناً، ولكن الإفراط فيه يخلق قلقاً يجيش ويغلي تحت السطح ثم ينفجر في آخر الأمر.

فإياك والتقليل من أهمية النزوع إلى المحافظة لدى مَنْ حَوْلَك. فهو نزوع قوي ومتمترس. فلا تدع السحر المغوي لفكرةٍ مّا يلبّد ذهنك بالغيوم: فمثلما تعجز عن جعل الناس يرون العالم بطريقتك، فإنك لا تستطيع أن تقسرهم على المستقبل بتغييراتٍ مؤلمة. إذْ أنهم سيتمردون. فإذا كان التغيير ضرورياً فتوَقّعْ ردَّ الفعل ضده سلفاً واعثر على طرق لتمويه التغيير وتحلية السُّمّ.

مراعاة القانون

كان ماوتسي تونغ، الشيوعي الشاب في عشرينات القرن العشرين يفهم أكثر من جميع زملائه الأرجحيّات التي لا تُصَدَّق ضد أي انتصار شيوعي في الصين. فالحزب الشيوعي، بأعداده الصغيرة، وأمواله المحدودة، ونقص خبرته العسكرية، وترسانته الضئيلة من الأسلحة، لم يكن له أي أمل في النجاح ما لم يَكْسَبِ الأعدادَ الهائلةَ من سكان الصين الفلاحين. ولكن أي الناس في العالم كله كانوا أكثر محافظة وأكثر انغراساً في التقاليد من فلاحي الصين؟ فأقدم حضارة على هذا الكوكب

كان لها تاريخ لن يخفف من وطأة قوته شيء، مهما كان عنف الثورة. فقد ظلّت أفكار كونفوشيوس حيةً في عشرينات القرن العشرين تماماً كما كانت في القرن السادس قبل الميلاد، عندما كان الفيلسوف حيّاً. فعلى الرغم من القمع الظالم الذي يمارسه النظام السائد، هل يتخلى الفلاحون عن قيم الماضي العميقة الجذور في سبيل المجهول الأكبر الذي تدعوهم إليه الشيوعية؟

كان الحل، كما رآه ماوتسي تونغ، ينطوي على خدعةٍ بسيطة. وهي تغليف الثورة بلباس الماضي، وجعلها مريحة وشرعية في أعين الناس. وكان أحد الكتب المفضلة لماوتسي تونغ، القصة الصينية، ذات الشعبية الكبيرة من العصور الوسطى، والمعنونة، **حافة الماء**. وهي تحكي عن إنجازات «روبن هود» صيني وعصابته من اللصوص وهم يناضلون ضد ملك فاسد وشرير. وفي الصين في أيام ماو، كانت الروابط العائلية تهيمن على أي نوع آخر، لأن النظام الكونفوشيوسيّ الذي يعطي السلطة للأب والابن الأكبر، كان ما يزال ثابتاً في مكانه بقوة؛ ولكن **حافة الماء** كانت تبشر بقيمة أعلى ـ هي الروابط الأخوية لعصبة اللصوص، ونبل القضية التي توحّد الشعب بما يتخطّى رابطة الدم. وكان للقصة رنينٌ عاطفي في نفوس الصينيين، الذين يحبّون مناصرة ضحيّة الظلم، أو الاضطهاد. ولذا كان ماوتسي تونغ، يقدم جيشه الثوري مراراً وتكراراً، على أنه امتدادٌ لعصبة اللصوص في **حافة الماء**، فيشبه نضاله بالصراع الأزلي بين الفلاحين المقموعين والإمبراطور الشرير. وبذلك جعل الماضي يغلف القضية الشيوعية ويضفي عليها الشرعية؛ فاستطاع الفلاحون أن يشعروا بالراحة مع جماعة لها مثل هذه الجذور في الماضي، بل منحوها تأييدهم.

وحتى عندما وصل الحزب إلى السلطة، استمر ماو في ربطها بالماضي. فقدم نفسه للجماهير، لا على أنه لينين صينيّ، بل على أنه تشوكو ليانغ حديث. مثل تشوكو ليانغ الحقيقي، الاستراتيجي الذي

عاش في القرن الثالث، والذي تبرز شخصيته في القصة التاريخية الشعبية **قصة الممالك الثلاث**. فلقد كان ليانغ أكثر من جنرال عظيم ـ كان شاعراً، وفيلسوفاً، وشخصية ذات استقامة أخلاقية صارمة. وهكذا قدم ماو نفسه على أنه شاعر ـ محارب، مثل ليانغ، وكرجل يخلط الاستراتيجية بالفلسفة، ويبشّر بأخلاق جديدة. فجعل نفسَه يظهر كبطل من التقاليد الصينية لرجال الدولة المحاربين.

وسرعان ما راح كل شيء في خطب ماو وكتاباته يشير إلى فترة ماضية في التاريخ الصينيّ، فاستعاد ـ على سبيل المثال ـ ذكرى الإمبراطور العظيم شْيِنْ، الذي وحّد البلاد في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان شْيِنْ قد أحرق أعمال كونفوشيوس، وعزز سور الصين العظيم وأكمل بنيانه، وأعطى اسمه للصين. ومثل شْيِن، قام ماو بتجميع الصين، وسعى إلى إصلاحات جريئة في مواجهة ماضٍ كئيب ساده القهر. وكان الناس ينظرون إلى شْيِنْ تقليدياً كدكتاتور عنيف كان عهده قصيراً. وكانت ألمعية استراتيجية ماو، هي قلب ذلك إلى العكس، فمثَّل شبيهاً لِشْيِن، ولكنه في الوقت نفسه برر حكمه في عيون الصينيين في العصر الحديث، مستخدماً شْيِنْ لتبرير عنف النظام الجديد الذي كان ماو نفسه منهمكاً في إيجاده.

وبعد الثورة الثقافية الفاشلة في أواخر ستينات القرن العشرين، برز صراع على السلطة في داخل الحزب الشيوعي، كان عدوّ ماوتسي تونغ الرئيسي فيه هو لين بياو، الذي كان ذات يوم صديقاً حميماً له. ولكي يوضح ماو للجماهير الفرق بين فلسفته وفلسفة لين بياو، استغلّ الماضي مرة أخرى، فوضع خصمه في قالب جعله يمثل كونفوشيوس، وهو فيلسوف كان لين في الواقع يقتبس أقواله باستمرار. فكان كونفوشيوس يمثل النزعة المحافظة للماضي. ومن جهة أخرى، ربط ماو نفسه بالحركة الفلسفية القديمة المعروفة باسم الحركة القانونية، كما كانت تمثلها كتابات هان ـ في ـ تْزُو. وكان «القانونيّون» يحتقرون الأخلاق

الكونفوشيوسيّة؛ ويؤمنون بالحاجة إلى العنف لخلق نظام جديد. وكانوا يعبدون السلطة. ولكي يعطي ماو لنفسه وزناً في الصراع، أطلق حملة دعائية واسعة في جميع أرجاء البلد ضد كونفوشيوس، مستخدماً قضايا الكونفوشيوسيَّة ضد الحركة القانونية، كي يثير في نفوس الشباب نوعاً من التمرد الجامح ضد الجيل الأكبر منهم. وقد غلّف هذا السياق الكبير صراعاً على السلطة عادياً مبتذلاً، ومرة أخرى، كسب ماو الجماهير وتغلّب على أعدائه.

التفسير

ليس هناك شعب أشد تعلقاً بالماضي من الصينيّين. وفي مواجهة هذه العقبة الكاداء للإصلاح، كانت استراتيجية ماو بين شوعيّيه المتشددين، وبين الشخصيات البطولية الرومانسيّة في التاريخ الصينيّ. فنسج قصة حرب الممالك الثلاث إلى الصراع بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، والصين، وقولب لنفسه دور تشوكو ليانغ. ورحب بعبادة الجماهير الشبيهة بالطقوس، كما فعل الأباطرة الأقدمون، وفهم أن الصينيين لا يمكن أن يعملوا بدون شخصية أبوية يُعْجَبون بها. وبعد أن ارتكب غلطةً رهيبة «بقفزته العظمى إلى الأمام»، بمحاولة فرض التحديث على البلد بالقوة وفشله الذريع في ذلك، لم يكرر تلك الغلطة قَطّ: فمنذ ذلك الحين كان يتعين على التغيير الجذري أن يكون متلفعاً بملابس الماضي المريحة.

فالدرس بسيط: الماضي قويّ. وما حدث في السابق يبدو أعظم؛ والعادة والتاريخ يضفيان على أي عملٍ وزناً. فاستخدم ذلك لصالحك. ذلك أنك عندما تدمّر المألوف، فإنك تخلق فراغاً أو خُواءً؛ والناس يخشون الفوضى التي ستفيض إلى الداخل كي تملأ ذلك الفراغ. فيجب عليك أن تتجنب إثارة مثل هذه المخاوف بأي ثمن. إِسْتَعِر الوزنَ والشرعيةَ من الماضي، مهما كان بعيداً، لتخلق حضوراً مريحاً ومألوفاً.

فذلك سيضفي على أعمالك تداعيات بطولية حالمة، ويضخم حضورك، ويغطي طبيعة التغييرات التي تحاول إجراءها.

ينبغي اعتبار أنه ليس هناك شيء أصعب تنفيذاً، ولا أكثر ريباً في النجاح، ولا أخطر معالجةً، من تدشين نظام جديد للأشياء.

(نيقولو مكيافيللي، 1469 ـ 1527)

مفاتيح السلطة

في النفسيةِ الإنسانية ازدواجاتٌ كثيرةٌ، إحداها أنه حتى عندما يتفهم الناس الحاجةَ إلى التغيير، ويعرفون مدى أهمية التجديد الدوري للمؤسسات والأفراد، فإنهم في الوقت نفسه يتضايقون وينزعجون من التغييرات المؤثرة عليهم شخصياً. فهم يعلمون أن التغيير ضروري، وأن التجديد يعطي خلاصاً من السأم، ولكنهم في أعماقهم الداخلية يتمسكون بالماضي. فالتغيير بالمعنى المجرد، أو التغيير السطحي مرغوب عندهم. ولكن التغيير الذي يقلب عادات جوهرية في صميم روتين حياتهم يسبب لهم قلقاً عميقاً.

لم تحدث ثورة بدون ردة فعل قوية ضدها في وقت لاحق. لأن الفراغ الذي تخلقه على المدى الطويل، يثبت أنه يزعزع استقرار الحيوان الإنساني بأكبر من طاقته. وهو يربط مثل هذا الفراغ، بدون وعي، بالموت وبالفوضى. ذلك أن فرصة التغيير والتجديد، تغوي الناس فتشدّهم إلى جانب الثورة. ولكن ما إن يتلاشى حماسهم ـ وهو سيتلاشى حتماً ـ حتى يجدوا أنفسهم متروكين مع فراغٍ معيّن. وعندئذٍ يتشوقون إلى الماضي، فيخلقون له فتحة يزحف منها إلى الداخل.

وعند ماكيافيللي أن النبيّ الذي يبشّر بالتغيير ويأتي به لا يستطيع البقاء إلاّ بحمل السلاح: فعندما تحنّ الجماهير إلى الماضي حتماً، يجب عليه أن يكون مستعداً لاستخدام القوة. ولكن النبيّ المسلح لا يستطيع البقاء طويلاً، إلاّ إذا أسرع بخلق مجموعة جديدة من القيم والطقوس

والشعائر، لتحلّ محلّ القديمة، وتهدىء قلق الذين يصيبهم التغيير بالذعر. إذْ أن من الأسهل بكثير، والأقل دمويّة، أن يمارس المرء لعبة إقناع. بَشِّرْ بالتغيير بقدر ما تحبّ، بل ونفّذ إصلاحاتك عملياً، ولكن أعطها المظهرَ المريحَ لأحداث وتقاليد أقدم.

فالإمبراطور الصيني وانغْ مانغْ الذي امتد عهده من السنة الثامنة الميلادية إلى السنة الثالثة والعشرين، برز من فترةٍ من الاضطراب التاريخي العظيم، كان الناس يتحرقون فيها إلى النظام الذي يمثله عندهم كونفوشيوس. غير أنه قبل ذلك بحوالى مائتي سنة، كان الإمبراطور شِيْئِيِنْ قد أمر بإحراق كتابات كونفوشيوس. وبعد ذلك ببضع سنوات انتشر خبرٌ بأن نصوصاً معينة قد نجت من الحرق بمعجزة، وكانت مخبأة تحت منزل الدارس. وربما لم تكن تلك النصوص أصلية، ولكنها أعطت وانغْ فرصتَه. فصادرها في أول الأمر، ثم أمر كتّابه أن يدسّوا فيها مقاطع يبدو أنها مؤيدة للتغييرات التي كان آخذاً في فرضها على البلد. وعندما أفرج عن تلك النصوص، بدا كأن كونفوشيوس مؤيد لإصلاحات وانغْ، وشعر الناس بالارتياح وتقبّلوها بسهولة أكبر.

إفهم: إن حقيقة كون الماضي ميتاً ومدفوناً تعطيك حريةَ إعادةِ تفسيره. ولتأييد قضيتك عالج الحقائق قليلاً. فالماضي نصٌّ يمكنك أن تدسَّ فيه سطورك بأمان.

إن إشارة بسيطة، كاستخدام عنوان قديم، أو الاحتفاظ بالعدد نفسه لجماعة، سوف تشدك إلى الماضي وتدعمك بسلطة التاريخ. وكما لاحظ ماكيافيللي نفسه، فقد استخدم الرومان هذا الاستنباط عندما حوّلوا ملكيتهم إلى جمهورية. فربما عيّنوا قنصلين في مكان الملك، ولكن، بما أن الملك كان يخدمه اثنا عشر من الزبانية، فقد احتفظوا بالعدد نفسه لخدمة القنصلين. وكان الملك يُقَدِّمُ ضحيةً سنوية ضمن احتفال فيه مشاهد تهزّ مشاعر العامّة. فاحتفظت الجمهورية بهذه الممارسة، ولم تغيّر فيها سوى إحالتها إلى «رئيس الاحتفالات والمراسم»، الذي سَمَّوْهُ

مَلِكَ التضحية، فأرضت هذه الإشاراتُ وأمثالُها الناسَ ومنعتهم من المطالبة الصاخبة بعودة الملكية.

ومن الأساليب الاستراتيجية لإخفاء التغيير وتمويهه أن يقوم المرء باستعراض دعمه لقيم الماضي علانيةً وبصوت عال. فليظهر عليك أنك من الأنصار المتحمسين للتقاليد، وعندئذٍ لن يلاحظ إلاّ قليلون إلى أي مدىً أنت غير تقليدي في الحقيقة. فقد كانت لدى فلورنسا في عصر النهضة جمهورية عمرها قرون، وكانت ترتاب في أي شخص يسخر من تقاليدها أو يزدريها. وقد أظهر كوزيمودي مديتشي تأييده الحماسي للجمهورية على نحو استعراضي، ولكنه في الحقيقة كان يعمل لوضع المدينة تحت سيطرة أُسرته الثريّة. فمن ناحية الشكل، احتفظ آل مديتشي بمظهر الجمهورية. أما من حيث الجوهر، فقد جعلوها بلا سلطة، فأدخلوا تغييرات جذرية بهدوء، بينما تظاهروا بالحفاظ على التقاليد.

يدعي العِلْمُ بحثاً عن الحقيقة التي تبدو كأنها تحميه من نزعة المحافظة ومن لا عقلانية العادة: فهو مستنبت للتجديد. ومع ذلك فعندما نشر شارلس دَارْوِنْ أفكاره عن التطور والارتقاء واجه معارضة شرسة من زملائه العلماء أكثر ممّا واجه من السلطات الدينية. إذ أن نظرياته تَحَدَّتْ عدداً مفرطاً من الأفكار الراسخة. واصطدم جوناس صولك بالجدار نفسه عندما جاء بتجديداته الجذرية في علم المناعة؛ وكذلك الحال بالنسبة لماكس بلانك في فيزيائه التثويريّة. وقد كتب بلانك فيما بعد عن المعارضة العلمية التي واجهها: «إن الحقيقة العلمية الجديدة لا تنتصر بإقناع خصومها وجعلهم يرون الضوء ليهتدوا، بل لأن خصومها يموتون في آخر الأمر، ثم ينمو جيل جديد تكون تلك الحقيقة مألوفة لديه».

والجواب على هذا النزوع الفطري إلى المحافظة هو ممارسة لعبة رجل الحاشية. فهذا ما فعله غاليليو في بداية حياته العملية؛ وفيما بعد أصبح أكثر ميلاً إلى المواجهة، ودفع ثمنها. وإذن فامتدِحِ التقليدَ شفوياً.

وحَدِّدْ في ثورتك العناصرَ التي يمكن جعلها تبدو وكأنها تبني على الماضي. وقل الأشياء الصحيحة والملائمة، وأظْهِر امتثالك للعرف بشكل بارز، وفي الوقت نفسه دع نظرياتك تعمل عملها الجذري. تلاعبْ بالمظاهر واحترم عادات الماضي ومراسيمه. فهذا ينطبق على كل ساحة، وليس العِلْمُ بمستثنى.

وأخيراً، فإن الأقوياء ذوي السلطة يهتمون بروح العصر، فإن كان إصلاحهم سابقاً لأوانه كثيراً فلن يتفهمه إلاّ قليلون، وسوف يثير القلق، ويساء تفسيره على نحوٍ يدعو لليأس. ولذا، فإن التغييرات التي تجريها، ينبغي أن تبدو أقل تجديداً مما هي عليه. فإنكلترا أصبحت، في آخر الأمر، أمة بروتستانتية، كما كان يرغب توماس كروموبل. ولكن ذلك استغرق أكثر من قرن من التطور التدريجي.

راقب روحَ العصر. فإن كنتَ تعمل في زمن جياش بالاضطراب، فإن هناك سلطة يمكن كسبها من التبشير بالعودة إلى الماضي، إلى الراحة والسلوى، إلى التقاليد والطقوس. ومن جهة أخرى، إلعب ورقة التغيير والثورة في فترة الركود. ولكن احذر مما قد تثيره. فالذين ينهون ثورةً مّا نادراً ما يكونون هم الذين يبدأونها. ولن تنجح في هذه اللعبة الخطرة إلاّ إذا كنت مستعداً لاستباق وإحباط رد الفعل المحتوم ضدها، عن طريق التلاعب بالمظاهر والبناء على الماضي.

الشاهد: إن من يرغب في إصلاح حكومة دولة أو يحاول ذلك، ويرغب في جعل إصلاحه مقبولاً، عليه أن يحتفظ على الأقل بما يشبه الأشكال القديمة، بحيث يبدو للناس أنه لم يحدث تغيير في المؤسسات، حتى ولو كانت في الحقيقة مختلفة تماماً عن المؤسسات القديمة. لأن الغالبية العظمى من البشر قانعون بالمظاهر وكأنها حقائق.

(نيقولو مكيافيللي، 1469 ـ 1527).

صورة: القطة. إنها بنت العادة،
تحب دفء ما هو مألوف. أفسد عاداتها
الروتينيّة، وأوقع الفوضى في مجالها، فتصبح صعبة
التدبير، وتصاب باكتئاب نفسي. فاسترضها بدعم طقوسها
المعتادة، فإذا كان التغيير ضرورياً، فاخدع القطة
بإبقاء رائحة الماضي حية، وضع أشياء
مألوفة لها في مواقع استراتيجية

الانقلاب

الماضي جثة تستخدمها كما ترى مناسباً. فإذا كان ما حدث في الماضي القريب مؤلماً وقاسياً، فإنك تدمّر ذاتك إذا ارتبطتَ به. فعندما جاء نابليون بونابرت إلى السلطة، كان الثورة الفرنسية ما تزال حية طرية في أذهان الجميع. ولو أن البلاط الذي أسسه كان فيه أية سمة من سمات الشبه بالبلاط الفخم الباذخ للويس السادس عشر وماري آنطوانيت، لأمضى رجال حاشيته وقتهم كله وهم قلقون على رقابهم. وبدلاً من ذلك أقام نابليون بلاطاً لافتاً للأنظار، برزانته وبعده عن المظاهر الاستعراضية. فكان بلاطاً لرجل يقدر العمل والفضائل العسكرية. وبدا هذا الشكل الجديد ملائماً ومدعاة للاطمئنان.

وبكلمات أُخرى، اهتمَّ بروح عصرك، ولكن افهم: إذا أَجْرَيْتَ تغييراً جريئاً يختلف عن الماضي، فإن عليك أن تتجنب بأي ثمن ظهورَ فراغٍ أو خواء، وإلاَّ فستخلق رعباً. فحتى التاريخُ القريبُ القبيحُ سيبدو أفضل من فسحة خالية. فاملأ الفراغ على الفور بطقوس وشعائر وأشكال جديدة. فتهدئة الناس وجعلهم يألفون الأمر سيضمن لك مكانتك بين الجماهير.

وأخيراً، فإن الفنون، والأزياء، والتكنولوجيا تبدو مجالات تأتي السلطة فيها من خلق انفصام جذري عن الماضي وإعطاء مظهر حَدِّيٍّ قاطع. والواقع أن مثل هذه الاستراتيجية يمكن أن تأتي بسلطة عظيمة،

ولكن فيها أخطاراً كثيرة. فمن المحتوم أن تجديداتك سيتفوق عليها شخص آخر. فأنت لا تملك سيطرة تُذْكَر، فقد يقوم شخص أصغر منك وأنشط وأنضر، بالتحرك فجأة، في اتجاه جديد يجعل تجديدك الجريء بالأمس يبدو داجناً ومثيراً للسأم اليوم. فأنت تمارس لعبة اللحاق بلا نهاية، إذْ أن سلطتك ضعيفة غير واضحة المعالم وقصيرة العمر. وأنت تريد سلطة قائمة على أساس أصلب. فاستخدام الماضي، ومعالجة التقاليد والتعامل معها وتخريبها، سيعطي مخلوقاتك شيئاً أكثر من الجاذبية المؤقتة. إذ أن فترات التغيير المدوخ تموه حقيقة كون التشوق إلى الماضي سيعاود الزحف إلى الداخل حتماً. وفي آخر الأمر، فإن استخدام الماضي لأغراضك الخاصة سيأتيك بسلطة أكثر مما لو حاولت إنهاءه بصورة كاملة، لأن مثل هذه المحاولة جهد مدمر للذات، ولا طائل من ورائه.

القانون

46

لا تظهر كاملاً أكثر مما ينبغي

الحكم

إن ظهور المرء أفضل من الآخرين خطر على الدوام. ولكن الأخطر من كل شيء هو ظهور المرء بلا عيب ولا ضعف. فالحسد يخلق أعداء صامتين. ومن الذكاء أن يكشف المرء عن نواقص فيه بين حين وآخر، وأن يعترف برذائل غير مؤذية، لإبعاد الحسد، ولكي يظهر المرء أكثر إنسانية وقابلية لأن يقترب منه الآخرون. فالآلهة والموتى فقط هم القادرون على الظهور بمظهر الكمال والإفلات به من العقاب.

انتهاك القانون

مثل الرجل الطماع والرجل الحسود

التقى رجل طماع ورجل حسود بأحد الملوك. فقال لهما: «يحق لواحد منكما أن يسألني شيئاً، شريطة أن أعطي ضعفهُ للآخر». فلم يرد الحسود أن يكون هو السائل الأول، لأنه كان يحسد صاحبه الذي سيلقى بعدئذ ضعف ما يسأله. ولم يرد الطماع أن يكون هو السائل الأول لأنه كان يريد أخذ كل ما يمكن الحصول عليه. وأخيراً ضغط الطماع على الحسود ليقدم طلبه، فطلب الحسود من الملك أن يقلع له إحدى عينيه.

مثل يهودي

الخطايا السبع المميتة
سولومون شيختل، 1992

التقى جو أورتون مع كينيث هاليويل في الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية في لندن، سنة 1953، حيث انتسب الاثنان كطالبين ممثلين. وسرعان ما أصبحا عشيقين وانتقلا للعيش معاً. وكان هاليويل في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك، أكبر من أورتون بسبع سنوات. وبدا أنه الأكثر ثقة بنفسه. غير أن الاثنين لم يكن لديهما كبير موهبة كممثلين. وبعد التخرج، واستقرارهما في شقة شديدة الرطوبة في لندن، قررا أن يتخلّيا عن التمثيل ويتعاونا ككاتبين بدلاً من ذلك. وكانت التركة التي ورثها هاليويل تكفي لإعالتهما دون الاضطرار إلى العثور على عمل لمدة بضع سنوات. وفي بادىء الأمر، كان هاليويل هو القوة الدافعة وراء القصص والروايات التي ألَّفاها؛ فكان يملي على أورتون، الذي يطبع المخطوطات، مضيفاً إليها، بين حين وآخر، بعض سطوره وأفكاره. وجذبت محاولاتهما الأولى بعض الاهتمام من الوكلاء الأدبيّين، ولكنها توقفت بعد تَقَطُّعٍ. ولم يكن الوعد الذي بدر منهما مؤدّياً إلى شيء.

وأخيراً انتهت الأموال الموروثة، فاضطر الاثنان إلى البحث عن عمل. وصار تعاونهما أقل حماساً وأقل تواتراً، وبدا المستقبل كالحاً.

وفي سنة 1957، بدأ أورتون يكتب بشكل مستقل. ولكنه لم يجد صوته الخاص به إلاَّ بعد ذلك بخمس سنوات. عندما سُجِنَ العشيقان لمدة ستة أشهر بسبب تشويههما لعشرات من الكتب الأدبية (ولعل ذلك

لم يكن صدفة، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي افترق فيها عن هاليويل خلال مدة تسع سنوات). فخرج من السجن مصمماً على التعبير عن احتقاره للمجتمع الإنكليزي على شكل مسرحيات هزلية ساخرة. وعاد وهاليويل ليعيشا معاً. ولكن الأدوار انعكست عندئذٍ: فشرع أورتون يقوم بالتأليف بينما أخذ هاليويل يضيف تعليقاته وأفكاره.

وفي سنة 1964، أكمل جو أورتون أول مسرحية كاملة له، وهي بعنوان **إمتاع السيد سلون**. فَنَجَحَتْ في الوصول إلى الحي الغربي «وِسْتْ إِنْدْ» بلندن (وهي المنطقة الغنية الراقية)، حيث لقيت مراجعات نقدية لامعة: فقد برز كاتب جديد عظيم من اللامكان. وتبع النجاحُ النجاحَ في وتيرة سريعة مدوِّخة. وفي سنة 1966، حقق أورتون نجاحاً باهراً بمسرحيته **النهب** «Loot»، وتصاعدت شعبيته. وسرعان ما انهالت عليه الطلبات والتكاليف من جميع الجوانب، بما في ذلك من الخنافس، الذين دفعوا لأورتون مبالغ محترمة، كي يكتب لهم قصة فيلم.

إن المعجب الذي يشعر أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً بتسليم نفسه يختار أن يصبح حاسداً لمن هو معجبٌ به. وهكذا يتكلم بلغة أخرى فيسمي الشيء الذي هو معجب به غبياً، وبلا نكهة، وغيرَ ممتع، وغريباً. ذلك أن الإعجاب هو الاستسلام السعيد، أما الحسد فهو إثبات النفس التعيس.

سورين كيركيغارد
1855 - 1813

وكان كل شيء يشير إلى الأعالي، عدا علاقة جو أورتون مع كينيث هاليويل. فقد ظل الاثنان يعيشان معاً، ولكن مع نجاح أورتون بدأ هاليويل يتدهور. فعندما كان هاليويل يتفرج على عشيقه وهو يصير مركز الاهتمام، راح يعاني من مذلة التحول إلى مساعد شخصي للكاتب المسرحي، وأخذ دوره فيما كان ذاتَ مرةٍ نوعاً من التعاون يصبح أصغر فأصغر. ففي خمسينات القرن العشرين، كان يعيل أورتون بميراثه. أمّا بعد ذلك فقد راح أورتون يعيله. وفي الحفلات، وبين الأصدقاء، كان من الطبيعي أن ينجذب الناس إلى فلك أورتون، فقد كان ساحر الجاذبية، ومبتهج المزاج بشكلٍ يكاد يكون دائماً. وعلى عكس أورتون الوسيم، كان هاليويل أصلع وأخرق؛ وجعلت مواقفه الدفاعيةُ الناسَ يرغبون في تجنّبه.

ومع نجاح جو أورتون لم تزد مشاكل الاثنين إلاَّ سوءاً. فقد جعلت نوباتُ هاليويل من نكد الطبع حياتَهما معاً مستحيلة. وزعم

أورتون أنه يريد أن يفارقه. وكانت له علاقات عديدة، ولكنه كان دائماً يعود إلى صديقه وعشيقه القديم. وقد حاول أن يساعد هاليويل على تدشين حياة عملية له كفنان، بل رتب له معرضاً لأعماله. ولكن المعرض لقي إخفاقاً ذريعاً، فلم ينجم عنه سوى زيادة حدة شعور هاليويل بالنقص. وفي شهر أيار/ مايو سنة 1967، ذهب الاثنان في إجازة قصيرة إلى طنجة، في المغرب. وأثناء الرحلة كتب أورتون في مذكراته: «لقد جلسنا نتحدث عن مدى شعورنا بالسعادة، وكيف أن من المؤكد أنها لن تستمر. فسوف نضطر إلى دفع ثمنها، أو تنقض علينا كارثة تصيبنا من بعيد، ربما لأننا كنا سعداء أكثر مما ينبغي. ذلك أن كون المرء حسن المنظر، وبصحة جيدة، وشهيراً، وغنيّاً نسبياً، وسعيداً فوق ذلك كله لا بدّ أنه يسير ضدّ الطبيعة».

إن إخفاء موهبة المرء ومهارته يتطلب موهبة ومهارة عظيمتين.

لاروشفوكو
1613 ـ 1680

ومن الخارج، كان كينيثهاليويل يبدو سعيداً مثل جو أورتون. أمّا من الداخل، فكانت نفسه تجيش. وبعد ذلك بشهرين، في العاشر من شهر آب/ أغسطس سنة 1967، بعد أيام فقط من مساعدة أورتون في وضع اللمسات الأخيرة على مسرحيته الهزلية الشريرة **ما رآه الساقي** (وهي رائعته بلا شك)، قام كينيث هاليويل بالقضاء على جو أورتون بضربات متكررة على رأسه بمطرقة. ثم تناول واحداً وعشرين قرصاً منوّماً، فقتل نفسه بدوره، تاركاً وراءه ملاحظةً نَصُّها: «إذا قرأتم مذكرات أورتون، فسوف يتضح لكم كل شيء».

ربة الحسد
تعذب أغلوروس

رأت الإلهة منيرفا طريقها إلى بيت الحسد، وهو بيتٌ قذر مليء بالوحل المعتم المزيج الصاخب. وهو مختفٍ بعيداً في أعماق الوديان حيث لا تصل الشمس ولا تنفذ أبداً، ولا تهب الريح، فكان مسكناً كئيباً مظلماً يتخلله برد قارص مخدّر، وكان متلفعاً أبداً بديجور كثيف حالك. وعندما وصلت منيرفا إلى هذه البقعة توقفت أمام البيت... وقرعت الأبواب بطرف رمحها، وعندئذٍ انفتحت الأبواب وكشفت عن ربة الحسد في الداخل، وهي منهمكة في تناول وجبة من لحم الأفاعي، الطعام الذي تغذي به طبيعتها

التفسير

حاول كينيث هاليويل أن يصبّ تدهوره في قالب مرضٍ عقلي. ولكن ما كشفته له مذكرات جو أورتون كان هو الحقيقة: لقد كان الحسد، محضاً وبسيطاً هو الشيء الكامن في قلب مرضه. فقد كانت المذكرات، التي قرأها هاليويل خلسةً، تروي قصة أيام الاثنين معاً كشخصين متساويين، وكفاحهما للحصول على اعتراف الناس. أما بعد نجاح أورتون فقد طفقت المذكرات تصف استغراق هاليويل في التفكير

الكئيب، وأوامره الفظّة في الحفلات، وشعوره المتنامي بالنقص. وقد حكى أورتون هذا كله من مسافةٍ فاصلة تقرب من حدود الاحتقار.

وأوضحت المذكرات شعور هاليويل بالمرارة من نجاح أورتون. وفي آخر الأمر لم يكن ليرضيه شيء سوى أن يتعرض أورتون لفشل خاص به، ربما مسرحية غير ناجحة، كي يتواسيا في فشلهما كما كانا يفعلان قبل سنوات. وعندما حدث العكس ـ بينما راح أورتون لا يزداد إلاَّ نجاحاً وشعبية ـ عمل هاليويل الشيء الوحيد الذي كان من شأنه أن يردّهما متساويين مرة أخرى: وهو أن يتساويا في الموت. وباغتيال أورتون، صار هاليويل مشهوراً كشهرة صديقة تقريباً ـ بعد الموت.

ولم يفهم جو أورتون سرّ تدهور عشيقه إلاَّ بصورة جزئية. فمحاولته لمساعدة هاليويل على الانطلاق في حياته العملية كفنان سجلت كما هي عليه: أي كَصَدَقَةٍ وشعور بالذنب. وبشكل أساسي، كان أمام أورتون حلاّن محتملان للمشكلة: فقد كان بإمكانه التقليل من شأن نجاحه، كاشفاً عن بعض العيوب، ومبعداً عن نفسه حسدَ هاليويل: أو، عند إدراكه طبيعة المشكلة، كان يمكنه الهرب من هاليويل وكأنه أفعى خبيثة، كما كان بالفعل ـ صِلاً من الحسد. فما أن يبدأ الحسد بأكل قلب شخص مّا، حتى يتسبب كل شيء تفعله في نموّ ذلك الحسد فقط، فيعتمل في داخله ويتقيح يوماً بعد يوم. وسوف يهاجم في آخر الأمر.

لا تستطيع أن تنجح في لعبة الحياة إلاَّ أقلية. ومن المحتم أن تثير تلك الأقلية الحسد في نفوس مَنْ حولها. وعندما يصادفك النجاح في طريقك، فإن الناس الذين يتعين عليك أن تخشاهم أكثر من غيرهم، هم أولئك اللصيقون بك في دائرتك من الأصدقاء والمعارف الذين تركتهم خلفك. إذ إن مشاعر النقص تقضمهم وتنخر في داخلهم: ففكرة نجاحك لا تؤدي إلاَّ إلى زيادة شعورهم بالركود. فيسيطر عليهم الحسد، الذي يسميه الفيلسوف كيركاغارد «الإعجاب التعيس». وقد لا تراه، ولكنك سوف تحسّ به ذات يوم، إلاَّ إذا تعلمتَ استراتيجية الإبعاد،

الشريرة. وعند رؤية هذا المشهد، أشاحت منيرفا بوجهها. ولكن الأخرى نهضت عن الأرض بثقل، تاركة جثثاً نصف مأكولة، وخرجت تجر خطاها جراً. فعندما رأت الإلهةَ منيرفا بكل بهاء جمالها، ودرعها ذي الوميض الملتمع، تأوّهت. . وكان وجهها شاحباً مريضاً وقوامها هزيلاً ضامراً، وفي نظرتها شزر رهيب. وكانت أسنانها شوهاء اللون ومتآكلة وثدياها السامّان يميل لونهما إلى الاخضرار، ولسانها يقطر سماً. فقد كان مشهد البؤس وحده هو الذي يأتي بالبسمة إلى شفتيها. فلم تعرف أبداً راحة النوم، بل كان الهمّ والقلق يسهدانها تسهيداً دائماً، إذ إنها تنظر بفزع إلى حسن حظ البشر، الذي كان مشهدُهُ يُنْحِلُ جسمَهَا. فكانت تقضم الآخرين وتتمرض هي نفسُها للقضم بالغُلّ في داخلها، فكانت معذبةً نفسيا. ورغم اشمئزاز منيرفا منها، فقد خاطبتها قائلة: «إغرسي سُمُّكِ في واحدة من بنات سكروب ـ اسمها آغلوروس. هذا ما أطلبه منك». وبدون أي كلمة أخرى، غرست منيرفا رمحها في الأرض وغادرتها محلقة في الأعالي. وراقبتها الأخرى بطرف عينها حتى غابت عن النظر، فراحت تدمدم غاضبةً أن تكون خطة منيرفا ناجحة. ثم أخذت عكازها المحاطة من كل جانب بالأشواك النابتة، ولفّتْ نفسَها بغيوم سوداء وانطلقت. وكانت حيثما سارت تطأ حقول الورد،

وتقديم التضحيات الصغيرة لآلهة النجاح. فإما أن تقوم بطمس شيء من بريقك بين الحين والآخر، متعمداً أن تكشف عن عيب، أو ضعف، أو قلق، أو عزوٍ لنجاحك إلى الحظّ؛ أو أن تعثر لنفسك على أصدقاء جدد. وإياك أن تقلل تقدير قوة الحسد.

مراعاة القانون

كانت طبقة التجار ونقابات الحِرَفيين التي تدين لها فلورنسا بازدهارها في العصور الوسطى، قد اصطنعت جمهوريةً حَمَتْهُمْ جميعاً من قمع النبلاء. وبما أن المناصب العليا لم يكن الاحتفاظ بها ممكناً إلاّ شهوراً قليلة، فلم يكن أحد يستطيع الحصول على هيمنة دائمة. ورغم أن هذا كان يعني أن الفئات السياسية راحت تكافح باستمرار لتحقيق السيطرة، فإن النظام أَبْعَدَ الطغاةَ والمستبدين الصغار. وقد عاشت أُسرة مديتشي عدة قرون تحت هذا النظام دون أن تترك أثراً يذكر. وكانت لهم أصول متواضعة كصيادلة، وكانوا مواطنين نموذجيين من الطبقة الوسطى. فلم يبرزوا كقوة يعتد بها إلاّ في أواخر القرن الرابع عشر. عندما كوّن جيوفاني دي ميديتشي ثروة متواضعة في العمل المصرفي.

وعند وفاة جيوفاني، تولى ابنه كوزيمو تجارة العائلة، فأظهر موهبته فيها بسرعة، فازدهرت الأعمال التجارية تحت سيطرته، وبرز آل ميديتشي بوصفهم إحدى الأُسر الصيرفية المتفوقة في أوروبا. ولكن كان هناك من ينافسهم في فلورنسا. فعلى الرغم من نظام المدينة الجمهوري، تمكنت عائلة واحدة هي عائلة ألبيزي، على مرّ السنين، من احتكار السيطرة على الحكومة.. مكوّمةً تحالفاتٍ أتاحت لها باستمرار أن تملأ المناصب الحكومية الهامة برجالها. فلم يقاتل كوزيمو ضد ذلك، بل منح آل ألبيزي تأييده الصامت. وفي الوقت نفسه، وبينما بدأ آل ألبيزي يتباهون باستعراض سلطتهم، حرص كوزيمو على البقاء غير بارز في خلفية المشهد.

فتذبل الأعشاب وتحرق قمم الأشجار، وتلوث بأنفاسها الشعوبَ ومدنَها وبيوتَها، حتى وصلت في خاتمة المطاف إلى أثينة، مقر الفطنة والذكاء والثروة، التي تنعم بالسلام والازدهار. فلم تكد تمتنع عن البكاء لأنها لم ترَ سبباً للدموع. ثم دخلت غرفة بنات سكروب فنفذت أوامر منيرفا. فلمست ثدي البنت بيد مغمسة في الخبث، وملأت قلبها بالأشواك المتعشبة، ونفثت فيها سمّاً أسود شريراً أنفذته إلى أعماق عظامها وقطرت الضّغينة في أعماق فؤادها. ولكي لا يكون العثورُ على سبب كربها بعيدَ المنال، وضعت نصب عيني أغلوروس مشهداً لأختها، لزواجها الناجح [من الإله عطارد] ولذلك الإله وبكل وسائله وبالغت في تمجيد ذلك كله. وهكذا تعذبت أغلوروس بمثل تلك الأفكار، وراح الحسد الغاضب الذي تخفيه يأكل قلبها. وأخذت تتنهّد بحرقةٍ في الليل والنهار، وصارت تعيسة باطراد لا توقف فيه. وفي تعاستها الكئيبة شرعت تذوي في اضمحلال بطيء، كالثلج عندما تذيبه ضربات الشمس. وكانت النار التي اشتعلت في داخلها عند تفكيرها بحسن حظ أختها تشبه احتراق الهشيم بدون شعلات، ولكن النار تأكل الهشيم.

التحوّلات
أوفيد،
43 ق. م. - حوالى 18م.

غير أن ثروة آل ميديتشي لم يعد بالإمكان تجاهلها في آخر الأمر، وفي سنة 1433، شعر آل ألبيزي بأن تلك الأسرة تهددهم، فاستخدموا عضلاتهم الحكومية للقبض على كوزيمو بتهمة التآمر على إسقاط الجمهورية. وأراد بعض أفراد زمرة ألبيزي أن يُعْدَمَ كوزيمو، وخشي آخرون من أن يشعل ذلك شرارةَ حرب أهلية. وفي آخر الأمر نفوه من فلورنسا. ولم يقف كوزيمو ضد هذا الحكم. فغادر المدينةَ بهدوء. وكان يعلم أن من الأحكم في بعض الأحيان أن يتحيّن المرءُ الوقتَ المناسب، وأن يحافظ على الهدوء وعدم البروز.

وعلى مدى السنة التالية، بدأ آل ألبيزي يثيرون المخاوف من كونهم يدبرون إقامة دكتاتورية. وفي تلك الأثناء، استخدم كوزيمو ثروته لتحقيق فائدة، فاستمر يمارس تأثيراً على الشؤون الفلورنسية حتى من منفاه. واندلعت حرب أهلية في المدينة. وفي شهر أيلول/سبتمبر سنة 1434، أُسْقِطَ آل ألبيزي من السلطة، وأرسلوا إلى المنفى. فعاد كوزيمو إلى المدينة في الحال، واستعاد منصبه. ولكنه رأى أنه كان عندئذ يواجه موقفاً دقيقاً: فإذا بدا عليه الطموح، كما في حالة آل ألبيزي، فسوف يثير معارضة وحسداً يهددان أعماله التجارية في آخر الأمر. ومن جهة أخرى، فإنه إذا بقي على جوانب المشهد، فإنه سيتيح فرصة لزمرة أخرى كي تصعد كما صعد آل ألبيزي، وتعاقب آل ميديتشي على نجاحهم.

فحلّ كوزيمو المشكلةَ بطريقتين: استعمل ثروته سراً لشراء النفوذ في صفوف المواطنين الهامّين، ووضع حلفاءه في مناصب حكومية عليا. وكان قد اختار أولئك الحلفاء من الطبقات الوسطى لإخفاء ولائهم له. أما أولئك الذين تذمروا من تنامي النفوذ السياسي المؤثر، فقد فرضت عليهم ضرائب أرغمتهم على الخضوع، أو اشتريت ممتلكاتهم كلها فسُجِبَتْ منهم على أيدي حلفاء كوزيمو المصرفيين. فنجت الجمهورية بالاسم فقط، بينما ظلّ كوزيمو هو الممسك بالخيوط.

غير أنه في الوقت الذي راح فيه كوزيمو يعمل من خلف الكواليس

للحصول على السيطرة، فإنه قدّم في العلن صورةً أخرى. فعندما كان يمشي في شوارع فلورنسا، كان يرتدي ملابس متواضعة، ولم يكن لديه سوى خادم واحد، وكان ينحني باحترام للقضاة والمواطنين المسنّين، ويركب بغلاً بدلاً من الحصان. ولم يتحدث قطّ عن القضايا ذات الأهمية العامة، رغم أنه ظل يسيطر على شؤون فلورنسا الخارجية طيلة ما يزيد على ثلاثين عاماً. وكان يعطي أموالاً للصدقة والأعمال الخيرية، ويحافظ على روابطه مع طبقة فلورنسة التجارية. وقام كوزيمو بتمويل كل أنواع المباني العامة التي كانت تغذّي افتخار الفلورنسيين بمدينتهم. وعندما كان يبني قصراً لنفسه ولأسرته في بلدة فيزول القريبة، رفض التصاميمَ المنمقةَ التي رسمها له برونيليتشي، واختار بدلاً منها تركيباً متواضعاً صمّمه مايكيلوزو، وهو رجل من أصول فلورنسية متواضعة. وكان القصر رمزاً لاستراتيجية كوزيمو ـ كله بساطة من الخارج، وأناقةٌ وغنىً وفيرٌ من الداخل.

وأخيراً مات كوزيمو في سنة 1464، بعد أن حكم ثلاثين عاماً. فأراد مواطنو فلورنسا أن يقيموا له ضريحاً عظيماً، وأن يحيوا ذكراه باحتفالات جنائزية معقدة ومتقنة. ولكنه كان قد أوصى، وهو على فراش الموت، أن يدفن بدون «أي أبهة أو مواكب استعراضية». وبعد ذلك بستين عاماً، حيّاه ماكيافيللي باعتباره أحكم الأمراء جميعاً «لأنه كان يعلم أن الأشياء غير العادية التي تشاهَدُ وتظهر في كل ساعة تجعل الرجال موضع الحسد أكثر من الأشياء التي تتم بالفعل وتغطيها اللياقة والاعتدال».

التفسير

كان بائع الكتب فيسبا سيانودا بيستيشي، صديقاً مقرباً لكوزيمو، فكتب عنه ذات مرة: «وكلما أراد أن يحقق شيئاً، كان يحرص على أن تظهر المبادرة إليه من آخرين بدلاً منه، وذلك للتخلص من الحسد بقدر المستطاع». وكان من بين التعابير المفضلة عند كوزيمو قوله: «الحسد

عشبة ينبغي عدم إروائها». فقد تفهم كوزيمو قوة الحسد في بيئة ديمقراطية، ولذلك تجنب كل مظاهر العَظَمَة. وليس معنى ذلك أنه ينبغي خَنْقُ العظمة، ولا أن العادي المبتذل هو وحده الذي ينبغي أن يعيش ويبقى؛ بل إن من الواجب ممارسة لعبة المظاهر. والحقيقة أن حسد الجماهير الخفي والخبيث، يمكن إبعاده بسهولة: اظهر كواحد منهم في الأسلوب والقيم. وأقم تحالفات مع مَنْ هم دونك، وارفعهم إلى مراكز سلطة، لتضمن تأييدهم لك في أوقات الحاجة. وإياك أن تزدهي بعرض ثروتك. أما مدى النفوذ الذي اشترته لك ثروتك، فَخَبِّئْهُ بعناية. وأظهر احترامك للآخرين بشكل بارز، وكأنهم أقوى منك. فقد أتقن كوزيمو ميديتشي هذه اللعبة، إذ إنه كان فنان احتيال بالمظاهر شديد البراعة. ولم يكن أحد يستطيع سبر غور مدى سلطته ونفوذه ـ فمظهره المتواضع كان يخفي حقيقته.

يختبىء الحسود بعناية مثل مرتكب الذنب الشهواني السرّيّ، ويصبح مخترعاً لحيل ومخطّطات لا نهاية لها لإخفاء نفسه وراء الأقنعة. وهكذا فإنه قادر على التظاهر بتجاهل تفوق الآخرين الذي يأكل قلبه، وكأنه لم يرهم، ولم يسمعهم، ولم يَعِ بوجودهم، ولم يسمع بهم قطّ. وهو متقن لفن التمثيل. وهو من جهة أخرى يحاول بكل قوته أن يتواطأ، وبذلك يمنع أي شكل من أشكال التفوق من الظهور في أي وضع. فإذا ظهرت حالات التفوق هذه ألقى عليها الغموض والخمول والنقد المفرط والسخرية والتشهير كالعلجوم الذي يبصق السمّ من وكره الطينيّ. وهو من جهة ثالثة يقوم بلا انقطاع برفع الأشخاص التافهين وضئيلي الجودة، وحتى الناقصين في بعض أنماط النشاط.

آرثر شوبنهاور
1788 ـ 1860

فإياك أن تصل بك الحماقة إلى حد الاعتقاد بأنك تثير الإعجاب عندما تزدهي باستعراض الخصال التي ترفعك فوق الآخرين. ذلك أنك عندما تُشْعِرُ الآخرين بتدنّي مكانتهم، فإنما تثير في نفوسهم «الإعجاب التعيس»، أو الحسد، الذي يقضمهم حتى يقوضوا مكانتك بطرق لا تستطيع التنبؤ بها. فالأحمق هو الذي يتحدى آلهة الحسد بالتفاخر باستعراض انتصاراته. أما صاحب السلطة الذكيّ فيفهم أن مظهر التفوق على الآخرين ليست له أهمية بالمقارنة مع حقيقة ذلك التفوق المخفاة.

من بين جميع اضطرابات الروح، يبقى الحسد هو الشيء الوحيد الذي لا يعترف به أحد.

(بلوتارخ، 46 ـ 120م).

مفاتيح السلطة

يمضي الحيوان البشري وقتاً شاقاً في التعامل مع مشاعر النقص التي تنتابه. ففي مواجهة مهارة متفوقة، وموهبة، وسلطة نفوذ، كثيراً ما

نصاب بالقلق وزعزعة الاستقرار؛ وسبب ذلك هو أن معظمنا نملك شعوراً متضخماً بأنفسنا، وعندما نلتقي بأناس يتفوقون علينا، فإنهم يبينون لنا أننا في الواقع عاديون، أو أننا على الأقل لسنا من الألمعية بالدرجة التي كنا نظنها. وهذا الاضطراب في صورتنا عن أنفسنا لا يمكن أن يستمر طويلاً بدون أن يثير فينا عواطف قبيحة. ففي بادىء الأمر نشعر بالحسد. فلو كانت لدينا الخصلة أو البراعة التي لدى الشخص المتفوق، لكنا سعداء. ولكن الحسد لا يأتينا بأية راحة، ولا يقرّبنا من التساوي مع المتفوق. بل إننا لا نعترف بأننا نشعر به، لأن المجتمع يكشّر إزاءه ـ ذلك أن إظهار الحسد يعني الاعتراف بالشعور بالنقص. فنحن قد نعترف لأصدقائنا المقربين برغباتنا السرِّيَّة غير المتحققة. ولكننا لا نعترف أبداً بشعورنا بالحسد. وهكذا يغوص مختفياً تحت الأرض. فنموه بطرق كثيرة، كالعثور على أسس لانتقاد الشخص الذي يجعلنا نُحِسُّ به. وقد يقول الواحد مِنّا لنفسه: «ربما يكون أذكى منّي، ولكنه لا يملك أخلاقاً أو ضميراً». أو: «ربما تكون لديه سلطة أكثر منّي، ولكن سبب ذلك أنه يغشّ». وإذا لم نشهِّر به، فقد نمدحه بشكل مفرط ـ وذلك شكل متنكر مموه من أشكال الحسد.

إن هناك استراتيجيات عديدة لمعالجة عاطفة الحسد الخفيه المدمرة.

فأولاً: سلِّم بحقيقة أنه سيكون هناك أناس متفوقون عليك بطريقةٍ مّا، وكذلك بحقيقة أنك قد تحسدهم. ولكن اجعل مثل هذا الشعور حافزاً دافعاً للتساوي معهم، والتفوق عليهم يوماً مّا. أما إذا تركت الحسد يتجه إلى الداخل، فإنه سوف يسمِّم الرّوح. وإذا طردته إلى الخارج، فقد يسمو بك إلى ارتفاعات أعظم.

كما يقول المثل، فإنه ليس كبيراً عدد الرجال الذين يستطيعون أن يحبوا صديقاً مزدهر الحظ دون أن يشعروا بالحسد؛ وأما ذمن الحسود، فإن السُّمّ الزعاف يلتصق به ويضاعف كل الآلام التي تأتيه بها الحياة. فعليه أن يداوي جراحه بنفسه، وهو يشعر بأن سعادة شخص آخر هي لعنةٌ له.

آسخيلوس
525 ـ 456 ق.م.

وثانياً: إفهم أنك عند حصولك على السلطة، فإن مَنْ هم دونك سوف يحسدونك أنت. وقد لا يظهرون ذلك لك، ولكنه شيء محتوم. فلا تتقبل بسذاجةٍ الواجهةَ التي يعرضونها عليك. واقرأ بين سطور

نقدهم، وملاحظاتهم الساخرة، وعلامات الطعن من الظهر، والمديح المفرط الذي يُهَيِّىء لسقوطك، ونظرة الغضب الشزراء في العين. فنصف المشكلة مع الحسد تأتي عندما لا نفطن إليه إلاّ بعد فوات الأوان.

وأخيراً: فعندما يحسدك الناس، توقّع أنهم سيعملون ضدك بأسلوب غادر خفيّ. فسيضعون عقبات في طريقك لا تتوقعها ولا تتنبأ بها، أو لا تستطيع تتبّعها إلى مصادرها. فمن الصعب أن تدافع عن نفسك ضد ذلك النوع من الهجوم. وما إن تدرك أن الحسد في أساس مشاعر الشخص تجاهك، حتى يكون الأوان قد فات في معظم الأحيان: ولا ينجم عن تعلُّلِكَ بالمعاذير، وتواضعك المزيف، وأعمالك الدفاعية، سوى تفاقم المشكلة. وبما أن تجنب خلق الحسد في المقام الأول أسهل بكثير من التخلص منه بعد حدوثه، فإن عليك أن تخطط في استراتيجيتك، أن تستبقه قبل أن ينمو. فكثيراً ما تكون أعمالك ذاتها هي التي تثير الحسد، وكذلك عدم وعيك بها. فعندما تعي الأعمال والصفات تخلق الحسد، فإنك تستطيع اقتلاع أضراسه قبل أن تقضمك قضماً تدريجياً حتى الموت.

يوسف وقميصه

وأما إسرائيل فأحبّ يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته. فصنع له قميصاً ملوناً... فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه. فقال بعضهم لبعض: «هو ذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلمّ نقتله ونطرحه في إحدى الآبار، ونقول وحشٌ ردىء أكله، فنرى ماذا تكون أحلامه».

العهد القديم
سِفْرُ التكوين،
37: 3 ـ 20

كان كيركغارد يعتقد أن هناك أنماطاً من الناس تخلق الحسد، وهم مذنبون في إثارته كذنب الذين يحسون به في أنفسهم. وأوضح هذه الأنماط نعرفه جميعاً: ففي اللحظة التي يحدث لهم فيها شيء طيب، سواء عن طريق الحظّ، أم عن طريق التصميم، فإنهم يصرخون بذلك علناً. والحقيقة أنهم يحصلون على السرور من جعل الناس يشعرون بالنقص. فهذا النوع واضح، ولا أمل فيه. غير أن هناك آخرين يثيرون الحسد بطرق خفية ولا شعورية، ويقع على عاتقهم جزء من اللوم في المشاكل التي تحيق بهم. وعلى سبيل المثال، كثيراً ما يكون الحسد مشكلة لمن لديهم موهبة طبيعية عظيمة.

كان السير والتر رالي، من ألمع رجال بلاط آليزابيث الأولى ملكة

إنكلترا. فقد كانت لديه مهارات كعالِم. وقد نظم أشعاراً لا يزال من المعترف به أنها من أجمل كتاباتِ عصره. وكان قائداً مجرباً للرجال، وصاحبَ مشاريعِ مغامراً مقداماً، وقبطاناً بحريّاً عظيماً. وكان، فوق هذا كله، رجلَ حاشيةٍ وسيماً وجريئاً شق طريقه بجاذبيته حتى صار واحداً من ذوي الحظوة لدى الملكة. غير أن الناس كانوا يسدون طريقه حيثما ذهب. وفي آخر الأمر تعرض لسقوط رهيب من مكانة الحظوة أدى به إلى السجن، وأخيراً إلى فأس الجلاّد.

ولم يستطع رالي أن يفهم المعارضة العنيدة التي لقيها من رجال الحاشية الآخرين. فلم يَرَ أنه لم يقم بأية محاولة لإخفاء درجة مهاراته ومؤهلاته. ولم يكتفِ بذلك، بل فرض تلك المهارات والمؤهلات على الجميع، وتفنن في عرض مواهبه المتعددة الأوجه، ظناً منه أنها تثير إعجاب الناس وتكسبه أصدقاء. والحق أنها أكسبته أعداءً صامتين، وهم الذين شعروا بالنقص تجاهه، فراحوا يعملون كل ما في وسعهم لتدميره في أية لحظة يتعثر فيها أو يرتكب أخفّ غلطة. وفي خاتمة المطاف، كان السبب الذي أعدم من أجله هو الخيانة. ولكن الحسد يستخدم أي غطاء يجده كقناع لقوته التدميرية.

وكان الحسد الذي استدرجه السير والتر رالي من أسوأ الأنواع: فقد أوحت به موهبته الطبيعية، وفضله وكياسته، التي كان يشعر أن أفضل طريقة لعرضها، هي: إبرازها في كمال ازدهارها. فالمال يستطيع الآخرون أن يحصلوا عليه؛ وكذلك السلطة. أما الذكاء المتفوق، والمظهر الوسيم، والجاذبية الآسرة، فهي مؤهلات لا يستطيع أحد أن يكتسبها. فالكاملون بطبيعتهم ينبغي أن يفعلوا أقصى ما في استطاعتهم لإخفاء ألمعيتهم، مظهرين عيباً أو اثنين، لإبعاد الحسد قبل أن يغرس جذوره فيهم. فمن الأخطاء الساذجة الشائعة، أن تعتقد أنك تأسر الناس بمواهبك الطبيعية، بينما هم في الواقع آخذون بكراهيتك.

ومن الأخطار العظيمة في مملكة السلطة التحسن المفاجىء في

مأساة القبر

[عندما شاهد البابا يوليوس لأول مرة تصميم مايكل آنجيلو لقبره]، سرّه ذلك كثيراً إلى درجة أنه بادر على الفور إلى إرسال الفنان إلى كارارا ليقتلع له الرخام الضروري، وأصدر تعليماته إلى آلامانو سالفياتي الفلورنسي، كي يدفع له ألف دوكات لهذا الغرض. وظل مايكل آنجيلو في الجبال أكثر من ثمانية أشهر، مع اثنين من عماله وحصانه، ودون أية إمدادات أخرى عدا الطعام... وبعد اقتلاع وانتقاء ما يكفي من الرخام، نقله إلى ساحل البحر، وترك عنده واحداً من رجاله لشحنه، وعاد إلى روما.

... وكانت كمية الرخام هائلة، بحيث إنها عندما نُشِرَت في ميدان المدينة صارت مثار إعجاب الجميع ومسرةً للبابا الذي راح يغدق على مايكل آنجيلو أنواعاً من

الحظ ـ كترفيع غير متوقع، أو نصر أو نجاح يبدو قادماً من اللامكان. فمن المؤكد أن ذلك سيثير الحسد بين أترابك السابقين.

عندما تم ترفيع رئيس الأساقفة دي ريتز إلى رتبة الكردينال، في سنة 1651، كان يعرف جيداً أن كثيراً من زملائه السابقين قد حسدوه. وكان يفهم الحماقة في تنفير مَنْ هُمْ دونَه ففعل كل ما في وسعه لتخفيض قيمة فضله، ويؤكد دور الحظّ في نجاحه. ولكي يريح الناس، كان يتصرف بتواضع واحترام، كأنه لم يتغير شيء (وفي الحقيقة أنه كان عندئذ يملك طبعاً سلطةً أكبر من ذي قبل بكثير). وكتب: «إن تلك السياسات الحكيمة، (تركت أثراً طيباً بتقليل الحسد الذي حُمِلَ ضدي، والذي هو أعظم الأسرار جميعاً». اتبع مثال دي ريتز. فأكّد بشكل خفي ذكي على حسن حظك، واجعل سعادَتَكَ تبدو شيئاً متاحاً أكثر للناس الآخرين، والحاجةَ إلى الحسد أقلَّ حدّة. ولكن إحرص على أن لا تتكلف تواضعاً مزيفاً يتمكن الناس من استشفاف ما وراءَهُ بسهولة. لأن ذلك لن يجعلهم إلاَّ أكثر حسداً. فيجب أن يكون التمثيل جيداً: إذ إن تواضعك، وانفتاحك على الذين تركتهم خلفك ينبغي أن يبدو أصيلاً، فأي لمحة من عدم الإخلاص ستجعل مكانتك الجديدة أكثر قهراً وجوراً. وتذكّر: إنه على الرغم من مكانتك الرفيعة، فإن تنفير أترابك السابقين لن يفيدك في شيء. لأن السلطة تتطلب قاعدة تأييد عريضة وصلبة، والحسد قادر على تدميرها بصمت.

إن السلطة السياسية من أي نوع تخلق حسداً. ومن أفضل الطرق لإبعاده قبل أن تنمو له جذور راسخة أن يبدو المرء غير طموح. فعندما مات إيڤان الرهيب، كان بوريس غودونوف يعرف أنه هو الوحيد القادر على قيادة روسيا من بين الموجودين على المسرح. ولكن لو أنه سعى إلى المنصب بتشوق لأثار الحسد والشك في صفوف البويار. وهكذا رفض التاج، لا مرة، بل مراراً عديدة. فجعل الناس يصرون على توليه العرش. واستخدم جورج واشنطن الاستراتيجية نفسها بنجاح كبير،

التكريم والمعروف لا حصر لها. وعندما شرع الفنان يعمل بِقِطَعِ الرخام زاره البابا في منزله مراراً متكررة، وهو يتحدث إليه عن القبر وأشياء أخرى كما لو كان يتحدث إلى أخيه نفسه. ولكي يتمكن من الذهاب إليه بسهولة، أمر بوضع جسر يمتد من الممر إلى غرف مايكل آنجيلو، ليزوره عن طريقه بصورة سرية خاصة.

وكانت هذه الأنواع المتواترة من التجميل مصدر حسدٍ كثير (كما هي الحال على الغالب في البلاط)، ويعد الحسد كان هناك اضطهاد لا نهاية له. إذ أن برامانتي، المعماري، الذي كان البابا يحبه، قد جعل البابا يغيّر رأيه فيما يتعلق بإقامة النصب، فأخبره ـ كما يقول العامة ـ أن من المكروه أن يبني المرء قبره في حياته، وحكى له قصصاً أخرى، فقد كان الخوف والحسد يحرضان برامانتي، لأن حكمة مايكل آنجيلو قد فضحت كثيراً من أخطائه ونظراً لأنه لم يكن لديه أي شك في أن مايكل آنجيلو كان يعرف تلك الأخطاء، فقد سعى دائماً لإبعاده عن روما، أو على الأقل لحرمانه من الحظوة لدى البابا، ومن المجد والفائدة اللذين كان يمكن أن يكسبهما باجتهاده. فنجح في قضية القبر. وليس من شك في أنه لو أُتيح لمايكل آنجيلو أن يكمله حسب مخططه الأول، مع وجود مثل ذلك المجال الواسع لإظهار قيمته، لما استطاع أي فنان آخر،

مهما كانت شهرته (وليكن في هذا الكلام حسد)، أن يتنزع منه المكانة العليا التي كان سيحتلها

حياة مايكل آنجيلو آسكانيوكونديفي، 1553

أولاً: في رفضه الاحتفاظ بمنصب القائد العام للجيش الأميركي، وثانياً: في مقاومة منصب الرئاسة. وفي الحالتين جعل نفسه أكثر شعبيةً من أي وقت مضى. فلا يستطيع الناس أن يحسدوا السلطةَ التي أعطوها بأنفسهم لمن لا يبدو راغباً فيها.

وعند الكاتب والسياسي الآليزابيثي السير فرانسيس بيكون أن أحكم سياسة للأقوياء ذوي السلطة هي أن يخلقوا نوعاً من الإشفاق عليهم كأنّ مسؤولياتهم عبء وتضحية. فكيف يمكن للمرء أن يحسد رجلاً حمل على عاتقه عبئاً ثقيلاً من أجل المصلحة العامة؟ مَوِّه سلطتك على أنها نوع من التضحية بالنفس وليست مصدراً للسعادة، وعندئذٍ تجعلها تبدو أقل قابلية للحسد. ركِّز على متاعبك، فتحول خَطَراً محتملاً (الحسد) إلى مصدر للدعم المعنوي (الإشفاق). ومن الخُدَعِ المماثلة أن تلمح بأن حظك السعيد سيفيد مَنْ حولك. ولكي تفعل ذلك فإنك محتاج إلى فتح خيوط محفظتك، كما فعل سيمون، الجنرال الغني في أثينة القديمة الذي أعطى بسخاء وبجميع أنواع الطرق لمنع الناس من حسد النفوذ الذي كان قد اشتراه في السياسة الأثينيّة. فدفع ثمناً غالياً لإبعاد حسدهم. ولكن ذلك أنقذه في آخر الأمر من عزلهم له ونفيه من المدينة.

واستنبط الرسام ج .م .و. تيرنر طريقةً أخرى للعطاء كي يبعد عن نفسه حسد زملائه الفنانين، لأنه أدرك أن ذلك الحسد هو أعظم عقبة في طريق نجاحه. فقد لاحظ أن مهاراته التي لا تضاهى في الألوان جعلتهم يخشون تعليق لوحاتهم إلى جوار لوحاته في المعارض، فأدرك أن خشيتهم من شأنها أن تتحول إلى حسد، وبالتالي تجعل من الصعب عليه أن يجد معارض يعرض فيها رسومه. ولذا فقد عُرِفَ عن تيرنر أنه كان في بعض الأحيان يطمس الألوانَ في لوحاته بالهباب مؤقتاً كي يكسب حسنَ نية زملائه.

ولإبعاد الحسد يوصي غراسيان بأن يُظْهِرَ الأقوياءُ ضعفاً، أو حماقةً اجتماعية صغيرة وثانوية، أو رذيلةً غيرَ مؤذية. أَعْطِ حاسديك شيئاً

يقتاتون عليه، لإلهائهم عن خطاياك الأهمّ. وتذكَّر: إن الحقيقة هي المهمة والمؤثرة. فقد تضطر إلى ممارسة التلاعب بالمظاهر. ولكنك في خاتمة المطاف ستحصل على ما هو مهم: السلطة الحقيقية. ففي بعض الأقطار العربية، يتجنب المرء إثارة الحسد بعمل ما عمله كوزيمو دي ميديتشي، أي بأن لا يعرض ثروته إلاَّ في داخل بيته. فطبِّق هذه الحكمة على شخصيتك.

واحذر بعض أقنعة الحسد. فالمديح المفرط علامةٌ تكاد تكود مؤكدة على أن مادحك يحسدك. فإمّا أنه يهيئك لسقطة ـ لأنه سيكون من المستحيل عليك أن ترتفع إلى مستوى مديحه، أو أنه يشحذ نصاله وراء ظهرك. وفي الوقت نفسه، فإن أولئك المفرطين في انتقادك، أو الذين يشهِّرون بك علناً، قد يكونون من حسادك أيضاً. فتعرف على سلوكهم باعتباره حسداً متنكراً، وبذلك تنجو من مصيدة التقاذف المتبادل بالطين، أو من أخذ انتقادهم على محمل الجدّ المؤذي. فاحصل على انتقامك بتجاهل وجودهم التافه.

لا تحاول أن تساعد حاسديك أو تسدي لهم جميلاً أو معروفاً؛ إذ أنهم سيعتقدون أنك تعاملهم باستعلاء المتنازِل. فمحاولة جو أورتون مساعدة هاليويل في العثور على معرض لأعماله لم ينجم عنها إلاَّ تشديد شعور عشيقه بالنقص وبالحسد. فعندما يكشف الحسد عن حقيقته، فإن الحل الوحيد كثيراً ما يكون هو الهرب من أمام الحاسدين، وتركهم ينضجون في جحيم خلقوه بأنفسهم.

وأخيراً: كُنْ على وعي بأن بعض البيئات تؤدي إلى الحسد أكثر من غيرها، وآثار الحسد أخطر بين الزملاء والأتراب، حيث توجد قشرة من المساواة. كما أن الحسد مدمر في البيئات الديمقراطية، حيث يُنْظَرُ باحتقار إلى حالات استعراض السلطة المكشوفة. فكُنْ حساساً للغاية في مثل هذه البيئات. فقد لاحقت السلطاتُ الضريبيةُ السويديةُ صانعَ الأفلام إنغمارَ بيرغمان لأنه برز في بلد يكشّر إزاء البروز فوق عامة الناس.

هل اعترف أي شخص اعترافاً جدياً بأنه يشعر بالحسد؟ إن في الحسد شيئاً يتفق الجميع على أنه أكثر مجلبة للمخزي والعار من أية جريمة شريرة. ولا يكتفي الجميع بإنكار الحسد، بل إن النوع الأفضل من الناس يميلون إلى عدم التصديق عندما يُعْزَى الحسد على نحو جادٍّ إلى رجل ذكي. ولكن بما أنه يستقر في القلب، لا في العقل، فليست هناك أية درجة من العقلانية يمكن أن تقدم للمرء ضمانة ضده

قصة: بيللي باد
هيرمان ملفيل
1819 ـ 1891

ويكاد يكون من المستحيل تجنب الحسد في مثل هذه الحالات. وليس هناك ما تستطيع أن تفعله سوى تقبلها بكياسة وعدم أخذ أية حالة منها على محمل شخصي. وكما قال هنري ديفيد ثورو، (الكاتب الأميركي، 1817 ـ 1862): «الحسد هو الضريبة التي يجب أن يدفعها التميُّز».

صورة: حديقة من الأعشاب. قد لا تغذيها ولكنها
تنتشر عندما تروي الحديقة. وقد لا ترى كيف،
ولكنها تسيطر، فهي طويلة وقبيحة، مانعةً أيَّ
شيء جميل من الازدهار. فقبل فوات الأوان
لا تُرَوِّ بلا تمييز، بل دمِّر أعشاب الحسد
بعدم إعطائها أي شيء تتغذى عليه

الشاهد: بين حين وآخر، اكشف عيباً غير مؤذٍ في شخصيتك. لأن الحاسدين يتهمون أكمل الناس بأن خطيئتهم هي عدم ارتكابهم لأية خطيئة، فيصبح الحاسدون مثل آرغوس (عملاق خرافي له مائة عين، وعند موته تحولت عيونه إلى ذيل الطاووس، حسبما تزعم الأساطير الإغريقية: المترجم) كلهم عيون لتصيد العيوب في أي شخص متميز، فذلك عزاؤهم. فلا تترك الحسد ينفجر بسمومه ـ بل تَصَنَّع كبوةً مّا في الشجاعة أو الذكاء، لكي تنزع سلاح الحاسد مسبقاً. عليك أن تهز رداءك الأحمر أمام قرون الحسد، كي تنقذ خلودك.

(بلتازار غراسيان، 1601 ـ 1658).

الانقلاب

إن السبب الموجب للحرص على الحساد هو كونهم غير مباشرين إلى حد كبير، إذ أنهم يجدون طرقاً لا تحصى للنيل منك بتشويه سمعتك، أو إضعاف مكانتك. ولكن الخَطْوَ حَوْلَهُمْ بحرصٍ كثيراً ما

اعرف كيف تنتصر على الحسد والحنث، ورغم أن الاحتقار هنا فيه تبصّر وحصافة فإنه غير ذي أهمية تذكر. فالشهامة أفضل. فالكلمة الطيبة عن شخص يتحدث عنك بالسوء لا يستطيع أي وصف أن يفيها حقها من الجودة. فليس هناك انتقام أكثر بطولة من ذلك الذي تأتي به المزايا والمنجزات التي تثبط الحاسد وتعذبه. فكل ضربة حظ طيب هي فتلةٌ إضافية تلوي الحبل حول عنق ذي النية السيئة، كما أن فردوس المحسود هي جحيم الحاسد. إن تحويل حظك السعيد إلى سُمّ لأعدائك يُعْتَبَرُ أقسى عقوبةٍ يمكنك إيقاعها بهم. فالحسود لا يموت مرة واحدة فقط، بل بقدر عدد المرات التي يَسْمَعُ

يجعل حسدهم أسوأ. فهم يشعرون بأنك حذر، فيُسَجَّلُ ذلك على أنه علامة أخرى على تفوقك. ولذا فإن عليك أن تتصرف قبل أن يعمّق الحسد جذوره.

غير أن الحسد عند وجوده، سواء بخطإٍ منك أم لا، فإن من الأفضل أحياناً أن تتكلف نهجاً معاكساً: أَظْهِرْ أقصى قدر من الاحتقار لحسادك. وبدلاً من إخفاء كمالك، اجعله واضحاً للعيان. واجعل كلَّ نصرٍ جديد فرصةً لجعل الحاسدين يَتَلَوَّوْن، فيصبح حظُّك الطيبُ وسلطتُك جحيمَهُم الحيّ. فإنْ حصلت على منصب سلطة لا يرقى إليه الشك، فإنَّ حسدهم لن يؤثر عليك، وستحصل على أحسن انتقام: لأنك ستكون واقعاً في فخ الحسد، ولكنك حرٌّ في سلطتك.

فهكذا انتصر مايكل آنجيلو على المهندس المعماري الحقود بْرَامَانتِي الذي حرض البابا جوليوس ضد تصميم مايكل آنجيلو لقبره. فقد كان برامانتي يحسد مايكل آنجيلو على مواهبه الشبيهة بالإلهية، وإلى هذا الانتصار ـ بإفشال مشروع الضريح ـ فكّر برامانتي بإضافة انتصارٍ آخر، عن طريق دفع البابا إلى توصية مايكل آنجيلو برسم اللوحات الجدارية لكنيسة سِيسْتين. فالمشروع سيستغرق أعواماً لا ينجز أثناءها مايكل آنجيلو مزيداً من منحوتاته الرائعة. وبالإضافة إلى ذلك لم يكن برامانتي يعتقد أن براعة مايكل آنجيلو في الرسم تعادل براعته في النحت. وبذلك فإن عمله في الكنيسة سيتلف صورته كفنان كامل.

ورأى مايكل آنجيلو الفخ فأراد أن يرفض الطلب، ولكنه لم يكن قادراً على رفض طلبٍ للبابا، فقبله بلا تذمّر. غير أنه استخدم حسد برامانتي كحافز يصعد به إلى ارتفاعات أعلى، فجعل رسومه في تلك الكنيسة أكمل أعماله كلها. وفي كل مرة سمع بها برامانتي أو رآها كان يقهره حَسَدُهُ ـ وهذا أحلى وأدوم انتقام يمكنك إنزاله بالحاسد.

فيها محسودُه صوتَ المديح طيلة حياته؛ وخلودُ شهرة الأخير هو المؤشر لمقدار عقوبة الأول. فالمحسود خالد في مجده، والحاسد في تعاسته. وبوق الشهرة الذي يصدح بخلود الأول يبشر بموت الآخر، المحكوم عليه بالاختناق بحسده حتى الموت.

بلثازار غراسيان
1658 ـ 1601

القانون

47

لا تتجاوز العلامة التي استهدفتَها وفي النصر، إِعْرِفْ متى تتوقف

الحكم

كثيراً ما تكون لحظة الانتصار هي لحظة الخطر الأكبر. ففي قلب الانتصار قد تدفعك الغطرسة والثقة المفرطة إلى ما وراء الهدف الذي وضعته نُصْبَ عينيك. وبالذهاب إلى أبعد مما ينبغي، فإنك تخلق أعداءً أكثر من الذين تدحرهم. فلا تدع النجاح يدير رأسك. إذْ لا بديل عن الاستراتيجيّة والتخطيط الحريص. ضع نُصْبَ عينيك هدفاً، وعندما تصل إليه، توقف.

انتهاك القانون

في سنة 559 قبل الميلاد، جمع شابٌّ يدعى كورش جيشاً ضخماً من قبائل فارس المبعثرة، وزحف به ضد جده آستياجس ملك الميديّين. فدحر آستياجس بسهولة، وتوج نفسه ملكاً على ميديا وفارس، وشرع في تكوين الإمبراطورية الفارسية. وتوالت انتصاراته في تتابع سريع. فدحر كرويسوس، حاكمَ ليديا (غربي آسيا الصغرى)، ثم غزا الجزر الأيونيّة (غربي اليونان) وممالك أخرى أصغر منها؛ وزحف على بابل فسحقها. وعندئذٍ راح يعرف بلقب كورش الأكبر، ملك العالم.

وبعد الاستيلاء على ثروات بابل، صَوَّبَ نظره إلى الشرق، إلى قبائل الماساجيتاي نصف الهمجية، ومملكتهم الشاسعة على بحر قزوين. وكانوا جنساً محارباً شرساً بقيادة الملكة توميريس. وكانت تنقصهم ثروات بابل. ولكن كورش قرر مهاجمتهم على أية حال، معتقداً أنه فوق البشر وغير قابل للهزيمة، ولذا فسوف يسقط الماساجيتاي أمام جيوشه الجرارة، مما يجعل إمبراطوريته هائلة.

وهكذا زحف كورش في سنة 529 ق .م، نحو نهر آراكسيس العريض، بوابة مملكة الماساجيتاي. وحالما أقام معسكره على ضفته الغربية تلقى رسالة من الملكة توميريس تقول له فيها: «يا ملك الميديين، أنصحك بالتخلّي عن هذا المشروع، لأنك لا تدري إن كان سينفعك بأي شيء في آخر الأمر. فاحكم شعبك، وحاول أن تتحمل رؤيتي وأنا

الديك المغرور

تشاجر ديكان على مزبلة. وكان أحدهما أقوى من الآخر، فتغلّب عليه وطرده من على المزبلة.

فتجمعت الدجاجات كلها حول ذلك الديك وراحت تمتدحه. وأراد الديك أن تُعْرَفَ قوتُهُ وأمجاده في الساحة المجاورة، فطار إلى قمة مخزن الغلال، وأخذ يصفق بجناحيه ويصيح بصوتٍ عالٍ: «انظرو إليّ جميعاً. أنا الديك المنتصر. وليست لأي ديك آخر في العالم قوة كقوتي هذه».

ولم يكد الديك ينتهي حتى انقض عليه نسر قتله وأمسك به في مخالبه، وحمله إلى عشِهِ،

خرافات
ليو تولستوي،
1910 - 1828

أحكم شعبي. ولكنك بالطبع سترفض نصيحتي، لأن آخر شيء تتمناه هو أن تعيش في سلام». وكانت توميريس واثقة من قوة جيشها، ولا ترغب في تأجيل المعركة المحتومة، فعرضت سحب قواتها من جانبها من النهر، متيحةً لكورش أن يعبر مياهه بسلام ليقاتل جيشها على الضفة الشرقية، إن كانت تلك رغبته.

فوافق كورش، ولكن بدلاً من الاشتباك مع العدو مباشرة، قرر أن يمارس خدعة. كان الماساجيتاي لا يعرفون إلاَّ قليلاً من الكماليات الباذخة. وما إن عبر كورش وأقام معسكره على الضفة الشرقية، حتى وضع مائدة ضخمة لوليمة متقنة، مليئة باللحوم والأطايب والأفاوية والشراب القويّ. ثم ترك أضعف جنوده في المعسكر، وانسحب مع باقي الجيش نحو النهر. وسرعان ما هاجمت المعسكر مفرزة كبيرة من جنود الماساجيتاي، فقتلت الجنود الفارسيين جميعاً في معركة طاحنة، ثم غلبت عليهم شهوتهم للوليمة الخرافية المتروكة، فأكلوا وشربوا كل ما طاب لهم. وناموا بعد ذلك حتماً. فعاد الجيش الفارسي إلى المعسكر تلك الليلة، وقتل كثيراً من الجنود النائمين، وأسر الباقين. وكان من بين الأسرى قائدهم الجنرال الشاب، سْبَارْغابِيزِيسْ، ابن الملكة توميريس.

وعندما علمت الملكة بما حدث، أرسلت برسالة إلى كورش توبِّخه فيها على استعمال الخُدَع لدحر جيشها، وكتبت تقول: «أنصت إليّ الآن وسأنصحك لمصلحتك نفسها: أعد إليَّ ابني، واترك بلدي ومعك قواتك سليمة متماسكة. واقنع بنصرك على ثلث الماساجيتاي. فإذا رفضت فإنني أقسم بإله الشمس سيدنا أن أعطيك دماً أكثر مما تستطيع شربه، رغم كل شراهتك». فسخر منها كورش. ورفض إطلاق سراح ولدها. وصمم على سحق هؤلاء الهمج.

وعندما رأى ابن الملكة أنه لن يطلق سراحه، لم يُطِق الإذلال، فقتل نفسه. وعندما علمت توميريس بموت ابنها أغرقها الخبر في الحزن والغضب. فجمعت كل القوات التي استطاعت حشدها في مملكتها،

وأثارت حماسها بهوس الانتقام، واشتبكت مع قوات كورش في معركة عنيفة ودامية. وأخيراً انتصر الماساجيتاي، وفي غمرة غضبهم مزقوا الجيش الفارسي شرّ ممزق، وقتلوا كورش نفسه.

وبعد المعركة، بحثت توميريس وجنودها في الميدان عن جثة كورش. وعندما وجدتها قطعت الرأس ودسته في زِقٍّ جلديٍّ للشراب ممتلىءٍ بالدم البشري، صائحةً: «رغم أنني انتصرت عليك، وأعيش الآن، فإنك قد دمّرتني بأخذ ولدي عن طريق الغدر. وانظر كيف أنفذ تهديدي، فلديك ما يشبعك من الدم». وبعد موت كورش، انحلت الإمبراطورية الفارسية بسرعة. وهكذا أدى عمل متغطرس واحد إلى تخريب كل عمل كورش الطيب السابق.

مسلسل الاستجواب

في كل استجواباتك . . . دعني أكرر أن أهم شيء هو أن تكون متنبهاً على الدوام إلى المكان الذي يحسن بك التوقف عنده. فلا شيء يمكن أن يكون أهم من اختتام استجوابك بانتصار. فكثير من المحامين ينجحون في الإمساك بالشاهد وهو يناقض نفسه تناقضاً خطراً؛ ولكنهم لا يكتفون بذلك، فيستمرون في طرح الأسئلة، بحيث تتناقص قوة استجوابهم تدريجياً إلى أن يفقدوا التأثير الذي أحدثته ميزتهم السابقة على المحلفين.

فن الاستجواب
فرانسيس ل. ويلمان، 1913

التفسير

لا شيء يُسْكِرُ أكثر من النصر، ولا شيء أخطر من ذلك.

كان كورش قد بنى إمبراطورية كبرى على أنقاض إمبراطورية سابقة. فقبل ذلك بمائة سنة دُمِّرت الإمبراطورية الآشورية القوية تدميراً كلِّيّاً. وتحولت عاصمتها الرائعة نينوى إلى ركام في الرمال. وقد عانى الآشوريون من هذا المصير لأنهم اندفعوا أكثر مما ينبغي، فدمروا مدينةً ـ دولةً بعد أخرى، حتى فقدوا الإحساس بالغاية من انتصاراتهم، وبتكاليفها كذلك. فتمددوا أكثر من طاقتهم، وخلقوا لأنفسهم أعداء كثيرين تمكنوا آخر الأمر من الاعتصاب معاً ضدهم فدمّروهم.

وتجاهل كورش درس آشور. فلم يعبأ بتحذيرات الكهنة والمستشارين. ولم يقلق بشأن إهانة ملكة. وأدارت رأسَه انتصاراتُهُ الكثيرةُ، فلبّدت ذهنه بالغيوم. وبدلاً من تعزيز إمبراطوريته المتسعة أصلاً، اندفع إلى الأمام. وبدلاً من إدراك كون كل وضع مختلفاً عما سبقه، فقد ظنّ أن كل حرب جديدة ستأتي بالنتائج نفسها التي جاءت بها

سابقتها ما دام يستخدم الأساليب التي يعرفها، وهي القوة التي لا ترحم والخديعة الماكرة.

إفهم: في مملكة السلطة، يجب أن تسترشد بالعقل. فإذا تركت النشوة المؤقتة أو النصر العاطفي يؤثران فيك أو يقودان حركاتك فسيكون في ذلك مقتلك. وعندما تحقق نجاحاً تراجع خطوةً إلى الوراء. وكُنْ حذراً. وعندما تكسب نصراً، إفهم الدور الذي لعبته فيه الظروف الخاصة بوضع مّا. وإياك أن تكرر الأعمال نفسها مرة بعد أخرى. فعلى امتداد التاريخ تتناثر أنقاض إمبراطوريات كانت منتصرة، وجثث قادة لم يستطيعوا أن يتعلموا كيف يتوقفون ويعززون مكاسبهم.

مراعاة القانون

لم يحتل شخص في التاريخ مكانة أضعف ولا أكثر تقلقلاً من مكانة عشيقة الملك. فليست لديها قاعدة سلطة حقيقية أو مشروعة ترتد إليها في أوقات المشاكل أو المتاعب؛ وتحاط العشيقة بقطعان من رجال الحاشية الذين يتوقعون سقوطها من الحظوة بتشوق، وأخيراً، فبما أن مصدر سلطاتها، في العادة، هو جمالها الجسدي، فإن ذلك السقوط محتوم وبغيض لمعظم العشيقات الملكيات.

بدأ ملك فرنسا لويس الخامس عشر يقتني عشيقات رسميات في أوائل أيام عهده. ونادراً ما كان الحظ السعيد لكل امرأة يدوم أكثر من بضع سنين. ثم جاءت مدام دي بومبادور، التي أخبرها عراف أنها ستكون محظية الملك ذات يوم، وذلك عندما كانت طفلة في التاسعة من عمرها تُدْعَى جين بواسّون. فَبَدا ذلك في حينه حلماً سخيفاً، إذْ أنَّ العشيقة الملكية كانت تأتي من الطبقة الأرستقراطية بصورة تكاد تكون دائمة. ومع ذلك فقد آمنت جين بأن من المقدر لها أن تغوي الملك، وسيطرت عليها تلك الفكرة كالهاجس. فعكفت على تدريب نفسها لاكتساب المواهب التي يتعين على محظية الملك أن تملكها ـ من إتقان

الجنرال المتطاول

إننا نقرأ عن أمثلة كثيرة من هذا النوع. فالجنرال الذي يغزو دولة لصالح سيده، ويحرز لنفسه مجداً عظيماً بانتصاره على عدوّه، والذي يحمّلُ جنودَه غنائمَ وفيرة، يكسب بالضرورة عند جنوده وجنود عدوّه ورعايا أميره شهرة عالية إلى درجة قد تجعل نصره منافياً للذوق مثيراً للاشمئزاز وسبباً في تخوف أميره. فبما أن من طبيعة البشر أن يكونوا طموحين، وكذلك شكّاكين، وأن المرء لا يرى حدوداً لحظه السعيد، فإنه ليس من المستحيل أن تثور شكوك مفاجئة في ذهن الأمير نتيجة انتصار الجنرال، فتزيد حدتها بسبب تعبير متعجرف، أو أعمال وقحة يقوم بها ذلك الجنرال. بحيث يصبح من الطبيعي أن يبدأ الأمير بالتفكير في تأمين نفسه ضد طموح جنرالِه.

ولتحقيق ذلك، فإن الوسائل التي تخطر بباله هي إمّا أن يتسبب في مصرع ذلك الجنرال، أو أن يحرمه من تلك السمعة التي كسبها بجيش الأمير وشعبه، فيستخدم الأمير كل وسيلة للبرهنة على أن انتصار الجنرال لم ينجم عن براعته وشجاعته، بل بفعل الحظّ والمصادفة وجبن العدوّ، أو لغفلة الضباط الآخرين الذين كانوا معه في تلك العملية.

نيقولو ماكيافيللي
1469 ـ 1527

للموسيقى، والرقص، والتمثيل، وركوب الخيل. وتفوق في كل واحدة منها. وتزوجت في شبابها رجلاً من طبقة النبلاء الدنيا، مما فتح لها مدخلاً إلى أفضل صالونات باريس. وسرعان ما انتشر خبر جمالها، وموهبتها، وجاذبيتها، وذكائها.

وصارت جين بواسون صديقة مقربة لفولتير، ومونتيسيكيو وغيرهما من الأدمغة العظيمة في ذلك العصر. ولكنها لم تفقد أبداً رؤية الهدف الذي حددته لنفسها من أيام طفولتها. وهو أسر قلب الملك. وكان لزوجها قصر في غابة كان الملك كثيراً ما يقصدها للصيد، فبدأت تمضي كثيراً من وقتها هناك. وراحت تدرس حركات الملك كالصقر، وتحرص على أن يلتقي بها «صدفةً» وهي تتنزه ماشية في أكثر ثيابها إغراءً، أو راكبةً عربتها الفخمة. وبدأ الملك يلاحظها، ويهديها من القنائص التي يمسكها في الصيد.

وفي سنة 1744، ماتت عشيقة لويس المقتناة، الدوقة شاتورو. فانتقلت جين إلى الهجوم. فراحت تضع نفسها في كل مكان يتواجد فيه الملك: في الحفلات التنكرية المقنَّعة في ڤرساي، وفي دار الأوبرا، وفي أي مكان يتقاطع فيه طريقاهما، وحيث تستطيع عرض مواهبها المتعددة من رقص، وغناء، وركوب خيل، وغنج. وأخيراً خضع الملك لمفاتنها. وفي حفلة في ڤرساي في شهر أيلول/ سبتمبر سنة 1745، تم تدشين ابنة الوكيل المصرفي من الطبقة الوسطى رسمياً كعشيقة للملك، وكانت في الرابعة والعشرين. فأُعْطِيَتْ غرفةً خاصةً في القصر، غرفةً يستطيع الملك دخولها في أي وقت يشاء عن طريق مدرج خفي وباب خلفي. ونظراً لأن بعض رجال الحاشية قد غضبوا لاختياره امرأة من أصول متواضعة، فقد جعل منها مركيزة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً أخذت تُعْرَفُ باسم مدام دي بومبادور.

وكان الملك رجلاً يتضايق من أدنى شعور بالسأم مضايقة هائلة غير متناسبة في حجمها مع ما يضايقه. وعرفت مدام دي بومبادور أن إبقاءه

تحت سحرها كان يعني إبقاءه متسلياً أو مستمتعاً. ولهذا الغرض راحت تقيم عروضاً مسرحية متواصلة كانت هي نجمتها في ڤرساي. وترتب حفلات صيدٍ وقنص متقنة وحفلات تنكرية، وأي شيء آخر للمحافظة على لهوه خارج المخدع. وصارت راعية للفنون، ومحكّمة في الأذواق والأزياء في جميع أنحاء فرنسا. ولم ينجم عن كل نجاح جديد لها إلاّ زيادة عدد أعدائها في البلاط. ولكن مدام دي بومبادور أخذت تقاومهم بطريقة جديدة كلياً على عشيقة ملك: أي بتهذيب شديد للغاية. أما النفاجون المتكبِّرون الساخطون على مولدها الوضيع، فقد كسبتهم بالفتنة الساحرة والكياسة الآسرة. وكان أكثر الأمور خروجاً عن المعتاد مصادقتها للملكة، وإصرارها على أن يبدي الملك اهتماماً أكبر بزوجته، ويعاملها بعطف أكثر. وحتى الأسرة المالكة أعطتها تأييدها على مضض رغم حسدها لها. وتتويجاً لمجدها، جعلها الملك دوقة. فراح الناس يشعرون بوطأة نفوذها حتى في السياسة. بل لقد أصبحت وزيرة الشؤون الخارجية الفعلية دون أن تحمل هذا اللقب.

وفي سنة 1751، عندما كانت مدام دي بومبادور في أوج سلطانها، وقعت في أَسْوَءِ أزماتها. فقد ضعفت جسدياً من مسؤوليات منصبها وبدأت تجد صعوبة متزايدة في تلبية طلبات الملك في الفراش. كانت هذه في العادة هي النقطة التي تلقى عندها العشيقة نهايتها، وهي تكافح للحفاظ على مكانتها بينما جمالها آخذ في الذبول. ولكن مدام دي بومبادور كانت لديها استراتيجية. فشجعت الملك على إقامة نوع من المواخير، في متنزه بارك أوسيرف، على أرض ڤرساي. وهناك كان الملك ـ الذي وصل إلى منتصف عمره ـ يستطيع أن يقيم علاقات مع أجمل الفتيات في المملكة.

وكانت مدام دي بومبادور تعرف أن فتنتها، وفطنتها السياسية، قد جعلتا الملك لا يستطيع الاستغناء عنها. إذْ ما الذي كان لديها لتخشاه من فتاة في السادسة عشرة من عمرها، ليست لديها سلطتها أو حضورها؟

كان رجل مشهور كمتسلق للأشجار يقود شخصاً آخر في تسلق شجرة عالية؛ فأمره بقطع الأغصان العليا. وفي تلك الأثناء، عندما بَدَا أن ذلك الشخص كان في خطر عظيم، لم يقل الخبير شيئاً. ولم يتكلم إلاّ عندما كان الرجل نازلاً، وقد وصل في نزوله إلى ارتفاع الإفريز، فصاح به الخبير: «كُنْ حذراً، وراقب خطوتك في نزولك!». فسألته: «لماذا قلتَ له ذلك؟ إنه عند ذلك الارتفاع كان يستطيع أن يقفز إلى الأرض فيكمل نزوله بسهولة إذا شاء».

فقال الخبير: «تلك هي المسألة. فعندما كان الرجل على ارتفاع مدوّخ وكانت

وماذا يهم إذا فقدت مكانتها في غرفة النوم، ما دامت قد بقيت أقوى امرأة في فرنسا؟ ولضمان تلك المكانة زادت في توثيق صداقتها مع الملكة، التي بدأت في الذهاب معها إلى الكنيسة. ورغم أن أعداءها في البلاط شرعوا يتآمرون لإسقاطها من منصبها الرسمي كعشيقة للملك، فقد استمر الملك يحتفظ بها، لأنه كان بحاجة إلى تأثيرها الساحر. ولم تنسحب مدام دي بومبادور من الشؤون العامة ببطء إلاّ عندما اجتذبت نقداً شديداً لدورها في كارثة حرب السنوات السبع (1756 ـ 1763).

وكانت صحة مدام دي بومبادور ضعيفة هشة على الدوام، فماتت وهي في الثالثة والأربعين، في سنة 1764، بعد أن استغرق عهدها كعشيقة عشرين عاماً، وهذه مدة لم يسبق لها مثيل. وكتب عنها الدوق دي كروي: «وتأسف عليها الجميع، لأنها كانت عطوفة تساعد كل شخص يقصدها».

الأغصان مهدة بالانكسار، فقد كان شديد الخوف إلى درجة أنني لم أقل شيئاً. إن الأخطاء ترتكب دائماً عندما يصل الناس إلى الأماكن السهلة».

كان ذلك الخبير منحدراً من أدنى الطبقات. ولكن كلماته كانت تتمشى على نحو كامل مع مفاهيم الحكماء. وفي كرة القدم أيضاً، يقولون إنك بعد أن تركل الكرة فتخرجها من مكان صعب، وتعتقد أن الكرة التالية ستكون أسهل من الأولى، فمن المؤكد أنك ستخطىء وتضيعها

مقالات في التبطل
كينكو، اليابان،
القرن الرابع عشر

التفسير

كانت عشيقة الملك تعي أن سلطتها مؤقتة. فكثيراً ما كان يصيبها نوع من السعار بعد أسرها للملك: فتحاول تجميع أكبر كمية ممكنة من المال لتحميها بعد سقوطها المحتوم. ولكي تمدد عهدها إلى أطول فترة ممكنة، كانت تعامل أعداءها في البلاط بلا رحمة. وبعبارة أخرى، فقد كان يبدو أن وضعها يتطلب منها طمعاً وحقداً انتقامياً يكون من شأنهما تحطيمها في غالب الأحيان. وقد نجحت مدام دي بومبادور حيث فشلت الأخريات جميعاً لأنها لم تدفع حظها السعيد أو تضغط عليه أبداً. وبدلاً من التنمُّر على رجال الحاشية من موقع سلطتها كعشيقة للملك، حاولت أن تكسب تأييدهم. ولم تكشف عن أقل لمحة من الطمع أو الغطرسة. وعندما لم تعد قادرة على أداء واجباتها الجسدية كعشيقة، لم تقلقها فكرة حلول واحدة أخرى محلها في الفراش. بل طبقت نوعاً من الخطط الاستراتيجية ببساطة ـ فقد شجعت الملك على اتخاذ عشيقات شابات، عارفةً بأنهن كلما كنَّ أجمل وأصغر سناً، قلّ التهديد الذي يمثّلنه لها، ما

دمن غير قادرات على منافستها في السحر والفتنة والحنكة، وسرعان ما يسأم منهن الملك.

والنجاح يمارس خدعات غريبة على العقل. فيجعلك تشعر بأنك قوي لا تُقْهَر، كما يجعلك أكثر عدوانية وعاطفية عندما يتحدى الناس سلطتك. كما يجعلك أقل قدرة على التكيف للظروف. فتبدأ بالاعتقاد بأن شخصيتك مسؤولة عن نجاحك أكثر من استراتيجيتك وتخطيطك. إنك بحاجة إلى أن تدرك ـ كما أدركت مدام دي بومبادور ـ أن لحظة انتصارك هي أيضاً اللحظة التي يتعين عليك أن تعتمد فيها على مكرك واستراتيجيتك أكثر من ذي قبل، كي تعزز قاعدة سلطتك، وتدرك دور الحظ والظروف في نجاحك، وتبقى يقظاً إزاء التغييرات في حظك السعيد. ففي لحظة الانتصار بالذات تحتاج إلى ممارسة دور رجل الحاشية، وإبداء اهتمام بقوانين السلطة أكثر من أي وقت مضى.

يأتي الخطر الأعظم في لحظة الانتصار.

(نابليون بونابرت، 1769 ـ 1821)

مفاتيح السلطة

للسلطة إيقاعاتها وأنماطها الخاصة بها. والذينْ ينجحون في اللعبة هم الذين يتحكمون بالأنماط وينوعون فيها على هواهم، فَيُبْقون الناسَ غير متوازنين بينما هم يضعون الإيقاع ويضبطونه. وجوهر الاستراتيجية هو التحكم بما هو قادم فيما بعد، بطريقتين. أولاً: أنت مدين بنجاحك إلى نمطٍ أنت حريٌّ بأن تحاول تكراره. وستحاول أن تظل تتحرك في الاتجاه ذاته دون أن تتوقف لترى ما إذا كان هذا لا يزال هو الاتجاه الأفضل لك. وثانياً: يميل النجاح إلى إدارة رأسك وجعلك عاطفياً. فعند شعورك بأنك حصين تقوم بحركات عدوانية تهدم في آخر الأمر الانتصار الذي كسبته.

والدرسُ بسيط: ينوّع الأقوياءُ ذوو السلطة في إيقاعاتهم

وأنماطهم، ويغيرون مساراتهم، ويتكيفون لظرفهم، ويتعلمون الارتجال لتدبير الأمور. وبدلاً من ترك أقدامهم الراقصة تدفعهم إلى الأمام، يَخْطُونَ إلى الخلف وينظرون إلى أين هم ذاهبون. وكأن مجرى دمهم يحمل ترياقاً مضاداً لِسَكْرَةِ النصر، يتيح لهم أن يسيطروا على عواطفهم ويتوصلوا إلى نوع من الوقفة العقلية عند حصولهم على النجاح، فيثبتون أنفسهم ويعطون أنفسهم مجالاً للتأمل فيما قد حدث، وتَفَحُّصِ دور الظروف والحظ في نجاحهم.

إن الحظ والظرف يلعبان دائماً دوراً في السلطة. فهذا محتوم وهو في الحقيقة يجعل اللعبة أكثر إثارة للاهتمام. ولكن رغم ما قد تفكر به، فإن الحظ الجيد أخطر من الحظ السَّيِّء. لأن الحظ السَّيِّء يعلم دروساً ثمينة في الصبر، والتوقيت؛ والحاجة إلى أن يكون المرء مستعداً، لأسوأ الاحتمالات. أما الحظ الجيد فيخدعك بالدرس المعاكس، فيجعلك تظن أن ألمعيتك ستمكّنك من العبور. غير أن حظك سينقلب حتماً. وعندما يفعل فلن تكون مستعداً تمام الاستعداد.

وعند ماكيافيللي أن هذا هو ما أسقط سيزار بورجيا. فقد كسب انتصاراتٍ كثيرة، وكان بالفعل استراتيجياً بارعاً، ولكن كان من سوء حظه سعيدَ الحظّ. فقد كان أبوه بابا، ثم عندما ساء حظه بصورة حقيقية ـ بموت أبيه ـ لم يكن مستعداً لذلك. فقام الأعداء الذين خلقهم لنفسه بالتهامه. إن الحظ السعيد الذي يرفعك أو يختم على نجاحك يأتيك باللحظة التي يتعين عليك فيها أن تفتح عينيك: إذ إن عجلة الحظ ستقذف بك إلى الأسفل كما رفعتك إلى الأعلى بالسهولة نفسها. فإذا تَهَيَّأْتَ للسقطة، فإنك ستقلل احتمال تدميرها لَكَ عند حدوثها.

والناس الذين تصيبهم نوبة من النجاح يمكن أن يصابوا بنوع من الحُمَّى. وحتى عندما يحاولون أن يظلوا هادئين، فإن الذين دونهم كثيراً ما يضغطون عليهم كي يتجاوزوا علامتهم ويخوضوا في مياه خطرة. وعليك أن تملك استراتيجية التعامل مع هؤلاء الناس. لأن الاكتفاء

بالتبشير بالاعتدال سيجعلك تبدو ضعيفاً وصغير العقل؛ فمظهر العجز عن المتابعة بعد الانتصار يمكن أن يقلل من سلطتك.

عندما قام الجنرال والسياسي الأثينيّ بيريكليس بقيادة سلسلة من الحملات حول البحر الأسود في سنة 436 ق .م، أدت انتصاراته السهلة إلى إشعال رغبة الأثينيين إلى المزيد. فراحوا يحلمون بغزو مصر، واجتياح فارس، والإبحار إلى صقلية. فقام بريكليس من جهة بلجم هذه العواطف الخطرة بالتحذير من خطر العجرفة والثقة المفرطة. ومن جهة أخرى غذّى الناس بخوض معارك صغيرة كان يعلم أنه قادر على كسبها، فخلق مظهراً من المحافظة على زخم النجاح. وتكشفت براعة بريكليس في ممارسة هذه الألعاب عندما مات. فقد استولى الغوغائيون على الأمور، فدفعوا أثينة إلى مهاجمة صقلية، وهكذا بحركة متهورة واحدة، دمّروا إمبراطورية.

وكثيراً ما يتطلب إيقاع السلطة مراوحةً بين العنف والدهاء. فالقوة أكثر مما ينبغي تخلق رد فعل معاكس. والدهاء الزائد عن الحد، مهما بلغت درجة مَكْرِهِ، يصبح التنبؤ به سهلاً. فعندما كان الجنرال الياباني (والإمبراطور فيما بعد) العظيم هيديوشي يعمل في القرن السادس عشر باسم سيده الحاكم العسكري أودانوبوناغا، هندس ذات مرة انتصاراً مدوخاً على جيش الجنرال الرهيب يوشيموتو. فأراد الحاكم العسكري أن يذهب إلى أبعد من ذلك بأن يتحدى عدواً قوياً آخر ويسحقه. ولكن هيديوشي ذكّره بالمثل الياباني القائل: «عندما تكسب نصراً، أَحْكِمْ ربطَ خيوط خوذتك». وبالنسبة لهيديوشي كانت هذه هي اللحظة التي ينبغي فيها على الحاكم العسكري أن يَسْتَبْدِلَ بالقوة الدهاءَ والعملَ غير المباشر. فيسلط أعداءه ضد بعضهم بعضاً من خلال سلسلة من التحالفات الخداعة. وبهذه الطريقة يتجنب إثارة معارضة لا حاجة له بها بالظهور بمظهر شخص عدوانيّ أكثر مما ينبغي. ولذا فعندما تكون منتصراً تجنب البروز إلى العيان، مع بقائك مستعداً سراً للعمل، وبذلك

تهدهد العدو ليستنيم ويخمد. إن هذه التغييرات في الإيقاع قوية للغاية.

والناس الذين يتجاوزون العلامة كثيراً ما تحفزهم على ذلك الرغبة في إرضاء سيد بإظهار تفانيهم. ولكن الإفراط في بذل الجهد يعرضك لخطر جعل السيد يشكّ فيك. ففي مناسبات عديدة، كان الجنرالات تحت حكم فيليب المقدوني يطردون وتخفض رتبهم مباشرةً بعد قيادتهم لقواتهم إلى نصر عظيم. إذ كان فيليب يعتقد أن نصراً آخر كهذا سيحول مثل هذا الجنرال إلى منافس بدلاً من مرؤوس. فعندما تكون في خدمة سيد، فإن من الحكمة أن تقيس انتصاراتك بحرص ودقة، بحيث تدعه هو يحصل على المجد، ولا تسبب له ضيقاً أو حرجاً على الإطلاق. ومن الحكمة أيضاً أن تقيم نمطاً للطاعة الصارمة كي تكسب ثقته. ففي القرن الرابع قبل الميلاد، قام نقيبٌ تحت إمرة الجنرال الصيني القاسي سيِّىء الصيت وو شْئِي بالسبق بالهجوم قبل أن تبدأ المعركة، وعاد بعدة رؤوس من الأعداء. وظنّ أنه بذلك قد أظهر حماسه الناريّ. ولكن وو شْئِي لم يعجبه هذا العمل. فقال وهو يتنهد ويأمر بقطع رأس الرجل: «إنه ضابط موهوب، ولكنه متمرد».

وقد تأتي لحظة أخرى، يُفْسِدُ فيها نجاحٌ صغير، فرصاً لنجاح أكبر منه إذا أسدى إليك سيدك أو رئيسك معروفاً. فَطَلَبُ المزيد بعدئذٍ غلطةٌ خطرة، فسوف تبدو غير آمن ـ ولعلك تشعر بأنك لا تستحق المعروف، وتجد نفسك مضطراً إلى تلقف أكبر قدر مستطاع بينما الفرصة سانحة أمامك، وقد لا تأتي ثانيةً. إن الردّ اللائق هو أن تقبل المعروف بكياسة ولطف ثم تنسحب. وأي ضروب من المعروف لاحقة يجب عليك أن تكسبها دون حاجة إلى طلبها.

وأخيراً، فإن اللحظة التي تتوقف فيها لها أهمية مسرحية عظمى. فما يأتي في خاتمة المطاف يلتصق بالذهن كنوع من علامات التعجب. وليس هناك وقت للتوقف والانصراف أفضل من الوقت الذي يلي النصر. فإذا تابعت الحركة بعد ذلك، فإنك تخاطر بتقليل الأثر

والفاعلية، بل قد ينتهي بك الأمر إلى الاندحار. وكما يقول المحامون في التحقيق: «دائماً توقف مع تسجيل النصر».

صورة: إيكاروس ساقطاً من السماء
يصمم أبوه دايدالوس جناحينمن
الشمع يسمحان للرجلين بالطيران
خارج المتاهة والهرب من
المينوطور. وفرح إيكاروس بالهرب
الظافر واعتراه تيهٌ من الشعور
بالطيران فحلق أعلى فأعلى حتى
أذابت الشمس شمع أجنحته نسقط
في البحر ومات.

الشاهد: على الأمراء والجمهوريات أن يقنعوا بالنصر، فإذا استهدفوا شيئاً أكثر فإنهم يخسرون على وجه العموم. إن استخدام لغة مهينة إزاء العدو، ينشأ من غطرسة النصر، أو من الأمل الزائف بالنصر، مما يضلّل الرجال فيما بعد، سواء في أفعالهم أم في أقوالهم؛ فعندما يستولي هذا الأمل الزائف على العقل، فإنه يجعل الرجال يتجاوزون العلامة، ويضحون بشيء جيد حاصل ومؤكد في سبيل شيء أفضل ولكنه غير مؤكد.

(نيقولو ماكيافيللي، 1469 ـ 1527)

الانقلاب

كما يقول ماكيافيللي: إمّا أن تدمّر شخصاً مّا، أو أن تتركه وشأنه تماماً. إذْ إن إيقاع نصف عقوبة أو جرح طفيف لا ينجم عنه إلاّ خلق عدو تنمو مرارته بمرور الزمن، وهو سوف ينتقم. وإذن فعندما تهزم

عدواً، اجعل نصرك كاملاً، فاسحقه بإعدام وجوده. ففي لحظة النصر، أنت لا تمنع نفسك من سحق العدو الذي هزمته، ولكن من التقدم بلا ضرورة إلى أعداء آخرين. كُنْ بلا رحمة مع عدوك، ولكن لا تخلق أعداءاً جديدين بالتمدد أكثر من اللازم.

هناك بعضٌ من الناس يصبحون أكثر حذراً من ذي قبل بعد الحصول على نصر، فلا يرون فيه إلاَّ أنه يعطيهم مزيداً من الممتلكات ليقلقوا عليها ويحموها. غير أن حذرك بعد النصر، ينبغي أن لا يجعلك تتردد، أو تفقد زخم الحركة، بل تصرّف بما يضمن عدم اتخاذ إجراء متهور. ومن جهة أخرى، فإن الزخم كظاهرة يُبَالَغُ في تقديره كثيراً. فأنت تخلق نجاحاتك. فإذا تلاحقت واحداً بعد الآخر، فهذا من عملك أنت. فالإيمان بالزخم لن يؤدي إلاَّ إلى جعلك عاطفياً أكثر، وأقل عرضة للتصرف على نحو استراتيجي، وأكثر قابلية لتكرار الأساليب نفسها. فاترك الزخم لمن ليس لديهم شيء أفضل يعتمدون عليه.

القانون

48

اتخذ هيئة لا شكل لها

الحكم

عند اتخاذك شكلاً مّا، وامتلاكك لخطّةٍ مرئية، فإنك تكشف نفسك للهجوم. فبدلاً من اتخاذ شكل يمسك به عدوك، ابقِ نفسك قابلاً للتكيُّف، ومتحركاً. وتقبل حقيقة عدم وجود شيء مؤكد، وعدم وجود قانون ثابت. فأفضل طريقة لحماية نفسك هي أن تكون سائلاً وبلا شكل كالماء. وإياك أن تراهن على الاستقرار أو النظام الباقي الدائم. فكل شيء يتغير.

انتهاك القانون

عند حلول القرن الثامن قبل الميلاد، كانت المدن ـ الدول الإغريقيّة قد اتسعت وازدهرت بحيث لم تبقَ لديها أرض تعيل سكانها المتزايدين. وهكذا اتجهت إلى البحر، فأقامت مستعمراتٍ في آسيا الصغرى، وصقلية، وشبه الجزيرة الإيطالية، وحتى إفريقية. غير أن مدينة ـ دولة إسبارطه كانت محصورة داخل اليابسة ومحاطة بالجبال. وبما أنه لم يكن لديها منفذ إلى البحر، فإن الإسبارطيين لم يصبحوا شعباً مِلاَحيّاً قطّ؛ وبدلاً من ذلك استداروا إلى المدن التي حولهم؛ وفي سلسلة من النزاعات الوحشية العنيفة التي استمرت أكثر من مائة عام، تمكنوا من غزو منطقة هائلة تعطيهم أرضاً كافية لمواطنيهم. غير أن هذا الحل لمشكلتهم جلب عليهم مشكلة أخرى رهيبة أكثر. فكيف يستطيعون الحفاظ على مناطقهم المغزوّة والسيطرة على الأمن فيها؟ فالشعوب التابعة التي يحكمونها كانت تزيد عنهم عددياً بنسبة عشرة إلى واحد. فمن المؤكد أن هذا الحشد سينتقم منهم انتقاماً رهيباً.

وكان حل إسبارطة هو خلق مجتمع مكرس لفنّ الحرب. وبذلك يصير الإسبارطيون أصلب، وأقوى، وأشرس من جيرانهم. فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة القادرة على ضمان استقرارهم وبقائهم.

فعندما كان الولد الإسبارطي يصل إلى سن السابعة، كان يؤخذ من أمه ويوضع في نادٍ عسكري يتلقى فيه تدريباً على القتال ويتعرض لأشد

من المهم في الفنون العسكرية أن يكون من المستحيل سبر غور الخطة الاستراتيجية، وأن يتم إخفاء الشكل، وأن تكون الحركات غير متوقعة كي يكون الاستعداد ضدها مستحيلاً. إن ما يمكّن القائدَ الجيد من النصر بلا فشل هو أن تكون لديه دائماً حكمة عميقة، وأسلوب عملياتٍ لا يترك آثاراً تنم عليه. إن الذي لا يمكن التأثير عليه هو فقط الشيء الذي لا شكل له فالحكماء يختفون وراء بُعْدِ الغور بحيث لا يمكن مراقبة مشاعرهم؛ فيعملون بطريقة لا شكل لها بحيث لا يمكن عبور خطوطهم.
كتاب أساتذة هواين
الصين، القرن الثاني قبل الميلاد

أنظمة الضبط صرامة. فكان الأولاد ينامون على سُرُرٍ من القصب، ويخصص لكل منهم ثوب خارجي واحد فقط ليرتديه عاماً كاملاً. ولم يدرسوا أي فنّ من الفنون؛ بل إن الإسبارطيين حظروا الموسيقى. ولم يسمحوا إلاّ للعبيد بممارسة الحرف الضرورية لإمدادهم بأسباب الحياة. وكانت الفنون الوحيدة التي دَرَّسها الإسبارطيون هي فنون الحرب. أما الأطفال الذين كان يُرَى أنهم ضعفاء فكانوا يُتْرَكُون ليموتوا في كهف في الجبال. ولم يُسْمَحْ بأي نظام للمال أو التجارة في إسبارطة؛ فقد كانوا يعتقدون أن الثروة المكتسبة تزرع الأنانية والشقاق، مما يضعف نظامهم الحربي. وكانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع الإسبارطي أن يكسب فيها معيشته هي الزراعة، على أراضٍ تملكها الدولة في الغالب، ويعمل له فيها عبيد يُسَمَّون الأقنان.

وأتاح التصميم العنيد للإسبارطيين أن يشكلوا أقوى جيشٍ من المشاة في العالم. فكانوا يزحفون في نظام كامل ويقاتلون بشجاعة لا تضاهَى. وكانت كتائبهُم المرصوصة بإحكام قادرة على التغلب على جيش يكبرها بعشرة أضعاف، كما أثبتوا عندما دحروا الفُرْسَ في معركة ثيرموبيليا. وكان الطابور الإسبارطي الزاحف يقذف الرعب في قلب العدو. فكان يبدو أنه بلا نقاط ضعف. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن الإسبارطيين قد أثبتوا أنهم محاربون جبابرة، فإنهم لم يهتموا بخلق إمبراطورية. إذْ لم يكونوا يريدون سوى الاحتفاظ بما كانوا قد احتلوه، وحمايته من المهاجمين. فكانت تمر عقود من الزمن بدون تغيير واحد في النظام الذي نجح جيداً في الحفاظ على الأمر الواقع الإسبارطي.

وفي الوقت الذي كان فيه الإسبارطيون يطوّرون حضارتهم شبه الحربية، كانت مدينة ـ دولة أخرى ـ هي أثينا ـ تصعد إلى مكانة بارزة. فعلى عكس إسبارطة، كانت أثينا قد خاضت البحر، ليس لخلق مستعمرات، بل لأغراض تجارية بالأحرى؛ فأصبح الأثينيون تجاراً عظاماً، وانتشرت عملتهم، «مسكوكات البوم» الشهيرة في جميع أرجاء

الكلب المصلوم الأذنين

صرخ جاولر، كلب الحراسة الصغير، بصوت كئيب: «ما الجريمةُ التي ارتكبتُها حتى يشوهني سيدي نفسُه بهذه الصورة؟ إنه لوضع غريب لكلب في مثل مواهبي! فكيف أُبْرز وجهي لأصدقائي؟ فمن يجرؤ على أن يفعل هذا بك أيها الإنسان، يا سيد المخلوقات كلها؟» ولم تكن تذمُّرات الكلب بلا سبب. ففي ذلك الصباح ورغم الصرخات الخافتة لصاحبنا الصغير، قام سيده بقطع أُذنيه المتهدلتين بوحشية لا رحمة فيها. ولم يتوقع جاولر شيئاً أقلّ من أنه سوف يسلم الروح.

ومع تقدمه في السن، أدرك أنه قد كسب من عملية البتر هذه أكثر مما خسر، إذ إنه مع ميله الطبيعي للتشاجر مع الآخرين، كان كثيراً ما يعود إلى البيت وقد تشوهت أذناه في أكثر من مائة موضع. فالكلب المشاكس تُمَزَّقُ أُذناه دائماً.

وكلما أنقصنا ما يمكن للآخرين أن يمسكوه فيّا كان ذلك أفضل. فعندما يكون لدى المرء نقطة واحدة فقط يدافع عنها، فإنه يجب أن

يحميها من الحوادث المفاجئة. وخذ مثلاً الكلب المدعو جاولر، الذي كان مسلحاً بطوق شائك مثبت على عنقه ولم يكن له من الأذنين إلاّ ما هو بحجم أُذني الطير، كان يحيّر أيّ ذئبٍ فلا يعرف الذئبُ من أين يمسكه.

حوض الأبيض المتوسط. وعلى عكس الإسبارطيين الجامدين، كان الأثينيون يستجيبون لكل مشكلة بقدرةٍ خلاقةٍ خارقة، فيتكيّفون للمناسبة، ويخلقون أشكالاً اجتماعية جديدة وفنوناً جديدة، بوتيرة لا تكاد سرعتها تُصَدَّق. فكان مجتمعهم في حالة جريان دائم. وحالما تنامت قوتهم راحوا يمثلون تهديداً للإسبارطيين المركَّزةِ أذهانُهُم على الدفاع.

وفي سنة 431 ق .م، انفجرت أخيراً الحرب بين أثينا وإسبارطة، بعد أن ظلت تختمر وتتلبد غيومها طويلاً. فاستمرت سبعة وعشرين عاماً. ولكن بعد تقلبات كثيرة في الحظ، برزت الآلة الحربية الإسبارطية منتصرة، في آخر الأمر. وعندئذ صارت تحت إمرة الإسبارطيين إمبراطورية، فلم يعودوا قادرين على البقاء في قوقعتهم المغلقة. فَلَوْ تخلّوا عما كسبوه، لعاد الأثينيون إلى التجمع والثورة عليهم، وكأن الإسبارطيين قاتلوا في تلك الحرب الطويلة من أجل لا شيء.

وبعد الحرب راحت أموال أثينا تصبّ في إسبارطة. وكان الإسبارطيون مدربين في فنون الحرب، لا السياسة، ولا الاقتصاد. ونظراً لأنهم لم يكونوا معتادين على ذلك فقد أغوتهم الثروة وما يصحبها من طراز الحياة وغلبت عليهم. وأُرْسِلَ حكام إسبارطيون ليحكموا ما كان من قَبْلُ أراضيَ أثينيّة. وعندما ابتعدوا عن وطنهم، خضعوا لأسوأ أشكال الفساد. لقد هزمت إسبارطةُ أثينا. ولكن طريقة الحياة الأثينية الجارية راحت تهدم نظام الضبط الإسبارطيّ ببطء، وترخي شدته الصارمة. بينما كانت أثينا تتكيف مع فقدان إمبراطوريتها، فاستطاعت أن تنتعش كمركز ثقافي واقتصادي.

وارتبكت إسبارطة بالتغير الذي طرأ على أمرها الواقع، فراحت تضعف أكثر فأكثر. وبعد ثلاثين عاماً من دحرها لأثينا، خسرت معركة هامة مع مدينة ـ دولة طيبة. وهكذا انهارت بين عشيةٍ وضحاها تقريباً أُمَّةٌ كانت جبارة ذات يوم، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك أبداً.

التفسير

في تطور الأنواع، كان الدرع الواقي يعني الكارثة بصورة تكاد تكون دائمة. ورغم وجود استثناءات قليلة، فإن القوقعة تتحول، في الغالب الأعمّ من الحالات، إلى طريق مسدود للحيوان المحبوس في داخلها. فهي تبطىء حركته، وتصعّب عليه البحث عن غذائه، وتجعله هدفاً للمفترسين سريعي الحركة. فالحيوانات التي تنزل إلى البحر، أو تصعد نحو السماء، والتي تتحرك بسرعة وبطريقة مفاجئة، لا يمكن التنبؤ بها، هي الأقوى والأكثر أمناً بلا حدود.

وفي مواجهة مشكلة خطيرة ـ هي السيطرة على أعداد متفوقة ـ كان رَدُّ فعل إسبارطة كَرَدِّ فعل الحيوان الذي يطور قوقعة يحمي بها نفسه من البيئة. ولكن الإسبارطيين بذلك ضحّوا بالقدرة على الحركة في سبيل السلامة، كما تفعل السُّلَحْفاة. فقد استطاعوا أن يحافظوا على الاستقرار ثلاثمائة عام، ولكن بأي كلفة؟ لم تكن لهم حضارة تتجاوز فنّ الحرب، ولا فنون تخفف من حدة التوتر. وكانوا يعانون قلقاً دائماً على الأمر الواقع الذي فرضوه. وبينما كان جيرانهم يمخرون عباب البحر ويتعلمون التكيف لعالم في حركة مستمرة، دفن الإسبارطيون أنفسهم في نظامِهِم ذاتِه. فكان النصر يعني أراضي جديدة يحكمونها، وهذا ما لم يكونوا يريدونه؛ وكان الاندحار يعني نهاية آلهتم العسكرية، ولم يكونوا يريدون هذا كذلك. فلم يسمح لهم بالبقاء إلا الركودُ. ولكن لا شيء في العالم يمكن أن يبقى مستقراً على حاله إلى الأبد، والقوقعة أو النظام الذي تطوره لحمايتك سيثبت ذات يوم أن فيه نهايتك.

وفي حالة إسبارطة، لم تكن جيوش أثينا هي التي هزمتها، ولكن المال الأثينيّ. فالمال يتدفق إلى كل مكان تتاح له فرصة الذهاب إليه؛ فلا يمكن السيطرة عليه أو جعله يتناسب مع نمط جاهز إذْ أنه بطبيعته فوضوي. وعلى المدى الطويل فقد جعل المال أثينا هي الغالبة، عن طريق تسلله إلى النظام الإسبارطي والتسبب في تآكل درعه الواقي. وفي

المعركة بين النظامين، كانت أثينا سائلةً وخلاقة بما يكفي لاتخاذ أشكال جديدة، بينما لم تستطع إسبارطة إلاَّ أن تزيد تصلباً حتى تصدعت.

فهذه هي الطريقة التي يعمل بها العالم، سواء بالنسبة للحيوانات، أم للحضارات، أم للأفراد. ففي مواجهة خشونة العالم وخطره، تطوِّر العضوياتُ من أي نوع حمايةً لها ـ سترة مدرعة، أو نظاماً صارماً، أو طقوساً مريحة. وقد تنجح هذه الحماية على المدى القصير، ولكنها على المدى الطويل تعني كارثة. فالناس الذين يثقل كاهلهم نظام وطرق غير مرنة لعمل الأشياء لا يستطيعون التحرك بسرعة، ولا يستطيعون الإحساس بالتغيير ولا التكيف له. فيتحركون بتثاقل وبطءٍ هنا وهناك حتى يلحقوا بالبرونطوصور الذي انقرض. فتعلَّم كيف تتحرك بسرعة وتتكيف، وإلاَّ فسوف تُؤْكَل.

وأفضل طريقة لتجنب هذا المصير هي اتخاذ هيئة لا شكل لها. لأنه لا يوجد كائن مفترس قادر على مهاجمة ما لا يستطيع أن يراه.

مراعاة القانون

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية، وطُرِدَ اليابانيون في آخر الأمر من الصين التي كانوا قد غزوها في سنة 1937، قرر الوطنيون الصينيون بقيادة تشيانغ كاي شيك أن الوقت قد حان لإبادة منافسيهم المكروهين، الشيوعيين الصينيين، مرة واحدة وإلى الأبد. وكانوا قد نجحوا في ذلك تقريباً في سنة 1935، عندما أرغموا الشيوعيين على المسيرة الطويلة من التراجع الطاحن الذي أنقص أعدادهم بشكل كبير، ورغم أن الشيوعيين قد استعادوا بعض عافيتهم أثناء الحرب ضد اليابان، فلن يكون دحرهم صعباً الآن (أي في سنة 1945). فلم يكونوا مسيطرين إلاَّ على مناطق معزولة في الريف، ولم تكن أسلحتهم متطورة، وكانت تنقصهم أي خبرة عسكرية أو تدريبية عدا القتال الجبليّ، ولم يكونوا يتحكمون بأية

كان من الطرق المغرية، ولكنها في آخر الأمر ميتة، تطوير الدرع الواقي. فالكائن العضوي يستطيع أن يحمي نفسه بالاختفاء، وبالسرعة في الهرب، وبهجوم معاكس فعال، وبالاتحاد مع آخرين من أبناء جنسه في الهجوم وفي الدفاع، وكذلك بتصفيح نفسه بألواح وسلاسل عظمية... ولقد فشلت تجربة الدرع المصفح على نحو يكاد يكون دائماً. فكانت المخلوقات التي تعتمد عليها تميل إلى أن تصبح ضخمة ثقيلة الحركة بشكل غير عملي، فتصير مضطرةً إلى التحرك ببطء نسبيّ. ومن هنا كانت تُرْغَمُ على أن تعيش على غذاء نباتي. وهكذا فقدت ميزتها بصورة عامة بالمقارنة مع أعداء يعيشون بسرعة أكبر على غذاء حيواني أكثر «فائدة». إن الفشل المتكرر للدرع الواقي يبين أن العقل كان ينتصر على المادة المجردة، حتى عند المستويات المنخفضة نسبياً في سلم التطور. وهذا النوع من النصر هو الذي تمثل بشكل رفيع في تفوق الإنسان.

النظرية العلمية والدين
ا. و. بارنز،
1933

إجزاء هامة من الصين، سوى مناطق في منشوريا، التي استطاعوا أن يستولوا عليها بعد التراجع الياباني. فقرر تشاينْغْ أن يرسل أفضل قواته إلى منشوريا، ليستولي على مدنها الكبرى. ومن تلك القواعد سينشر قواته خلال تلك المنطقة الصناعية الشمالية، فيكنس الشيوعيين بعيداً. وما أن تسقط منشوريا حتى ينهار الشيوعيون.

وفي سَنَتَيْ 1945 و1946، نجحت الخطة بشكل كامل. فقد استولى الوطنيون الصينيون بسهولة على مدن منشوريا الكبرى. وكان من الألغاز المحيرة أن الاستراتيجية الشيوعية، إزاء هذه الحملة الحساسة الأهمية، لم يكن لها معنى. فعندما بدأ الوطنيون هجومهم تبعثر الشيوعيون إلى أبعد الزوايا غير المطروقة والنائية في منشوريا. وراحت وحداتهم الصغيرة تضايق بمناوشاتها جيوشَ الوطنيين، فتنصب لهم كميناً هنا، وتنسحب على نحو غير متوقع من هناك. ولكن هذه الوحدات المبعثرة لم تتصل ببعضها بعضاً قطّ، مما جعل مهاجمتها أمراً صعباً. فكانت تستولي على مدينة، لتتخلى عنها بعد بضعة أسابيع فقط. ولم تُشَكّل حراسةَ مؤخرةٍ ولا طلائعَ، مما سهّل عليها التحرك كالزئبق المتملص، بلا شكل، لأنها لم تكن تبقى في مكان واحد أبداً.

وعزا الوطنيون الصينيون ذلك إلى شيئين هما: الجبن في مواجهة قوات متفوقة، وعدم الخبرة في الاستراتيجية. فالزعيم الشيوعي ماوتسي تونغ، كان شاعراً وفيلسوفاً أكثر منه قائداً وجنرالاً، بينما كان تشاينْغْ كاي شيك، قد درس فن الحرب في الغرب، وكان من أتباع الكاتب العسكري الألماني كارل فون كلاوزفيتز، من بين آخرين. ومع ذلك فقد برز في آخر الأمر نمطٌ في هجمات ماو. فبعد أن استولى الوطنيون على المدن، تاركين الشيوعيين يحتلون ما كان يُعْتَبَرُ عموماً بمساحات منشوريا التي لا فائدة فيها، بدأ الشيوعيون يستخدمون تلك المساحات الشاسعة لتطويق المدن. فإذا أرسل تشيانغ جيشاً من مدينة لتعزيز أخرى، كان الشيوعيون

يطوقون الجيش المُنْجِد. وهكذا تقسّمت قوات تشيانغ ببطءٍ إلى وحدات أصغر فأصغر، ومنعزلٍ بعضها عن بعض، وتقطّعت خطوط تموينها ومواصلاتها. وكان الوطنيون لا يزالون يملكون قوةَ نيرانٍ متفوقة، ولكن ما فائدتها إن كانوا عاجزين عن الحركة؟

وغلب على الجنود الوطنيين نوع من الذعر. فربما كان القادة يضحكون على ماو، وهم مرتاحون بعيداً عن الخطوط الأمامية، ولكن الجنود كانوا قد قاتلوا الشيوعيين في الجبال، وبدأوا يخشون قدرتهم على التملص. ثم قبع أولئك الجنود في مدنهم وراحوا يتفرجون على أعدائهم السريعي الحركة، الجارين كالماء، وهم يَنْصَبُّون عليهم من جميع الجوانب. فقد بدا أن هناك الملايين منهم. كما حاصر الشيوعيون أرواح الجنود ونفوسهم، وراحوا يمطرونهم بالدعاية ليخفضوا روحهم المعنوية ويضغطوا عليهم كي يهربوا من الخدمة العسكرية.

وبدأ الوطنيون يستسلمون ذهنياً؛ إذ أن مدنهم المطوقة والمعزولة راحت تتهاوى حتى قبل أن تتعرض للهجوم بشكلٍ مباشر، واحدة بعد الأخرى، في تتابع سريع. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1948، سلّم الوطنيون منشوريا إلى الشيوعيين ـ فكانت تلك ضربةً مُذِلَّةً لجيش الوطنيين المتفوق تقنياً، وهي ضربة أثبتت أنها الحاسمة في الحرب. إذْ بحلول السنة التالية (1949) كان الشيوعيون قد بسطوا سيطرتهم على الصين كلها.

التفسير

إن أقرب ألعاب الرقعة إلى استراتيجية الحرب هما الشطرنج ولعبة «غو» الآسيوية. والرقعة صغيرة في لعبة الشطرنج، وبالمقارنة مع لعبة «غو» فإن الهجوم في الشطرنج يأتي بسرعة نسبية تفرض معركة حاسمة. ونادراً ما يفيد الانسحاب، أو التضحية بِقِطَعِك، التي ينبغي أن تتركز في مناطق هامة. أما لعبة «غو» فهي أقل محافظة على الشكل بكثير. فهي

الارنب البري والشجرة

إن العاقل لا يسعى لاتباع طرق الأقدمين، ولا يقيم معايير ثابتة على مدى الأزمنة كلها، بل يفحّص الأشياء الموجودة في عصره، ثم يتهيأ للتعامل معها.

كان في صونغ رجل يحرث حقلاً كان يقف في وسطه جذع شجرة. وذات مرة اصطدم به أرنب بري كان يجري بسرعة فدُقَّتْ عنقه ومات. وعندئذ ترك الرجل محراثه جانباً وراح يراقب تلك الشجرة، آملاً بالحصول على أرنب آخر. ومع ذلك فلم يمسك بأي أرنب آخر، وصار موضع سخرية أهالي صونغ. والآن لنفترض أن شخصاً ما أراد أن يحكم أهل العصر الحاضر بسياسات الملوك الأوائل، فإنه سيفعل الشيء الذي فعله ذلك الرجل الذي راح يراقب الشجرة.

هان ـ في ـ تزو
فيلسوف صيني، من القرن الثالث ق. م

تُلْعَبُ على لوحة أكبر، فيها 361 مربعاً، أي إن عدد مواقعها يقرب من ستة أضعاف عدد مواقع رقعة الشطرنج فتوضع الحجارة البيضاء والسوداء (لون لكل طرف) على مربعات اللوحة، حجراً واحداً في كل مرة، في أي مكان تحب. وعندما تصبح كلها متواجدة على اللوحة (52 حجراً لكل طرف) يكون الهدف هو عزل حجارة خصمك بتطويقها.

وقد تستمر هذه اللعبة ـ التي تدعى **وي . شي** في الصين . حتى إتمام ثلاثمائة حركة. واستراتيجيتها أكثر دهاءً وسيولة من الشطرنج؛ إذْ إنها تتطور ببطء. وكلما زاد تعقيد النمط الذي تخلقه حجارتك على اللوحة في البداية، زادت الصعوبة التي يتعرض لها خصمك ليفهم استراتيجيتك. فالقتال للسيطرة على منطقة معينة ليس جديراً بالتعب. إذْ أن عليك أن تفكر في خطط أكبر وأن تكون مستعداً للتضحية بمنطقةٍ مّا في سبيل السيطرة على اللوحة في خاتمة المطاف. ذلك أن ما تسعى إليه ليس موقعاً متمترساً في خندق، بل قابلية الحركة. فمع الحركة تستطيع أن تعزل الخصم في مناطق صغيرة ثم تقوم بتطويقها. وليس الهدف هو قَتْلُ قطعِ الخصم مباشرةً، بل استدراج نوع من الشلل والانهيار. فالشطرنج لعبة خطوط، وموجهة نحو المواقع، وعدوانية. أما «غو» فليست لعبة خطوط، بل هي سائلة مائعة. والعدوان فيها غير مباشر حتى نهاية اللعبة، عندما يتمكن الرابح من تطويق حجارة خصمه بخطوات متسارعة.

لقد تفوّق الجنرال رومل على باتون كعقل خلاّق. . . كان رومل يتجنب التمسك بالشكلية العسكرية. فلم يضع خططاً ثابتةً تتجاوز تلك المقصود بها الاشتباك المبدئي. أما بعد ذلك فكان يفصل حركاته التكتيكية لمواجهة أوضاع محددة عند نشوئها. وكان صانع قرار له سرعة البرق، ويحافظ

ولقد ظل راسمو الخطط الاستراتيجية الصينية يتأثرون بلعبة «غو» طيلة قرون. وطُبِّقَتْ أمثالها على الحروب مرات متكررة. وكان ماوتسي تونغ مدمناً على ممارسة لعبة **وي ـ شي** هذه، وكانت مفاهيمها منغرسة في استراتيجياته. فمن مفاهيمها المفتاحية الهامة مثلاً استخدام حجم اللوحة لصالحك، ناشراً حجارتك في كل اتجاه، بحيث يعجز خصمك عن سبر غور حركاتك بطريقة خطوطية بسيطة.

ولقد كتب ماو ذات مرة: «ينبغي على كل صيني أن يلقي بنفسه في

خضمّ هذه الحرب ذات النمط الملغّز كَقِطَعِ الأحجية» ضد الوطنيين. ضع حجارتك على نمط ملغّز محيّر في «غو»، وعندئذٍ يضيع خصمك نفسه في محاولة فهم ما الذي تسعى إليه. فإما أن يضيع وقته في مطاردتك، أو يفترض ـ كما فعل تشيانغ كاي شيك ـ أنك غير كفء، فلا يهتم بحماية نفسه منك. وإذا ركّز على مناطق بعينها، كما تنصح الاستراتيجية الغربية، فسوف يصبح هدفاً سهلاً للتطويق. ففي طريقة وي ـ شي في الحرب، أنت تطوق دماغ العدوّ، مستخدماً الألعاب الذهنية، والدعاية، وتكتيكات المضايقة لتربكه وتزعزع همّته. وقد كانت هذه هي استراتيجية الشيوعيين ـ الظهور بهيئة لا شكل لها، مما ضلّل العدو وأرعبه.

وبينما نجد أن لعبة الشطرنج مباشرة وفيها خطوط متواجهة، فإن لعبة «غو» القديمة، أقرب شبهاً بنوع الاستراتيجية التي سوف تثبت أنها ذات صلة في عالم تُخَاضُ فيه المعارك بأسلوب غير مباشر، وفي مناطق شاسعة متباعدة متراخية الارتباط. فاستراتيجياتها مجردة ومتعددة الأبعاد، تقيم على مستوىً خارج نطاق الزمان والمكان: وهو ذهن صاحب الخطة. وفي مثل هذا الشكل المائع من الحرب، فإنك تعطي الحركة قيمةً أكثر من قيمة الموقع. إذ أن سرعتك وقدرتك على الحركة يجعلان التنبؤ بتحركاتك مستحيلاً. وعندما يعجز عدوّك عن فهمك، فإنه يعجز عن تكوين استراتيجية لهزيمتك. وبدلاً من التركيز على بقعٍ معيَّنة، فإن هذا النوع من الحرب، ينتشر إلى الخارج ويتمدَّد، تماماً كما تستطيع استخدام الطبيعة الكبيرة وغير المترابطة في العالم الحقيقي لفائدتك. كُنْ كسحابة البخار. ولا تعطِ خصومك أي شيء صلب يهاجمونه. وراقبهم وهم ينهكون أنفسهم في مطاردتك، محاولين أن يتغلَّبوا على تملصك. فالهيئة التي لا شكل لها، هي وحدها التي تتيح لك أن تفاجيء أعداءك. وما أن يفهموا أين أنت وما الذي تسعى إليه، حتى يكون قد فات الأوان.

جسدياً على إيقاع خطوات تناسب عقله الفعّال. ففي بحر مخيف من الرمال، كان يقوم بعملياته في بيئة حرة. فعندما خرق رومل الخطوط البريطانية في إفريقية، صارت قارة إفريقية الشمالية بكاملها ميداناً مفتوحاً أمامه. ومع تحرره النسبي من سلطة برلين المقيّدة المعقدة عن الحركة، وعدم احترامه للأوامر حتى الصادرة من هتلر نفسه أحياناً، راح رومل ينفذ عملية ناجحة بعد أخرى حتى صار معظم إفريقية الشمالية تحت سيطرته، وراحت الساحة ترتجف تحت قدميه.

فن كسب الحروب
جيمس مرازق،
1968

عندما تريد أن تقاتلنا، لا ندعك تفعل، وتعجز عن العثور علينا. ولكن عندما نريد الآن أن نقاتلك، فإننا نحرص على عدم تمكينك من الهرب، ونوجِّه إليك ضربةً مباشرةً مُحْكَمَةً... ونمحوك محواً... فعندما يتقدَّم العدو، نتراجع، وعندما يعسكر العدو، نضايقه بالمناوشة؛ وعندما يَتْعَبُ العدوُّ، نهاجم؛ وعندما يتراجع العدو، نظارده.

(ماوتسي تونغ، 1893 ـ 1976)

مفاتيح السلطة

يتميَّز الحيوان الإنساني بخلقه للأشكال باستمرار. ونادراً ما يعبِّر عن عاطفته بصورة مباشرة، فيعطيها شكلاً من خلال اللغة، أو عن طريق طقوس وشعائر مقبولةٍ اجتماعياً. فنحن لا نستطيع إيصال عواطفنا بدون شكل.

غير أن الأشكال التي نخلقها، تتغيَّر باطّراد ـ في الزيّ والطراز، في الأسلوب، وفي كل الظواهر الإنسانية التي تمثل مزاج اللحظة السائد. ونحن نغيِّر باستمرار الأشكال التي ورثناها من الأجيال السابقة. وهذه التغييرات علامات على الحياة والحيوية. بل إن الأشياء التي لا تتغيَّر، والأشكال التي تتجمَّد، تصبح في نظرنا كالموت، فندمّرها. والشباب يظهرون ذلك كأوضح ما يكون. فهم غير مرتاحين مع الأشكال التي يفرضها عليهم المجتمع، وليست لهم هوية محددة، فيمارسون أدوار شخصياتهم ذاتها، ويجربون شتى أنواع الأقنعة والوقفات كي يعبّروا عن أنفسهم، فهذه هي الحيوية التي تشغل محرك الشكل، فتخلق تغييراً مطرداً في الأسلوب.

والأقوياء ذوو السلطة كثيراً ما يكونون أناساً قد أظهروا في شبابهم قدرة ابتكاريّة هائلة في التعبير عن شيء جديد بشكل جديد. فيمنحهم المجتمعُ سلطةً لأنه يتعطش لمثل هذا النوع من الجِدَّةِ ويشجعه. وتأتي المشكلة فيما بعد، حينما يصبحون محافظين ولديهم نزعة الاستئثار. فلا يعودون يحلمون بخلق أشكال جديدة؛ إذ تصبح هوياتهم مستقرة،

درع الشخصية

تحتاج الذات الإنسانية إلى أن تتمرَّض لتغيير لكي تقوم بالكبح الغريزي الذي يتطلبه العصر الحاضر، ولكي تطيق ركود الطاقة الذي ينجم عن هذا الكبح. فالأنا، أي ذلك الجزء من الشخصية المعرض للخطر، يصبح جامداً، كما نقول، عندما يتعرض باستمرار للصراعات نفسها، أو لصراعات متشابهة بين الحاجة، وبين العالم الخارجي الذي يستجلب الخوف. وهذه الأنا تحتاج في هذه العملية إلى أسلوبٍ ثابتٍ مزمنٍ من ردِّ الفعل يقوم بوظيفته بصورة تلقائية، أي إلى «شخصية». وعندئذ يبدو الأمر وكأن الشخصية المؤثرة قد درّعت نفسها، وكأن الدرع الصلب الذي تطوِّره كان يهدف إلى تثبيت وإضعاف ضربات العالم الخارجي، وكذلك

فتتخثر عاداتهم، ويجعلهم تصلُّبُهم أهدافاً سهلة. ويعرف الجميع حركتهم التالية. وبدلاً من المطالبة بالاحترام فإنهم يثيرون السأم؛ فنقول لهم: ابتعدوا عن المسرح! ودعوا شخصاً آخر، أصغر سناً، يمتعنا. فعندما ينغلق الأقوياء ذوو السلطة على الماضي، يغدو مظهرهم مضحكاً ـ وكأنهم فاكهة نضجت أكثر مما ينبغي، وتنتظر السقوط عن الشجرة.

فالسلطة لا تستطيع أن تنتعش، إلاَّ إذا كانت مرنة في أشكالها. فكونها بلا شكل، لا يعني أنها غير منتظمة ولا متبلورة، إذ أن كل شيء له شكل ـ فهذا يستحيل تجنّبه. فانعدام الشكل في السلطة، أشبه بانعدامه في الماء، أو الزئبق، يأخذ شكل أي وعاء يحيط به. ومع تغيره المستمر، لا يمكن التنبؤ قَطّ. فذوو السلطة يخلقون شكلاً باستمرار، وتأتي سلطتهم من السرعة التي يتغيرون بها. وانعدام شكلهم في عين العدو، الذي لا يستطيع أن يرى ما يرمون إليه، يؤدي إلى عدم وجود شيء صلب يهاجمه العدو. فهذا هو الموقف الأول للسلطة: شيء لا يمكن الإمساك به، متملص وسريع التغير، كالإله عطارد عند الإغريق الأقدمين، يستطيع أن يتخذ أي شكل يحبه، وقد استغل هذه المقدرة لإحداث الفوضى والتخريب على جبل الأولمب (موطن آلهة الإغريق).

فالمخلوقات التي من صنع البشر تتطور نحو التجريد، نحو صيرورتها عقلية أكثر ومادية أقل. وهذا التطور واضح في الفن، الذي اكتشف اكتشافاً عظيماً في القرن العشرين، هو التجريد والتركيز على المفاهيم عموماً؛ ويمكن رؤيته في السياسة أيضاً، إذ راحت مع الزمن تميل إلى التقليل من العنف المكشوف، وصارت أكثر تعقيداً، وغير مباشرة، وعقلية. كما أن فن الحرب والاستراتيجية قد اتبعا هذا النمط. فالاستراتيجية تبدأ في المناورة بالجيوش على الأرض، بوضعها في تشكيلات منتظمة؛ فالاستراتيجية على اليابسة ذات بُعْدَيْن نسبياً. وتتحكم فيها الطوبوغرافيا، أي السمات السطحية. ولكن كل القوى الكبرى اتجهت في آخر الأمر إلى البحر، للتجارة وللاستعمار. ولحماية

المطالَبات الصاخبة للحاجات الداخلية. وهذا التصفيح يجعل الشخص أقل تحسُّساً بالشيء غير السارّ، ولكنه أيضاً يقيد حركته الشهوانية والعدوانية، وبذلك يقلل قدرته على الإنجاز وعلى المسرّة. فنقول إن هذه «الأنا» أو «الذات» قد أصبحت أقل مرونة وأكثر تصلباً، وإن القدرة على تنظيم اقتصاد الطاقة يعتمد على مدى التصفيح المدرع.

فيلهلم رايخ
1897 ـ 1957

خطوطها التجارية اضطرت إلى تعلم كيفية القتال في البحر. ويتطلب فن الحرب البحرية قدرة هائلة على الخلق والتفكير المجرد، إذْ أن الخطوط تتغير وتتحول باستمرار. فقباطنة الأساطيل يميزون أنفسهم بقدرتهم على التكيف للسيولة الحَرْفِيَّة للبقعة، وعلى إرباك العدو وتشويشه بشكل مجرد يصعب توقعه. إذّ إنهم يعملون في بُعْدٍ ثالث: هو العقل.

أما على الأرض فإن حرب الغِوَار (حرب العصابات) أيضاً قد أظهرت تطوراً مماثلاً نحو التجريد. ولعل توماس إدوارد لورانس (المعروف أيضاً بلورانس العرب) كان أول استراتيجي في العصر الحديث يطوّر النظرية الكامنة وراء هذا النوع من الحروب، ويضعها موضع التطبيق. وقد أثرت أفكاره في ماو، الذي وجد في كتاباته معادلاً غربيّاً غريباً للعبة **وي ـ شي**. كان لورانس يعمل مع العرب المقاتلين دفاعاً عن أرضهم ضد الأتراك. وكانت فكرته هي جعل العرب يتماهون مع الصحراء الشاسعة، فلا يقدّمون أي هدف أبداً، ولا يتجمعون معاً في مكان واحد قطّ. وعندما هرع الأتراك لقتال هذا الجيش المتبخّر، فانتشروا بشكل رقيق متباعد غير متماسك، وأضاعوا طاقة في التنقل من مكان إلى مكان. كانت لديهم قوة نيران متفوقة، ولكن العرب احتفظوا بزمام المبادرة بممارسة لعبة القط والفأر، فلم يقدموا للأتراك شيئاً يمسكون به، وبذلك حطموا معنوياتهم. وكتب لورانس: «إن معظم الحروب هي حروب اتصال وتماسٌ... أما حربنا فينبغي أن تكون حرب انفصال. كان علينا أن نحتوي العدو فنحيط به بالتهديد الصامت لصحراء مجهولة شاسعة، فلا نكشف أنفسنا إلاَّ عندما نهاجم».

وهذا هو الشكل الأكمل للاستراتيجية. فلقد أصبحت حرب الاشتباك مفرطة الخطر وباهظة الكلفة للغاية. والكلفة الرئيسية عقلية في الواقع ـ التفكير الذي يتطلبه نشر قواتك في أنماطٍ مبعثرة، وإحداث خلل أو اضطراب في أذهان ونفسيات خصومك. ولا شيء يثير حنقهم ويشوش توجهاتهم أكثر من اتخاذك هيئة لا شكل لها. وفي عالمٍ تسود

فيه حروب الانفصال وتجنب الاشتباك، يصبح انعدام الشكل مسألةً حساسة الأهمية.

وأول المتطلبات النفسية لانعدام الشكل، هي تدريب نفسك على عدم أخذ شيء على محمل شخصي. وإياك أن تُظْهِرَ أي موقف دفاعي. لأنك عندما تتصرف بأسلوب دفاعي تُظْهر عواطفك، فتكشف شكلاً واضحاً. وعندئذٍ يدرك خصومُك أنهم قد أصابوا فيك عصباً حساساً، أي كعب أخيل (نقطة ضعف). فيضربون تلك النقطة مرة أُخرى وأُخرى. وهكذا درِّب نفسك على أن لا تأخذ أي شيء على محمل شخصيّ. ولا تدع أي شخص يؤذيك أو ينتقم منك. وكُنْ كالكرة المنزلقة التي لا يمكن الإمساك بها. ولا تدع أحداً يعرف ما الذي يؤذيك، أو أين تكمن نقاط ضعفك. اجعل وجهك قناعاً لا شكل له، فبذلك تثير حنق زملائك وخصومك المتآمرين وتُرْبِكُ توجهاتِهم.

ومن بين الذين استخدموا هذا الأسلوب البارون جيمس روتشيلد. وكان يهودياً ألمانيّاً في باريس، في ثقافة معادية للأجانب بشكل حاسم. فلم يأخذ أي هجوم عليه على محمل شخصي أبداً، ولم يُظْهِرْ أنه قد جُرِحَ أو أُوذي بأية طريقة. وبالإضافة إلى ذلك كيَّف نفسه للمناخ السياسي مهما كان ـ لملكية لويس الثامن عشر المُعَادَةِ الرسمية الصارمة، ولعهد لويس فيليب البرجوازي، وللثورة الديمقراطية في سنة 1848، وللويس نابليون المدعي مُحْدَثِ النعمة الذي تُوِّجَ إمبراطوراً في سنة 1852. وقد تقبّلهم روتشيلد جميعاً واختلط في مجتمعاتهم. وكان يطيق أن يظهر بمظهر المنافق أو الانتهازي لأنه كان مقدَّراً بسبب أمواله، وليس ميوله أو آرائه السياسية؛ فأمواله كانت عملة السلطة. وبينما كان يتكيف وينتعش، غير مُظْهِرٍ أي شكلٍ من الخارج، دُمِّرت كلُّ العائلات العظيمة التي كانت قد بدأت القرن التاسع عشر وهي فاحشة الغنى، فدمرتها تقلبات العصر المعقدة وتحولات الحظ. ذلك أنها ربطت نفسها بالماضي، فكشفت عن اعتناقها لشكل من الأشكال.

وطوال التاريخ كانت الملكة التي تحكم وحدها هي خير مَنْ يتقن تطبيق أسلوب الحكم بانعدام الشكل. فمركز الملكة يختلف اختلافاً جذرياً عن مركز الملك؛ فنظراً لكونها امرأة، فإن من المحتمل أن يشكّ رعاياها ورجال حاشيتها في قدرتها على الحكم، وفي قوة شخصيتها. فإذا انحازت إلى طرف في صراع عقائدي، قيل إنها تتصرف بدافع من ارتباط عاطفيّ. ومع ذلك فإذا كبتت عواطفها ومارست لعبة السلطة بأسلوب الذكور، فإنها تثير انتقاداً أسوأ من ذلك. وإذن تميل الملكات إلى اعتماد أسلوب مَرِنٍ في الحكم، إمّا بسبب طبيعتهن أو تجربتهن. وكثيراً ما يتضح في آخر الأمر أن هذا الأسلوب أقوى من الشكل الأكثر مباشرة، الذي يمارسه الذكور.

وهناك امرأتان تمثلان الأسلوب عديم الشكل في الحكم، هما آليزابيث الأولى ملكة إنكلترا، وكاترين العظمى إمبراطورة روسيا. ففي الحروب العنيفة بين الكاثوليك والبروتستانت اختطت آليزابيث مساراً وسطاً. فتجنبت التحالفات التي من شأنها إلزامها بالوقوف إلى جانب طرفٍ مّا، والتي تؤذي بلدها بمرور الزمن. واستطاعت أن تبقي بلدها في سلام حتى صار قوياً بما يكفي لخوض الحرب. وكان عهدها من أمجد العهود في التاريخ بسبب قدرتها على التكيف، وبسبب عقيدتها المرنة.

وطورت كاترين العظمى أسلوباً ارتجالياً في الحكم كذلك. فبعد أن أزاحت زوجها الإمبراطور بطرس الثاني، واستولت على حكم روسيا وحدها في سنة 1762، لم يكن أحد يعتقد أنها ستبقى. ولكنها لم تكن تحمل أفكاراً مسبقة، ولا فلسفة، ولا نظرية لإملاء سياساتها. ورغم أنها أجنبية (فقد كانت من ألمانيا)، فقد كانت تفهم طبائع الروس. وكيف كانت آخذة في التغيّر بمرور السنين. وقالت: «على المرء أن يحكم بطريقة تجعل أبناء شعبه يعتقدون أنهم يريدون بأنفسهم أن يقوموا بما يأمرهم به». ولتحقيق ذلك، كان عليها أن تكون متقدمة بخطوة تستبق رغباتهم، وأن تتكيف لمواجهة مقاومتهم. وبامتناعها عن فرض الأمر

فرضاً، أصلحت روسيا في فترة زمنية قصيرة إلى حد مذهل.

ولعل هذا الأسلوب الأنثويّ العديم الشكل في الحكم قد برز كطريقة للازدهار تحت ظروف صعبة، ولكنه أثبت أيضاً أنه أسلوب شديد الإغواء لمن خَدَمُوا في ظلّه. وبما أنه سائل فسيطيعه رعاياه بسهولة نسبياً، لأنهم يشعرون بأنهم أقل تعرضاً للإرغام، وأقل انحناء لعقيدة حاكمهم. كما أنه يفتح خيارات حيث يغلقها التمسك بمذهبٍ مّا. فبدون الالتزام بطرف واحد، يسمح هذا الأسلوب للحاكم أن يضع عدواً في مواجهة آخر. وقد يبدو الحكام الجامدون الصارمون أقوياء. ولكن عدم مرونتهم ينهك أعصابهم بمرور الزمن، ويجد رعاياهم طرقاً لإبعادهم عن المسرح. أما الحكام المَرِنُونَ عديمو الشكل فَسَيُنْتَقَدُون كثيراً، ولكنهم سيتحملون ويدومون، ويعتاد الناس في آخر الأمر على الانسجام معهم، لأنهم شبيهون برعاياهم ـ يتغيرون مع الريح، وينفتحون على الظروف.

ورغم حالات القلق والتأخير فإن أُسلوب السلطة المساميّ النفيذ ينتصر على وجه العموم في النهاية، تماماً كما انتصرت أثينا على إسبارطة في آخر الأمر عن طريق أموالها وثقافتها. فعندما تجد نفسك في صراع مع أناس أقوى منك وأكثر تصلباً، فاسمح لهم بنصر مؤقت. واظهر لهم كأنك تنحني لتفوقهم. ثم عن طريق كونك عديم الشكل وقابلاً للتكيف، تسلل ببطء إلى داخل أرواحهم. وبهذه الطريقة تفاجئهم من مأمنهم قبل أن يأخذوا حذرهم، إذْ أن الناس الجامدين مستعدون دائماً لصد الضربات المباشرة ولكنهم بلا حول ولا قوة إزاء الذكي الخفي المستلل بلطف. ولكي تنجح في هذه الاستراتيجية، ينبغي عليك أن تمارس دور الحرباء ـ أي تمتثل وتنسجم من الخارج فيما يبدو على السطح، بينما أنت تحطم عدوك من الداخل.

فلقد ظل اليابانيون قروناً متطاولة يتقبلون الأجانب بأدب وكياسة، ويظهرون وكأنهم عرضة للخضوع للثقافات والتأثيرات الأجنبية. وكان خُوياوْ رودريغيز قسيساً برتغالياً وصل إلى اليابان في سنة 1577، وعاش

هناك سنوات كثيرة. فكتب يقول: «أنا مذهول من استعداد اليابانيين لتجربة كل شيء برتغالي وقبوله». فكان يرى اليابانيين في الشوارع مرتدين الملابس البرتغالية، تتدلى من أعناقهم السُّبْحَات، وعلى جنوبهم الصُّلبان. وقد تبدو حضارة كهذه ضعيفةً متقلِّبة. غير أن قابلية اليابان للتكيف في الحقيقة قد حَمَت البلدَ من التعرض لفرض حضارة غريبة عليه بغزو عسكري. وهكذا أغوت اليابانُ البرتغاليين والغربيين الآخرين بجعلهم يعتقدون أن اليابانيين كانوا يخضعون لحضارة متفوقة في حين أن أساليب الحضارة الأجنبية لم تكن عند اليابانيين سوى طرازٍ أو زِيٍّ يُلْبَسُ ويُخْلَع. وتحت السطح ظلت الحضارة اليابانية منتعشة. ولو كان اليابانيون متصلبين إزاء التأثيرات الأجنبية، وحاولوا أن يبعدوها عنهم بالقتال، لكان من المحتمل أن يعانوا من ضروب الأذى ما ألحقه الغرب بالصين. وتلك هي قوة انعدام الشكل. فهي لا تمنح المعتدي شيئاً يبدي ضده ردة فعل، أو شيئاً يضربه.

في التطور، كثيراً ما يكون كبر الحجم أولَ خطوة نحو الانطفاء. فما هو هائل ومنفوخ لا قدرة له على الحركة، ولكن عليه أن يغذي نفسه باستمرار. فالأغبياء كثيراً ما ينخدعون بالاعتقاد أن الحجم يتضمن معنى القوة، وأنه كلما كبر أكثر كان ذلك أفضل.

في سنة 483 ق .م، غزا اليونانَ ملكُ فارس، إكسيركسيس، معتقداً أنه يستطيع إخضاعها في حملة سهلة واحدة. فبعد كل شيء، كان معه أضخم جيشٍ اجتمع لغزوة واحدة في العالم ـ وقدّر هيرودوتس المؤرخُ عَدَدَهُ بما يزيد على خمسة ملايين. وقد خطط الفرس لبناء جسر عبر مضيق الدردنيل ليجتاحوا اليونان من البرّ، بينما يقوم أسطولهم الهائل كذلك بحصر السفن الإغريقية في موانئها، فيمنع قواتها من الهرب إلى عرض البحر. وبدت الخطة موثوقة. ومع ذلك فعندما كان إكسيركسيس يهيِّىء الغزو حذره مستشاره آرطابانوس من هواجس خطيرة، فقال له: «إن أعظم قوتين في العالم ضدك». فضحك إكسيركسيس، فأي قوة

يمكن أن تضاهي جيشه الضخم؟ فأجاب آرطابانوس: «سأخبرك بهما. إنهما الأرض والبحر». إذ لم تكن هناك موانىء كبيرة إلى حد القدرة على استقبال أسطول إكسيركسيس. وكلما احتل الفرس مزيداً من الأرض امتدت خطوط مواصلاتهم ومؤنهم مسافة أطول، كما اتضح كم هي قاصمة تكاليف إطعام هذا الجيش الهائل.

وظن إكسيركسيس أن مستشاره جبان، فانطلق في الغزو. ومع ذلك فمثلما تنبأ آرطابانوس، مزّق الطقسُ البحريُ السيِّىءُ الأسطولَ الفارسيَّ، الذي كان أضخم من أن يتمكن من اللجوء إلى أي ميناء. أما على اليابسة، في تلك الأثناء، فقد دمّر الجيشُ الفارسيُّ كلَّ شيء في طريقه، مما جعل عملية إطعامه مستحيلة، لأن التدمير قد شمل المحاصيل ومخازن المؤن والأغذية. كما أنه كان هدفاً سهلاً بطيء الحركة. ومارس الإغريقُ كل أنواع المناورات التضليلية لتشويش توجُّه الفرس وإرباكهم. فكان اندحارُ إكسيركسيس في آخر الأمر على أيدي الحلفاء الإغريق هزيمةً ساحقة. والقصة ترمز إلى كل الذين يضحون بالقدرة على الحركة في سبيل ضخامة الحجم: فأصحاب المرونة وسرعة الحركة يكسبون بصورة تكاد تكون دائمة، لأن لديهم خياراتٍ استراتيجيةً أكثر. فكلما زادت ضخامة العدو، صار إحداث انهيار في صفوفه أسهل.

وتصبح الحاجة إلى انعدام الشكل أكبر كلما تقدمت بنا السنّ، حالما يزيد احتمال تجمدنا على أساليبنا، ونتخذ شكلاً متصلباً أكثر مما ينبغي. فعندئذٍ يصبح التنبؤ بتصرفاتنا ممكناً. وهذه دائماً أول علامات العجز والشيخوخة. وسهولة التنبؤ هذه كثيراً ما تجعلنا نبدو مضحكين. وعلى الرغم من أن السخرية والاحتقار قد يبدوان شكلين ملطفين من الهجوم، فإنهما في الحقيقة سلاحان حادّان، ويمكنهما في آخر الأمر أن يجعلا أساس السلطة يتآكل. ذلك أن العدوّ الذي لا يحترمك يجترىء عليك. والجرأة تجعل حتى أصغر الحيوانات خَطِراً.

فالبلاط الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر، كما تمثله ماري آنطوانيت، كان قد صار مرتبطاً بالشكليات الجامدة على نحو ميؤوس منه إلى درجة أن المواطن الفرنسي العادي المتوسط راح يعتبره أثراً سخيفاً بالياً من الماضي الغابر. وهذا التناقص في قيمة مؤسسة عمرها قرون كان أولَ علامةٍ على اقتراب كارثة نهائية؛ لأنه كان يمثل تراخياً رمزياً في علاقات الشعب وارتباطاته بالملكية. وبينما راح الوضع يسوء، فإن ذلك لم يجعل ماري آنطوانيت ولويسَ السادسَ عشر يزدادان إلاّ تصلباً في تمسكهما بالماضي ـ فعجّل ذلك طريقهما إلى المقصلة. وقد كان رد فعل الملك شارلس الأول في إنكلترا مماثلاً إزاء استفحال مدّ التغيير الديمقراطي الذي كان آخذاً في التجمّع في إنكلترا أثناء ثلاثينات القرن السابع عشر. فقام بحلّ البرلمان، وصارت شعائر بلاطه أكثر شكلية وبروداً وتشامخاً. وكان يريد العودة إلى طراز من الحكم أقدم، بالتمسّك بكل نوعٍ من صغائر المراسم التشريفاتيّة وسفاسفها. فلم ينجم عن تصلبه سوى تصاعد الرغبة في التغيير. وبالطبع سرعان ما اكتسحته حربٌ أهلية مدمّرة، وفي خاتمة المطاف فَقَدَ رَأسَهُ تحت فأس الجلاّد.

مع تقدمك في العمر، ينبغي أن يتناقص اعتمادك على الماضي. وكُنْ يقظاً، لئلاّ يحيلك الشكلُ الذي اتخذَتْهُ شخصيتُكَ إلى أثر قديم. وليست المسألة مسألة تقليد أساليب الشباب ـ فهذا يدعوهم إلى الضحك كذلك. بل يجب أن يتكيف عقلك باستمرار لكل ظرف من الظروف، حتى للتغيير المحتوم القاضي بأن الوقت قد حان للتحرك بإفساح المجال للشباب كي يتهيأوا لصعودهم. فلن ينجم عن التصلُّب إلاّ جعلك تبدو كالجثة البالية بصورة غريبة.

وإياك أن تنسى أن انعدام الشكل موقف استراتيجي، فهو يفسح لك مجالاً لخلق مفاجآت تكتيكية. وبينما يكافح أعداؤك ليخمِّنوا حركتك القادمة، فإنهم يكشفون استراتيجيتهم، مما يعطيك ميزة عليهم فتبقى المبادرة في يدك ـ وهذا بدوره يضع أعداءك في موقف عدم

التصرف أو الفعل، بل يضعهم في موقف ردّ الفعل دائماً، كما يُفْشِلُ تجسسَهم وعملَ مخابراتهم.

تذكّر: إن انعدام الشكل أداة. فلا تخلط، أبداً، بينها وبين أسلوب مجاراة التيار، أو الاستسلام الديني المتواكل لتقلبات الحظ. فأنت تستخدم انعدام الشكل، لا لأنه يخلق التناغم الداخلي المنسجم والسلام، بل لأنه سيزيد سلطتك.

وأخيراً، فإنَّ تَعَلُّمَ التكيفِ لكل ظرف جديد، معناه رؤية الأحداث من خلال عينيك أنت، والإكثار من تجاهل النصائح التي يوجهها إليك الناس باستمرار. ومعناه أنه ينبغي عليك أن تطرح جانباً القوانينَ التي يبشر بها الآخرون، والكتبَ التي يؤلفونها، ليخبروك بما يتعين عليك عمله، والنصائحَ الحكيمةَ من كبار السن. فقد كتب نابليون بونابرت: «إن القوانين التي تحكم الظروف تلغيها الظروف المستجدّة». ومعنى ذلك أن سبر غور كل وضع جديد هو أمر متروك لك. فإذا اعتمدت أكثر مما ينبغي، على أفكار الناس الآخرين، فسوف ينتهي بك الأمر إلى اتخاذ شكل ليس من صنعك. ذلك أن احترام حكمة الآخرين أكثر مما ينبغي سيجعلك تقلل من قيمة حكمتك. فكن قاسياً مع الماضي، وخصوصاً ماضيك أنت. ولا تحترم الفلسفات التي تُدَسُّ عليك بالتدليس من الخارج.

صورة: عطارد ـ الرسول المجنح للآلهة عند الرومان، وإله التجارة، والقديس الراعي للصوص، والمقامرين، وكل ممارسي الخداع بالخفة وسرعة الحركة. وفي اليوم الذي ولد فيه عطارد اخترع القيثارة: وفي مساء ذلك اليوم كان قد سرق ماشية آبوللو. وهو يطوف العالم، متخذاً اي شكل يرغب فيه. ومثل المعدن السائل المسمَّى باسمه (الزئبق) فإنه يجسِّد التملُّص، والشيء الذي لا يمكن الإمساك به ـ اي سلطة انعدام الشكل.

الشاهد: ولذا فإن اكتمال تشكيل جيشٍ مّا هو الوصول به إلى حالة انعدام الشكل. لأن النصر في الحرب ليس متكرراً، بل إنه يكيّف شكله بصورة لا تنتهي... والقوة العسكرية ليس لها تشكيل ثابت باستمرار. إذْ ليس للماء شكل ثابت ومستمر. والقدرة على الفوز بالنصر من خلال التغير والتكيف حسب الخصم تسمَّى عبقرية.

(صُنْ ـ تزو، القرن الرابع قبل الميلاد)

الانقلاب

إن استخدام المساحة للانتشار وتشكيل نمط مجرد يجب أن لا يعني التخلي عن تركيز قوتك عندما يكون ذلك ثميناً لك. فانعدام الشكل يجعل أعداءك يبحثون عنك في كل مكان لاصطيادك، وبذلك يبعثرون قواتهم، العقلية منها والمادية أيضاً. وعندما تشتبك معهم في آخر الأمر، وَجِّهْ إليهم ضربةً قوية، ومركّزة. فبهذه الكيفية نجح ماو ضد الوطنيين. فقد جزّأ قواتهم إلى وحدات صغيرة منعزلة، وعندئذ صار بوسعه أن يسحقها بهجوم قويّ. فَسادَ قانونُ التركيز هنا.

وعندما تلعب بانعدام الشكل، كُنْ متحكماً بالعملية تماماً. واحفظ في ذهنك استراتيجيتك الطويلة الأمد. وعندما تتخذ شكلاً وتنطلق للهجوم، استخدم التركيز، والسرعة، والقوة. وكما قال ماو: «عندما نقاتلك نحن، فإننا نحرص على التأكد من عدم تمكينك من الهرب».

إلى أولئك الباحثين عن القوة، أو الذين يرقبون القوة، أو الذين يبتغون ما يحصنهم من غائلة القوة...

البعض يعبث
بالقوة ويخسرها في
غلطة قاتلة. وبعضهم يغلو
أو يُقَصِّر فيها. وهناك آخرون
يعدون العدةَ كاملة فيستطيعون
أخذ القوة إلى جانبهم ببراعة خارقة
لطبائع البَشَر. فعلى مَرِّ الدُّهور
تساءل العلماء والفلاسفة: ما هي
الدروس التي ينبغي لنا أن نتعلمها
من نجاح أسلافنا ومن إخفاقاتهم؟
على الرغم من أن كتابات متنوعة
كتبت عن القوة على مدى أكثر من
ثلاثة آلاف سنة، هناك عوامل
تشبكها جميعاً في موضوعات
متكررة، إنها تلك الأفكار التي
تُلَمِّح إلى جوهر القوة وتلوح
إلى خصائص مُعَدِّلة
لزيادتها ونقصانها.

روبرت غرين، يحمل درجة في الدراسات الكلاسيكية، وكان مُحَرِّراً في مجلة إسكوايَر ومجلات غيرها، وهو كاتب مسرحي يعيش في لوس أنجلوس.

جوست إلفرز، هو منتج استوديو كتب پنغوين الأكثر مبيعاً، ويعيش في مدينة نيويورك.

موضوع الكتاب: النجاح
موقعنا على الانترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com

ISBN:5-963-40-9960